

المكتبة القبطية على الانترنت





بستان الروح

لجزء الثالث

لإضافة
الأنبياء والنبي
أمسك العسيرة





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء الثالث

الطبعة الثانية

تأليف
الأب بيار يواكيم
أسقف القرويه

الكتاب : بستان الروح (الجزء الثالث) .

المؤلف : نياقة الحبر الجليل الأنبا يؤانس .

الطبعة : الثانية مايو ١٩٨٦

المطبعة : الأنبا رويس (الأوفست) العباسية - القاهرة .

رقم الإيداع بدار الكتب : ٥٧٦٦ / ١٩٨٥ م .

تقديم

صدر الجزء الأول من كتاب بستان الروح في عام ١٩٦٠ ، أى منذ ربع قرن من الزمان ... والجزء الثانى منه ظهر أوائل عام ١٩٦٣ أى منذ أكثر من اثنى وعشرين سنة . وكان الترتيب أن يظهر الكتاب فى ثلاثة أجزاء ... الجزء الأول يتناول حياة التوبة ، والجزء الثانى يتناول موضوع الوسائط الروحية ، أما الجزء الثالث فقد أبقيناه للحديث عن الدرجات الروحية العليا...

توقفت عن كتابة الجزء الثالث من بستان الروح لانشغالى فى إصدار كتابين كان العمل بالكلية الاكليريكية يحتاجهما ، هما « الكنيسة فى عصر الرسل » ثم كتاب « الاستشهاد فى المسيحية » ... بعدها انشغلت فى مهام الأسقفية منذ أواخر عام ١٩٧١ . وأصدرنا منذ ذلك التاريخ ثمانية كتب هى العظات التى تعودنا إلقاءها فى آحاد الصوم الكبير من كل عام...

وفى ملء الزمان ... وبعد ربع قرن ، نتمم ما وعدنا به القارىء ، وهو الجزء الثالث من كتاب بستان الروح .

فى هذا الكتاب نتكلم عن المحبة فى ثلاثة موضوعات ، والإيمان فى موضوعين ، ثم موضوع عن كل من الرجاء وحياة التسليم وحياة السلام ، ومبدأ الباب الضيق فى الحياة الروحية ... وأخيراً نختم الكتاب بموضوع كبير عن الملكوت ...

فى مقدمة الجزء الأول للكتاب الذى صدر منذ ربع قرن كتبت [هذا الكتاب ثمرة من ثمرات الألم أولاً وآخرأ] ... كانت البداية هكذا ... وأشكر الله أن هذا الجزء الثالث الذى بين يديك هو أيضاً ثمرة من ثمار الألم ، بعد أن عاودتنى آلام الجسد فى صورة أخرى أكثر خطورة ...

لقد اختبرت أن ثمر الألم حلو . والله بحكمته يعرف كيف يخرج من الآكل أكلاً ومن الجافى حلاوة ... وما يهمنى أن أقوله انه إن كنت قد بدأت هذا الكتاب بالألم فقد ختمه الله بالألم أيضاً ... وإذا كان للألم هذه البركات فنشكر الله الذى قال بضم رسوله الأمين بولس : « وهب لكم لأجل المسيح ، لا أن تؤمنوا به فقط بل أيضاً أن تتألموا لأجله » (فى ١ : ٢٩) .

إنى أقدم الشكر لله من عمق أعماق قلبي الذي أعاننى على حرج هذا كتاب .
فیده كانت واضحة معى فى الكتابة ، ونعمته تفاصلت علىّ جدٌ حتى نمت هذا
العمل الذى أختمه بالحديث عن الملكوت ...

أضع هذا الكتاب بين یدى الله الذى أحبنا لكى يجعله سبب بركة لكل من
یقرأه . ولیظل دائماً كما كان بستاناً دائم الخضرة تجدد فيه كل نفس متعبة راحته من
عناء العالم ...

ونعمة الرب تشملنا جميعاً ولعظمته تعالى كل المجد ،

یوانس

بنعمة الله أسقف الغربية

١١ من سبتمبر سنة ١٩٨٥ م تذكّار رأس سنة الشهداء
أول تسوت سنة ١٧٠٢ ش

الفهرست

صفحة

٧	محبة الله للإنسان
٩	المقياس عند الله هو المحبة
١٠	ما هي المحبة ؟
١٢	محبة الله لجميع الخلائق
١٤	محبة الله للإنسان
١٤	في أى الأمور نلمس محبة الله للإنسان
١٥	في خلقه الإنسان
١٧	في عنايته بالإنسان
٢٠	في المجدي الأبدى للإنسان
٢٨	لماذا يسمح الله بأن يتألم الإنسان ؟
٣١	محبة الإنسان لله
٣٢	محبة الإنسان لله صدى لمحبه له
٣٦	قيمة المحبة في نظر الله
٣٩	لماذا يجب أن يحب الإنسان الله
٤٦	محبة الإنسان لله ومحبه للعالم
٤٩	في أى شيء تظهر محبة الإنسان لله
٥١	فضائل ترتبط بمحبة الإنسان لله
٥٤	عشاء غرّس الحمل
٥٧	محبة الإنسان لأخيه الإنسان
٥٩	محبة الإنسان للإنسان في تعليم السيد المسيح
٦١	محبة الإنسان للإنسان في تعليم الرسل

٦٣ المحبة الاخوية في حياة الكنيسة
٦٧ مفهوم جديد يقدمه المسيح لمحبة الإنسان للإنسان
٦٨ تعليم المسيح عن هو القريب
٧١ محبة الأعداء في تعليم المسيح
٧٣ سمات المحبة المسيحية في محبة الإنسان للإنسان

٨٥ الإيمان بالله - فعاليته وثماره
٨٧ ما هو الإيمان
٨٨ العقل والإيمان
٩٠ الإيمان والأمور التي لا تُرى
٩١ إيماننا المسيحى في الله وهل يتضمن عقائد محددة ؟
٩٥ هل للإيمان درجات ؟
٩٦ علاقة الإيمان بالحياة الروحية
٩٩ بعض ثمار الإيمان
١٠٥ مشجعات الإيمان ومعوقاته

١١١ الإيمان في معجزات السيد المسيح
١١٢ معنى المعجزة - اعتراضات ضد المعجزات
١١٦ الشيطان والمعجزات
١١٧ كيف تميز بين المعجزة والضلالة
١١٨ السحر وتحضير الأرواح
١٢٢ المؤمنون والسحر والسحرة
١٢٥ الإيمان في معجزات السيد المسيح
١٢٧ شفاء نازقة الدم
١٢٦ شفاء المفلوج
١٢٨ تفتيح عيني بارتيمائوس
١٢٨ شفاء ابنة الكتعنانية
١٢٩ شفاء غلام قائد المائة

١٣١ قصص عن معجزات معاصرة

١٣٥ الرجاء

١٣٧ المسيح هو موضوع رجائنا

١٣٩ المسيح رجاء الوثنيين ١٣٧ رجاء اليهود قبل مجيئه

١٤٠ المسيح رجاء اليهود والوثنيين حال وجوده بالجسد

١٤١ المسيح رجاء جميع المؤمنين بعد ارتفاعه إلى السماء

١٤٣ الرجاء والمسيح في الأناجيل

١٤٤ ارتباط الرجاء بالفضائل الأخرى

١٤٨ لماذا نترجى الله ؟

١٥١ مما يقوى فينا الرجاء

١٥٣ المسيح رجاء المتعبين

١٥٨ أمثلة لأشخاص تعلقوا بالرجاء

١٦١ حياة السلام

١٦٢ المسيحية والسلام

١٦٤ السلام والإيمان المسيحي

١٦٥ المسيحي والسلام

١٦٧ اختبار السلام في حياة رجال الله

١٦٨ ومع السلام يأتي الفرح

١٧١ حياة التسليم

١٧٢ حياة التسليم هي أعظم التقدعات المقبولة

١٧٣ أمور تسبق حياة التسليم

١٧٤ مظاهر حياة التسليم

- ١٧٦ بركات حياة التسليم
١٧٩ أمور تساعد الإنسان على حياة التسليم

١٨٠ مبدأ الباب الضيق في الحياة الروحية

- ١٨٢ ما هو الباب الضيق ؟
١٨٤ هل من تناقض بين محبة المسيح والدعوة للدخول من الباب الضيق ؟

١٨٤ ما هي حكمة الباب الضيق ؟

- ١٨٥ هو وصية المسيح ١٨٤ به نشابه المسيح
..... هو طريق جميع القديسين ١٨٦
..... هو الأسلوب الذي يناسب الإنسان روحياً ١٨٩
..... هو الطريق الموصلة للمجد الأبدى ١٩١

١٩٢ مبدأ الباب الضيق في التوبة

١٩٨ مبدأ الباب الضيق في الممارسات الروحية

٢٠١ مبدأ الباب الضيق في مشاكل الحياة

- ٢٠٢ المشاكل الأسرية ٢٠١ مشاكل العمل ٢٠٢
..... آلام المرض ٢٠٣ اغراءات العالم ٢٠٣

٢٠٥ الملوكوت

٢٠٧ ملكوت الله وملكوت السموات

٢١٠ فكرة الملوكوت في العهد القديم

٢١١ ملكوت المسيح روحى لا مادى

٢١٣ ما المقصود بملكوت الله ؟

٢١٥ أمثال المسيح عن الملوكوت ودلالاتها

٢١٦ مثل الزارع

٢١٧	مثلا الزوان والحنطة والشبكة المطروحة في البحر
٢٢٢	مثلا حبة الحردل والخميرة ٢١٩ مثل القعلة في الكرم
٢٢٣	مثل العريس والمدعوين
٢٢٤	مثلا الكنز المخفى في الحقل واللؤلؤة الكثيرة الثمن
٢٢٩	مثل العذارى
٢٣١	سعادة الملكوت والحياة الابدية

محبة الله للإنسان

• المقياس عند الله هو المحبة .

• ما هي المحبة ؟

+ محبة الله لجميع الخلائق . + محبة الله للإنسان .

• في أي الأمور نلمس محبة الله للإنسان ؟

+ في خلقه الإنسان . + في التجسد والفداء .

+ في عنايته بالإنسان . + في محبته للخطاة .

+ المجد الأبدى للإنسان .

• لماذا يسمح الله بأن يتألم الإنسان ؟

حينما نتحدث عن المحبة ، فإنما نتحدث عن أعظم الوصايا الإلهية ، بل الكل مجموع في واحد . ونتحدث عما هو شقّى إلى قلب الله الذى هو المحبة ذاتها ... وفى نفس الوقت نتحدث عن شيء سهل على الإنسان إتقانه . فإنك إن أردت أن تحب الله لا تحتاج إلى جهادات أو أتعاب أو اسفار ومشقات أو أموال أو وساطة بشرية . بل يكفيك الرغبة فى أن تحب الله فلا تجد ما يصدك أو يمنعك عن ذلك ... إن المحبة بقدر سموها وعظمتها فهي سهلة . ومن هذا المنطلق نفهم كلمات بطرس الرسول : «لأنه هكذا يقدم لكم بسعة دخول إلى ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدى» (٢بط ١ : ١١) .

عندما سئل رب المجد يسوع المسيح عن أية وصية هي العظمى فى الناموس ، أجاب على الفور أن يحب الإنسان الرب إلهه من كل قلبه ومن كل نفسه ومن كل فكره ، وقرينه كنفسه . ثم عّقب على ذلك بقوله : «بھائین الوصيتين يتعلّق الناموس كله والأنبياء» (مت ٢٢ : ٣٥ - ٤٠) ... والمعنى أن الله ضمّن وصاياه الإلهية كلها فى وصيتين ، بل فى وصية واحدة ذات شقين ، هي المحبة ... إن جميع الوصايا مرتبطة بالمحبة ارتباط الأغصان بأصل الشجرة ، فإذا انفصلت عنها جفّت وماتت ...

ومن منطلق أن المحبة هي : «الوصية الأولى والعظمى» ، وارتباط جميع الوصايا الإلهية بها ، يقول بولس الرسول : «وأما غاية الوصية فهي المحبة من قلب طاهر» (١تى ١ : ٥) . ويضعها هذا الرسول فوق الإيمان الذى ينقل الجبال (١كو ١٣ : ٢) ، والرجاء الذى به نخلص (رو ٨ : ٢٤) . وعملها أول ثمرة من ثمار الروح القدس فى الإنسان المؤمن (غل ٥ : ٢٢) ... ومن جهة فعاليتها يدعوها «رباط الكمال» ... فبعد أن يعدد الرسول الفضائل المسيحية تسوّع يقول : «وعلى جميع هذه البسوا المحبة التى هي رباط الكمال» (كو ٣ : ١٤) ... بـ محبة - بهذا المفهوم - تشبه المِلَاط (المونة) الذى يشدّ قوالب الطوب فى - - - - - تصوّر قوالب الطوب فى بناء مرصوفة بدون ملاط ، ماذا تكون النتيجة ؟! إن

المحبة تربط الإنسان بالله، وتربطه بأخيه الإنسان وتربط الفضائل كلها ببعضها، وبهذا يصبح الإنسان العادى «إنسان الله» بحسب تعبير بولس الرسول (٢تى ١٣ : ١٧) ... إن ارتباط المحبة ببقية الفضائل تجعلها كخيوط المسبحة الذى ينفذ فى كل حبات المسبحة ويربطها جميعاً. لذا إذا خلت أى فضيلة من المحبة فهى مرفوضة... بهذا المعنى نفهم كلمات الرسول بولس : «لأن من أحب غيره فقد أكمل الناموس» (رو ١٣ : ٨).

هذه المعانى كلها دفعت القديس أغسطينوس إلى القول : [الله محبة . ماذا يمكن أن يقال أكثر من هذا ؟ إذا لم يذكر شيء فى مدح المحبة فى رسالة يوحنا الأولى أوفى الأسفار الأخرى ، وكان هذا هو الشيء الوحيد الذى قيل لنا عنها بالروح القدس ، لما احتجنا لشيء آخر... إني أعتبر المحبة انها اللؤلؤة التى توصف فى الإنجيل أن التاجر كان يبحث عنها ، فلما وجدها مضى وباع كل ما كان له واشترأها (مت ١٣ : ٤٦) . المحبة هى اللؤلؤة الكثيرة الثمن التى بدونها لن ينفعك شيء مهما يكون . وإذا كانت لديك فإنها تكفيك] .

المقياس هو المحبة :

ومن فرط تقدير الله للمحبة كفضيلة ، فلقد جعلها مقياساً لمدى معرفة الإنسان له ، حتى أن يوحنا الرسول يقول : «من لا يحب لم يعرف الله ، لأن الله محبة» (١ يو ٤ : ٨) . وفى ذلك يقول القديس أغسطينوس : [لقد بذل الآب المسيح ، ويهوذا أسلمه . ألا يبدو أن ما حدث كان من نوع واحد ؟! كان يهوذا خائناً لأنه أسلمه ، فهل الله الآب أيضاً هكذا ؟! حاشا لله . لكن الرسول يقول : «الذى لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين» . لقد بذله الآب ، وهو بذل ذاته . وإذا كان الآب بذل ابنه ، والابن أسلم ذاته ، فما الذى فعله يهوذا إذن ؟ كان هناك بذل من جانب الآب ، وكان هناك تسليم من جانب يهوذا . لكن ما فعله الآب والابن كان عن محبة ، أما ما فعله يهوذا فكان عن خيانة غادرة . لا يُهم الشيء الذى يعمل الإنسان فى حد ذاته بل المهم هو بآى عقل وإرادة فعله . نحن نجد الله يعمل نفس عمل الذى فعله يهوذا . ونحن نبارك الله ونبغض يهوذا . لماذا ؟ لأننا نبارك المحبة

ونبغض الإثم ... المحبة وحدها هي التي تميز أعمال البشر] ... إن الإنسان يُكافأ عن أعماله الحسنة بقدر ما يكون الدافع لها هو المحبة . وهكذا فإن الأعمال ليس لها استحقاق إلا على قدر المحبة ... إن الأمور الجلييلة بدون المحبة لا تعتبر شيئاً ، لكن الأمور التي تعتر تافهة وحقيرة مع المحبة تساوى شيئاً عظيماً . إن كأس الماء البارد الذي يُقدّم بالمحبة له أجر في السماء .

المحبة ما هي ؟

وقف القديسون والآباء ورجال الله أمام المحبة حائرين مشدوهين . فلقد عجزوا عن التعبير عن كنهها وحصرها بالألفاظ . وهكذا تعددت أوصافهم لها حسبما اختبرها كل واحد منهم ...

فمثلاً يقول الشيخ الروحاني وهو أحد المتوحدين : [المحبة ما هي ؟ إنها ينبوع الطوبى في القلب ، ميناء الأفهام ، أنهار ماء الحياة ، علم سرّ العالمين الكائنين والذين يكونون ... عجيبة هي المحبة التي هي لغة الملائكة ، ويصعب على اللفظ ترجمتها . المحبة اسم الله الكريم . من يستطيع أن يفحصها أو يحدها . من شاء أن يتكلم عن محبة الله ، فهو يبرهن على جهله . لأن الحديث عن هذه المحبة الإلهية غير ممكن البتة] .

ويقول أحد الآباء عن المحبة : [إنها كمال الأعمال الصالحة . هي بركة الفضيلة ، كمال الوصايا الإلهية ، خاتمة الجرائم ، حياة الفضائل ، قوة المجاهدين ، سبغ الظافرين ... إنها تعيد ثانية إلى الحياة الذين يموتون في خطاياهم ... الإيمان يدركها ، والرجاء يطير نحوها ، تحت ظلها تنمو الطاعة ، بها يغلب الصبر ، وبدونها لم يُسرّ أحد الله ... المحبة الحقيقية الأصلية الكاملة هي التي يدعوها الرسول : « طريقاً أفضل » (١ كو ١٢ : ٣١) . وبالحقيقة هي الطريق الذي يقود أولئك الذين يسرون فيه إلى وطنهم الحقيقي] .

محبة الله لجميع الخلائق :

ولأن الله محبة فهو يحب جميع خلائقه ، وليس الإنسان فقط ... إنه يهتم

بالحيوانات والنباتات وحتى الجمادات يقول المزمع: «المفجر عيوناً في الأودية . بين الجبال تجري . تسقى كل حيوان البر... الساقى الجبال من علاليه . من ثمر أعمالك تشبع الأرض . المنبت عشباً للبهائم وخضرة لخدمة الإنسان لاخراج خبز من الأرض ... ما أعظم أعمالك يارب كلها بحكمة صنعت . ملائكة الأرض من غناك . هذا البحر الكبير الواسع الأطراف . هناك دبابات بلا عدد . صغار حيوان مع كبار... كلها إناك تترجى لترزقها قوتها في حينه . تعطيا فتلتقط . تفتح يدك فتشبع خيراً ... ترسل روحك فتخلق وتجدد وجه الأرض» (مز ١٠٤ : ١٠ - ٣٠) . حينما أعطى الله شريعة السبت طبقها أيضاً على الحيوان ، يقول : «وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك . لا تصنع عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمنتك ونزيتك الذى داخل أبوابك» (خر ٢٠ : ١٠) ... «وأما اليوم السابع فسبت للرب إلهك لا تعمل فيه عملاً ما أنت وابنك وابنتك وعبد وأمتك وثورك وحمارك وكل بهائمك» (تث ٥ : ١٤) ... «ست سين تزرع أرضك وتجمع غلتها . وأما في السابعة فترحمها وتتركها ليأكل فقراء شعبك . وفضلتهم تأكلها وحوش البرية» (خر ٢٣ : ١١ ، ١٢) ... «ويكون سبت الأرض لكم طعاماً لك ولعبدك ولأمتك ولأجيرك ولستوطنك النازلين عندك وللبهائمك ، وللحيوان الذى فى أرضك ، تكون غلتها طعاماً» (لا ٢٥ : ٦ ، ٧) ... «لا تكتم الثور فى دراسه» (تث ٢٥ : ٤) ... ويقول المرتل : «الكاسى السموات سحاباً ، المهيء للأرض مطراً ، المنبت الجبال عشباً . المعطى للبهائم طعامها ، لفراخ الغربان التى تصرخ» (مز ١٤٧ : ٨ ، ٩) ... ويقول الله ليونان بعد أن حزن لجفاف القبطية : «أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثر من أثنى عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون عيبتهم من شملهم وبهائم كثيرة» (يونان ٤ : ١١) ... وواضح من هذه النصوص كيف يهتم الله بالحيوانات والبهائم والطيور ، وكيف يدبر لها طعاماً .

وهناك قصة واقعية نشرتها جريدة الأهرام القاهرية الصادرة فى يوم ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢م وكانت مرسلة لرئيس تحريرها من ضابط نقطة بوليس المحرص بجوار مدينة المنيا . ومفادها أن هذا الضابط مع صديق له خرجا إلى خارج البلدة - خلال أحد أيام شهر رمضان وكان قد انقضى - واستندا بظهورهما إلى حائط متهدم منتظرين ساعة

الأفطار. فاسترعى انتباههما دبّور يحمل حبة قمح ويدخل في تجويف بأعلا الجدار ويخرج بدونها... وظل الأمر يتكرر، يأتي الدبور بحبة القمح ويدخل ذلك التجويف ويخرج بدونها... كان ذلك مثاراً لدهشتها لعدم وجود علاقة بين الدبور والقمح - فسلقا الجدار، وما أكثر الغرابة التي لحقتهما حينما وجدا في ذلك التجويف عصفوراً غير قادر على الطيران. وهنا فهما أن الله يعول هذا العصفور ويرسل له طعامه.

ويأتي السيد المسيح ويؤكد نفس المشاعر تجاه الحيوانات والنباتات، يقول: «تأملوا الغربان انها لا تزرع ولا تحصد وليس لها مخدع ولا مخزن والله يقيتها» (لو ١٢: ٢٤) ... «أليست خمسة عصفائر تباع بفلسين، وواحد منها ليس منسياً أمام الله» (لو ١٢: ٦) ... «تأملوا الزنابق كيف تنمو. لا تتعب ولا تفزل. ولكن أقول لكم انه ولا سليمان في مجده كان يلبس كواحدة منها» (لو ١٢: ٢٧) ... فإذا كانت هذه النصوص تظهر محبة الله للنباتات والحيوانات وحتى الجمادات، فكم وكم تكون محبة للإنسان الذي خلقه على صورته ومثاله؟!

محبة الله للإنسان :

في سفر نشيد الأناشيد في العهد القديم يستخدم الله أسلوباً توضيحياً ليصور حبه للنفس البشرية من خلال حب العريس لعروسه... وتشبه العروس محبة عريسها بأنها أطيب من الخمر (نش ١: ٢)، وان علمه فوقها محبة (نش ٢: ٤) ... ويختتم الوحي الإلهي هذا السفر بالقول: «المحبة قوية كالصخر... مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة والسيول لا تغمرها» (نش ٨: ٦، ٧) ... وكتاب العهد القديم مليء بالعبارات التي تعبّر عن محبة الله للبشر، لكن هذا الحب تركّز في إسرائيل كشعب الله، وإن كان قد ظهر بالنسبة للشعوب الوثنية أيضاً كما حدث مع شعب نينوى الأثمي... وكمثال لمحبة الله لشعبه، قصة اخراجهم من أرض مصر بيد قوية وذراع رفيعة بصورة معجزية، وكيف عالهم واعتنى بهم مدة أربعين سنة في برية قاحلة في رحلتهم من مصر إلى أرض كنعان. اطعمهم طوال هذه السنين بالمن والسلوى وانباع لهم ماء من صخرة صماء!! ويستمر الله طوال العهد القديم في اظهار محبته لشعبه، قارة بالنعمة والمعونة وقارة بالتأديب.

كان هذا في العهد القديم ... ورغم وضوحها ، فإن محبة الله في العهد الجديد التي كشفها وأعلنها في شخص يسوع المسيح ربنا ، تكشف لنا عن أعماق محبة الله للبشر بصورة لم يسبق لها مثيل ... يكفي أن نتأمل كلمات الرب يسوع لنيقوديموس : « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد ، لكي لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية » (يو ٣ : ١٦) ... إن هذا التعبير « هكذا أحب الله » ، ينم عن عجز اللغة البشرية في وصف محبة الله للبشر ... فضلاً عن أنه يكشف عن محبة أقانيم الثالوث القدوس للبشر . فالسيد المسيح لم يقل : « هكذا أحب الآب العالم » ، بل : « هكذا أحب الله العالم » ، مؤكداً بذلك حقيقة ثمينه ، هي أن خلاص الشر هو نتيجة محبة الله المثلث الأقانيم ... كان هذا الخلاص في علم الآب السماوي الأزل ، وأتمه الابن الوحيد الجنس بالروح القدس في قلب كل من يؤمن ... وبعبارة أخرى ، فإن خلاص البشر دبره الآب السماوي الذي هو محبة ، وأتمه ابن الله الذي هو محبة ، ولنا بركاته بالروح القدس الذي هو محبة . ما هي المحبة في الذات الإلهية ؟ إنها سرّاً تقوى اللغة البشرية على شرح كنهه . وإذا استطاعت كلمات البشر أن تفسر محبة الله ، لأمكنها أن تفسر الله ذاته .

لا نعجب إذاً لو وصف بولس الرسول لمحبة الله في المسيح بأنها « فائقة المعرفة » (أف ٣ : ١٩) ، نفس المعنى الذي تُعبّر عنه كلمات القديس الإلهي : « ليس شيء من النطق يستطيع أن يحذّر لجة محبتك للبشر » ... وفي ذلك يقول القديس أغسطينوس :

[إن محبة الله لنا لا تُدرك ولا تتغير . ومحبتنا له لم تبدأ من الوقت الذي صولنا فيه معه بدم ابنه ، لكنه أحبنا قبل إنشاء العالم ، قبل أن نوجد ، حتى بذلك نصير لنا مع ابنه الوحيد . يجب ألا نفهم حقيقة مصالحتنا مع الله بموت ابنه على أن الابن صالحتنا معه من هذه الوجهة ، وبدأ الآن يحب أولئك الذين ابغضهم قبلاً ، بنفس الطريقة التي يُصالح فيها عدو مع عدو ، لكي يصبحوا بعد ذلك أصدقاء ، وتحلّ المحبة غير المتغيرة محل بغضتهم الثابتة . لكننا صولنا مع من كان يحبنا ، بل من كنا معه في عداوة بسبب خطايانا ... يقول الرسول : « لكن الله بين محبته لنا ، لأنه ونحن

بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو ٥ : ٨) . لقد كان الله يحبنا حتى حينما كنا نجار بالعداوة ضده ونصنع الشر . كل ذلك على الرغم مما قيل عنه بجلء الحق : « أنت يارب تبغض كل فاعلى الإثم » (مز ٥ : ٥) . وعلى ذلك فلقد أحبنا الله - بطريقة عجيبة ومقدسة - حتى حينما ابغضناه فإنه أحبنا . لأنه أبغضنا بقدر ما تغيرنا عن الصورة التى خلقها ... لقد أبغض فى كل منا ما فعله ، وأحب فيه ما كان قد عمل . وحقاً يمكن فهم ذلك مما قيل : « أنت لا تبغض شيئاً مما صنعت » (حكمة ١١ : ٢٥) ... فالله لا يبغض شيئاً مما صنع ، لأنه كجابل الخلائق دون الآثام ، لم يكن هو صانع الشر الذى يبغضه . ومن نفس هذه الشرور فإنه يصنع كل ما هو حسنٌ ، سواء بشفتائهم برحمته أو بتنظيمهم بعدل . وإذا نرى أنه لا يبغض شيئاً مما صنع ، فمن يقدر أن يصف مقدار محبته لأعضاء ابنه الوحيد !!] .

فى أى الأمور نلمس محبة الله للإنسان :

لا يمكن أن نحصى المظاهر التى تنجل فيها محبة الله للإنسان ... فمحبة الله للإنسان كائنة قبل أن يخلقه . ألم يقل السيد المسيح للأبرار : « رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم » (مت ٢٥ : ٣٤) ، أى قبل خلقه الإنسان ... ومحبة الله تحوط الإنسان وتعتنى به من أول السنة إلى آخرها (تث ١١ : ١٢) ، بل لقد أعلن أن من يمس أولاده يمس حذقة عينه (زكريا ٢ : ٨) ... وإلى أى مدى يحب الله الإنسان ؟ لقد أحبه إلى المنتهى كما قال السيد المسيح : « أما يسوع ... إذ كان قد أحب خاصته الذين فى العالم أحبهم إلى المنتهى » (يو ١٣ : ١) . ونحاول هنا أن نعدّد بعض الأمور التى نستطيع أن نلمس من خلالها محبة الله للإنسان ...

١ - فى خلقه الإنسان :

قبل أن يخلق الله الإنسان ، سبق وهياً له كل شيء . خلق النور ، النيرين العظيمين الشمس والقمر وكل الأجرام السماوية ، الأرض وكل ما فيها ، البحر وكل حيواناته . الكل خلقه لأجل الإنسان ... ولم يخلق هذه الكائنات لأجل الإنسان ، بل لقد جعله سيداً للخليقة كلها ... وحينما خلقه لم يخلقه كسائر المخلوقات ، بل

خلقه على صورته ومثاله ، كائن عاقل حرّ طاهر...

الله حب ... وفي حبه خلق عنصر الحياة في الإنسان ، نسمة صادرة منه ... إذ صورة الثالوث القدوس وعلى مثاله ... الإنسان مخلوق خالد ... ولأن الإنسان مخلوق على صورة الله ومثاله فإن نفسه تنجذب إلى الله وتوق إليه ولا تعبد سواه إلا فيه . لقد خلق الله الإنسان لا لحاجته إليه أو إلى عبادته . فإن الله لا يحتاج حتى إلى الملائكة وكل الخلائق السمائية . إنما خلق الإنسان على صورته ومثاله وجعل لذى معه « لذاتى مع بنى آدم » (أم ٨ : ٣١) .

وما أصدق القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات فيما قاله في قداسه :

« قدوس قدوس أنت أيها الرب و قدوس في كل شيء . وبالأكثر مختار هو نور جوهريتك . وغير موصوفة هي قوة حكمتك . وليس شيء من النطق يستطيع أن يحذلجة عجبك للبشر . خلقتنى إنساناً كمحب للبشر . ولم تكن أنت محتاجاً إلى عبوديتى ، بل أنا المحتاج إلى ربوبيتك . من أجل تعطفاتك الجزيلة كونتنى إذ لم أكن ، أقمت السماء لى سقفاً ، وثبتت لى الأرض لأمشى عليها . من أجل الجمعت البحر . من أجل أظهرت طبيعة الحيوان . أخضعت كل شيء تحت قدمى . لم تدعنى معزواً شيئاً من أعمال كرامتك . أنت الذى جبلتنى ، ووضعت يدك علىّ ، وكتبت فى صورة سلطانك . ووضعت فى موهبة النطق . وفتحت لى الفردوس لأتعم . أعطيتنى علم معرفتك . أظهرت لى شجرة الحياة . عرقتنى شوكة الموت » ...

وفى هذا المعنى يقول القديس أغسطينوس : [إلهى ... لقد أخضعت كل شيء تحت قدمى الإنسان ، حتى يمكنه أن يتكرس بكليته لك . لهذا لم تُقِم عليه سيداً سواك ، بل جعلته هو سيداً على خليقتك . خلقت كل شيء من أجل جسده . وأوجدت جسده من أجل روحه ، وروحه من أجلك أنت ... كم أنت طيب يا إلهى . كم أنت رؤوف . تعرف جسدى معرفة جيدة لأنك أنت جابله] .

٢ - فى التجسد والفداء :

ليس من المبالغة القول إن قمة محبة الله للإنسان تظهر فى تجسد ابنه وفدائه

للشعر... لقد سقط الإنسان وظلّرد من الفردوس، لكن الله في محبته دبر خلاصه لكي يردّه إلى رتبته الأولى ثانية... ولم يكن هذا ممكناً إلا بطريقة واحدة، هي أن يتجسد ابن الله الأبنوم الثاني في الثالث القدوس، أى يأخذ جسداً بشرياً كاملاً، يُوفى - نيابة عن الإنسان - عقوبة الموت التي استحقها بالمعصية. وهذا ما تمّ بالصليب.

وبعبارة أخرى نقول إن الله - في سبيل تحقيق هذا الهدف - كان لا بد وأن يلتقى بالإنسان. ليس التقاء خارجياً، بل شاركه في اللحم والدم، وشاركه آلامه وأتاعبه، وكفكف دموعه... وهكذا أصبح هذا الالتقاء - بهذا المفهوم - تجسداً لاسم «عمانوئيل» الذي تفسيره «الله معنا».

وعلى ذلك فإن التجسد كان أهم اعلانات الله عن محبته للإنسان. ذلك ان الله ارتضى أن يتحد هو نفسه بالعنصر الإنساني بكل ما فيه من جسد ونفس ناطقة... والدور الذي قام به الله نحو الإنسان بالتجسد لم يكن كدور موسى وباقي أنبياء العهد القديم. فلقد جاء بعلاقة جديدة لا يمكن للشرآن يهدّها، ولا الخطية أن تقوى عليها «لأن الخطية ليست مثل النعمة» (رو ٥ : ١٥).

لقد شرف الله الإنسان حينما خلقه «على صورته ومثاله»، لكنه زاده شرفاً حينما صار الله نفسه - ليس على صورة الإنسان ومثاله - بل إنساناً حقيقياً!! يقول القديس جيروم مناجياً الله: [أنا مديون لك يا سيدى لأجل الاهانات التي بها افتديتني أكثر مما أنا مديون لقدرتك التي بها خلقتني. لأنك خلقتني بكلمة، لكن خلاصك في استوجب اهانات وأوجاع]... نفس المعنى يورده القديس أغسطينوس فيقول: [إن خلقة العالم لم تكلف الله شيئاً، فقد كان يقول للشئ كن فيكون. أما خلاص العالم فكلفه أن ينزل من السماء ويحمل الهزء والعار، وأخيراً يموت على الصليب لأجلنا]. يقول القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات في قداسه: «حوّلت لي العقوبة خلاصاً... أنت الذي خدمت لي الخلاص لما خالفت ناموسك... وضعت ذاتك وأخذت شكل العبد، وباركت طبيعتي فيك. أكملت ناموسك عني. أريتني القيام من سقطتي». نعم إن التجسد والفداء هما ذروة محبة الله للبشر «لكن الله بيّن محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو ٥ : ٨). هذا عين ما يؤكده المسيح «ليس حب أعظم من هذا أن يضع

أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو ١٥ : ١٣) ..

وثمة بركات أخرى ثمينة صارت للإنسان من قبل تجسد ابن الله وفدائه .
لعل أئمن هذه البركات هي عطية الروح القدس - روح الله المعزى - الذى وعد به
السيد المسيح المؤمنين انه يكثر معهم إلى الأبد (يو ١٤ : ١٦ ، ١٦ : ١٣) ، ويعلمهم
كل شيء ويدكرهم بكل أقوال المخلص وتعاليمه ويرشدهم إلى كل الحق (يو ١٤ :
٢٦) ... هذا الروح القدس هو الذى يجدد الخليقة ، فيصبح من يؤمن بالمسيح وينال
لمعمودية المقدسة ، خليفة جديدة (٢ كو ٥ : ١٧) . إنها معجزة المسيحية الكبرى ...

هذا فضلاً عن أن الروح القدس - روح الله - ينقل للمؤمن بالمسيح بركات
الخلاص الذى تفجر بموت المسيح على الصليب عن طريق أسرار الكنيسة
السبعة المقدسة . لأن الروح القدس يأخذ بما للمسيح ويعطيهم (يو ١٦ : ١٥) ...
وعلى سبيل المثال فإن الروح القدس هو الذى يقّس مياه المعمودية لتلد الإنسان ولادة
جديدة فيصبح ابناً لله . وهو الذى يقّس الخبز والخمر في سر الافخارستيا ليصبحا جسد
الرب ودمه الأقدسين . وهو الذى يوحد الرجل والمرأة في سر الزيجة المقدسة ليجعل
منهما جسداً واحداً ...

وثمة بركة عظيمة من بركات التجسد والفداء ... لقد صار المؤمن بالمسيح
هيكلاً للروح القدس ومسكناً لله ... « إن أحببني أحد يحفظ كلامي ويحب أبي ، وإليه
نأتى وعنده نجعل مقامنا » (يو ١٤ : ٢٣) ... « أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح
الله يسكن فيكم » (١ كو ٣ : ١٦) ... لقد صار الإنسان ابناً لله « أنظروا أية محبة
أعطانا الآب حتى تدعى أولاد الله » (١ يو ٣ : ١) ، كما صار قديساً في المسيح
« كما اختارنا (الآب) فيه (المسيح) قبل تأسيس العالم لتكون قديسين وملا لوم
قدامه في المحبة » (أف ١ : ٤) .

٣ - في عنايته بالإنسان :

إن أسفار العهد القديم حافلة بالقصص التى تسجل عناية الله بأولاده شعباً
وأفراداً . وهى مليئة بأقوال الأنبياء والكتبه الملهمين التى تعبر عن هذه العناية .

وعلى سبيل المثال نذكر تخليص نوح من الطوفان، ولوط من سدوم، وحفظ يوسف في مصر، والكيفية التي أخرج بها بنى إسرائيل من مصر، وقيادته لشعبه بعمود الغمام، وهلاك فرعون وجيشه، وتحويل مياه مازة من المراتة إلى العذوبة... وعنايته بشعبه في البرية مدة أربعين عاماً أطعمهم المن من السماء، وتغلبهم على شعوب أقوى منهم وأكثر عدداً كما حدث في الحرب مع عماليق. دخولهم أرض كنعان وسقوط أسوار أرمحا بدون حرب. عناية الرب بآيليا وإعالتة هو والأرملة وابنها، حفظه دانيال من الأسود والثلاثة فتية من نار الأتون...

أما عن أقوال الرب التي سجلها الوحي الإلهي في أسفار العهد القديم فما أكثرها:

يقول أيوب البار: «منحتنى حياة ورحمة، وحفظت عنايتك روحى» (أى ١٠: ١٢).. كما يقول: «لا يحول عينيه عن البار» (أى ٣٦: ٧)... ويتكلم موسى النبى عن حفظ الله لشعبه: «أحاط به ولا حفظه وصانه كحديقة عينه» (تث ٣٢: ١٠)... ويقول داود النبى: «لأن الرب يحب الحق ولا يتخلى عن اتقيائه» (مز ٣٧: ٢٨)... «لأنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فى كل طرقك. على الأيدى يحملونك لئلا تضيم بحجر رجلك» (مز ٩١: ١١، ١٢). ويقول المزمحل: «ارفع عينى إلى الجبال من حيث يأتى عونى. معونتى من عند الرب... لا يدع رجلك تزل. لا ينس حافلك. انه لا يلص ولا ينام» (مز ١٢١: ١-٣)...

ويقول السيد الرب لشعبه إسرائيل فيما يختص باعطاء سبت للأرض: «وتعطى الأرض ثمرها فتأكلون للشبع وتسكنون عليها آمنين. وإذا قلتم ماذا نأكل فى السنة السابعة إن لم نزرع ولم نجتمع غلتنا. فإننى أمر ببركتى لكم فى السنة السادسة فتعمل غلة لثلاث سنين» (لا ٢٥: ٢٠، ٢١)... ويكمل كلامه السابق فيقول: «إذا سلكتكم فى فرائضى وحفظتم وصاياى وعملتكم بها، أعطى مطركم فى حينه وتعطى الأرض غنتها، وتعطى أشجار الحقل أثمارها... تأكلون خبزكم للشبع، وتسكنون فى أرضكم آمنين. وأجعل سلاماً فى الأرض فتنامون وليس من يزعجكم، وأبىد الوحوش الرديئة من الأرض، ولا يعبر سيف فى أرضكم» (لا ٢٦: ٣-٦).

ويقول المرتل داود عن عناية الله بالنفس البشرية : « الذى يشفى كل أمراضك، الذى يقدى من الحفرة حياتك، الذى يكللك بالرحمة والرافة . الذى يشيع بالخبر عمرك فيتجدد مثل النسر شبابك » (مز ١٠٣ : ٣ - ٥) ... ويقول : « ملاك الرب حائلاً حول خائفيه وينجيهم » (مز ٣٤ : ٧) ... ويذكر شعبه بعنايته بهم مدة غربتهم فى البرية أربعين سنة بقوله : « لكى يعلمك أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل ما يخرج من فم الرب يحيا الإنسان . ثيابك لم تبلى عليك، ورجلك لم تتورم هذه الأربعين سنة » (تث ٨ : ٣ ، ٤) ... ويقول إشعياء النبى : « فى ذلك اليوم غثوا للكرمة المشتهاة أنا الرب حارسها ، اسقيها كل لحظة لتلا يوقع بها . احرسها ليلاً ونهاراً » (إش ٢٧ : ٢ ، ٣) .

وإذا أتينا إلى العهد الجديد نجد السيد المسيح يوضح عناية الله بالإنسان بأجلى صورة ... يقول : « انظروا إلى طيور السماء . أنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوى يقوتها . أليس أنتم بالحرى أفضل منها ... تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو، لا تتعب ولا تغزل، ولكن أقول لكم انه ولا سليمان فى كل مجده كان يلبس كواحدة منها . فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويُطرح فى التنور يلبسه الله هكذا . أفليس بالحرى جداً يُلبسكم أنتم بأقليل الايمان » (مت ٦ : ٢٦ - ٣٠) ... « أليس عصفوران يباعان بفلس، وواحد منها لا يسقط على الأرض بدون أبيكم . وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة . فلا تخافوا أنتم أفضل من عصافير كثير » (مت ١٠ : ٢٩ - ٣١) . ويسأل السيد المسيح تلاميذه الذين أرسلهم فى إرساليات تدريبية « حين ارسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية هل أعوزكم شيء . فقالوا لا » (لو ٢٢ : ٣٥) .

وكتاب العهد الجديد وتاريخ الكنيسة وسير القديسين وأولاد الله على اختلاف مراتبهم وأوضاع حياتهم مليئة بقصص توضح عناية الله بكافة البشر فى كل زمان ومكان . وليست عناية الله وقفاً على الأبرار والأتقياء بل هى تشمل جميع البشر، فإن هذا يليق بمن قيل عنه إنه « يشرق شمس على الأشرار والصالحين وعطر على الأبرار والظالمين » (مت ٥ : ٤٥) ...

٤ - في محبته للخطاة :

قدوس هو الله الذى خلق الإنسان الأول على صورته ومثاله ، ولأنه قدوس فإنه يطالب الإنسان بحياة القداسة ... قال الله لموسى : « كَلِّمْ كُلَّ جَمَاعَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ تَكُونُونَ قَدِيسِينَ لِأَنِّي قَدُوسٌ » (لا ١٩ : ٢) . ونفس المعنى يؤكد عليه بطرس الرسول : « نَظِيرُ الْقُدُوسِ الَّذِي دَعَاكُمْ كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضاً قَدِيسِينَ فِي كُلِّ سِيرَةٍ » (١ بط ١ : ١٥) . لذلك فَإِنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ الشَّرَّ وَالْخَطِيئَةَ . قال يسوع لشعب الذى انحرف عن عبادة الله : « لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَعْبُدُوا الرَّبَّ لِأَنَّهُ إِلَهٌ قَدُوسٌ وَإِلَهُ غَيْرُهُ . لَا يَغْفِرُ ذُنُوبَكُمْ وَخَطَايَاكُمْ » (يش ٢٤ : ١٩) ... ويقول الوحي الإلهي في سفر أيوب : « مَنْ هُوَ الْإِنْسَانُ حَتَّى يَزْكُو أَوْ مَوْلُودُ الْمَرْأَةِ حَتَّى يَسْتَرِرَّ . هَذَا قَدِيسُهُ لَا يَأْتُمْنُهُمْ ، وَالسَّمَوَاتُ غَيْرُ طَاهِرَةٍ بَعْنِيهِ . فَيَا حُرَى مَكْرُوهٍ وَفَاسِدِ الْإِنْسَانِ الشَّارِبِ الْإِثْمَ كَالْمَاءِ » (أى ١٥ : ١٥ ، ١٦) ... وَكَنتِجَةُ لِلْخَطِيئَةِ يَقُولُ الرَّبُّ لَشَعْبِهِ قَدِيماً : « اسْلُطْ عَلَيْكُمْ رَعْباً وَسَلْطاً وَحْيِي تَفْنِي الْعَيْنَيْنِ وَتَتَلَفُ النَّفْسُ . وَتَزْرَعُونَ بَاطِلاً تَزْرَعُونَ فَيَأْكُلُهُ أَعْدَاؤُكُمْ ، وَأَجْمَلُ وَجْهِي ضَدَّكُمْ فَتَنْهَزُمُونَ أَمَامَ أَعْدَائِكُمْ ، وَتَسْلُطُ عَلَيْكُمْ مَبْغُضُوكُمْ وَتَهْرَبُونَ وَلَيْسَ مَنْ يَطْرُدُكُمْ » (لا ٢٦ : ١٦ ، ١٧) .

ومن شدة كراهية الله للشَّرِّ وَالْخَطِيئَةِ قال لموسى : « مَنْ أَخْطَأَ إِلَى أَمْعُوهِ مِنْ كِتَابِي » (خر ٣٢ : ٣٣) . وأعلن أنه يفتقد إثم الآباء في الأبناء ، وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث والرابع (خر ٣٤ : ٧) ... وَلِذَا قَالَ دَاوُدُ لِلَّهِ : « ابْغَضْتَ كُلَّ فَاعِلِي الْإِثْمِ » (مز ٥ : ٥) . ويقول المزمور : « يَا مَعْجَى الرَّبِّ ابْغَضُوا الشَّرَّ » (مز ٩٧ : ١٠) ... وَكَمِثَالٍ لِكِرَاهِيَةِ اللَّهِ لِلشَّرِّ أَهْلَاكَه الْعَالَمُ الْقَدِيمُ بِالطُّوفَانِ ، وَاحْرَاقَ مَدِينَتِي سَدُومَ وَعَمُورَةَ بِنَارٍ وَكَبَرِيَّتَ مِنَ السَّمَاءِ . ويقول في ذلك القديس بطرس : « لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَمْ يُشْفِقْ عَلَى مَلَائِكَةٍ قَدْ أَخْطَأُوا ، بَلْ فِي سِلَاسِلِ الظُّلَامِ طَرَحَهُمْ فِي حَهْنِهِ وَسَمَّعَهُمْ مَحْرُوسِينَ لِلْقَضَاءِ . وَلَمْ يُشْفِقْ عَلَى الْعَالَمِ الْقَدِيمِ ، بَلْ إِنَّمَا حَفِظَ نُوحاً ثَامِناً كَارِزاً لِلْبَرِّ ، إِذْ جَلَبَ طُوفَاناً عَلَى عَالَمِ الْفُجَّارِ . وَإِذَا رُمِدَ مَدِينَتِي سَدُومَ وَعَمُورَةَ حَكَمَ عَلَيْهِمَا بِالنَّقْلَابِ ، وَاضْعاً عِبْرَةً لِلْعَتِيدِينَ أَنْ يَفْجُرُوا . وَانْقَذَ لُوطاً الْبَارِ مَغْلُوباً مِنْ سِيرَةٍ لُرْدِيَاءٍ فِي الدَّعَارَةِ ... يَعْلَمُ الرَّبُّ أَنْ يَنْقِذَ الْأَتْقِيَاءَ مِنَ التَّجْرِبَةِ ، وَيَحْفَظُ زَكَاةَ يَوْمِ الْيَمِينِ مُعَاقِبِينَ » (٢ بط ٢ : ٤ - ٩) . لِنَتَأَمَّلَ فِي كَلِمَاتِ بَطْرُسَ

الرسول: «واضعاً عبرة للعديد أن يفجروا» !!

وعلى الرغم من شدة كراهية الله للبشر والخطية ، فنحن نرى عجباً في محبة الله للخطاة في شخص المسيح . بل نقول إن عمق محبة الله للبشر، تظهر في محبته للخطاة هذا ما يعلنه رب المجد يسوع «لم آت لادعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة» (مت ٩ : ١٣) ... «يكون فرح في السماء بغاطئ واحد يتوب، أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة» (لو ١٥ : ٧) ... «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى» (مت ٩ : ١٢) .

والآن نستعرض صوراً من معاملات السيد المسيح مع بعض الخطاة .

أ - المسيح مع المرأة السامرية (يو ٤) :

كانت المرأة السامرية واحدة من النساء الخاطئات اللاتي التقى بالمسيح بهنّ ، وكان لقاءه سبباً لخلاصها . أما عن كونها خاطئة فيتضح ذلك من قول المسيح لها : « كان لك خمسة أزواج والذي لك الآن ليس هو زوجك ، هذا قلتي بالصدق » (يو ٤ : ١٨) . إن لقاء المسيح مع السامرية لقاء يكشف عن أعماق قلب الرب يسوع من جهة محبته للخطاة . يقال إن السيد المسيح سار ست ساعات مشياً على قدميه ليخلص هذه النفس الخاطئة ..

« فإذ كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر . وكان نحو الساعة السادسة » لقد تعب هو ليرحمنا نحن . إن ما يتعبه حقاً هو خطايانا ثم إنه ليس عبثاً ذكرت الساعة السادسة ... إنها الساعة التي عُلق فيها المخلص على الصليب من أجل خلاصنا وخلاص العالم كله ... « يا مَنْ في اليوم السادس وفي الساعة السادسة سُمِّرت على الصليب من أجل الخطيئة التي تجرّأ عليها أبونا آدم في الفردوس » .

ثم لنتظر كيف بدأ الحديث ودار مع هذه المرأة الخاطئة ... بأدركها الرب يسوع بالقول : « أعطني لأشرب » ... إنه يتكلم كمن هو محتاج ليشرب ... لكنه في حقيقة الأمر محتاج ومتعطش إلى دموع توبتها ... لكن المرأة في حياتها حسب الجسد

انكرت على المسيح هذا الطلب إحساساً منها انه يطلب ماءً عادياً « كيف تطلب منى لتشرب ، وأنت يهودى وأنا امرأة سامرية » !!

بعدها بدأ المسيح يتدرج معها فى الحديث رافعاً مشاعر قلبها وروحها ... « لو كنت تعلمين عطية الله ومن هو الذى يقول لك اعطنى لأشرب لطبعت أنت منه فأعطاك ماءً حياً » ... ولما ابدت المرأة دهشتها لهذا الماء الحى (الماء الجارى) ، أوضح لها ان « كل من يشرب من هذا الماء يمشى أيضاً . ولكن من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فلن يمشى إلى الأبد . بل الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية » . وحينما طلبت تلك المرأة من السيد المسيح أن يعطيها هذا الماء ، قال لها : « إذهبي وادعى زوجك وتعالى إلى ههنا » ... وحينما انكرت ان لها زوجاً ، كشف لها خبيثة نفسها انه كان لها خمسة أزواج والذى معها الآن ليس هو زوجها ، وقال لها : « هذا قلت بالصدق » . وكون المسيح يطلب إليها أن تحضر زوجها ، معناه انه يطلب منها أن تعترف بخطيئتها ... ثم شرع المسيح بعد ذلك يكلمها عن أن الله روح وعن السجود لله بالروح والحق ... وانتهى الأمر بأن كشف السيد المسيح لها عن حقيقة شخصه انه هو المسيا الذى ينتظرونه ... تركت المرأة جرتها ونسيت كل شيء بعد أن تفتّح قلبها ، واسرعت إلى أهل مدينتها وقالت لهم ، وكأنها مبشرة المسيحية الأولى : « هلموا انظروا إنساناً قال لى كل ما فعلت . العل هذا هو المسيح » ... وآمن به فى تلك المدينة كثيرون من السامريين بسبب كلام هذه المرأة ... والعجيب أن المسيح دُعى لأول مرة « مخلص العالم » من أفواه هؤلاء السامريين الذين كانت بينهم وبين اليهود عداوة تقليدية شديدة !!

لقد حوّل السيد المسيح هذه المرأة الخاطئة بحبه وحنانه إلى مبشرة نشيطة ، نسيت جرتها التى لأجلها ذهبت إلى البئر ، وذهبت تذيع بين الناس أن المسيح قال لها كل ما فعلت ... إنه المسيا التى ظلت الأجيال تنتظره ... لم يُعَظِّفها بكلمة قاسية على سلوكها المنحرف رغم بغضه للخطية ، لكنه بحبه وحنانه جذبها لمعرفة الإله الحى الحقيقى ...

ب - المسيح مع المرأة التى أمسكت فى ذات فعل الزنا (يو ٨) :

وهذا مثل صارخ ... امرأة أمسكت متلبسة بخطيئة الزنا ... احضرها الكتبة والفريسيون إلى السيد المسيح وقالوا له : « يا معلم هذه المرأة أمسكت وهى تزنى فى ذات الفعل . وموسى فى التاموس أوصانا أن مثل هذه تترجم . فماذا تقول أنت » ... كان الموقف صعباً وحرماً بالنسبة لتلك المرأة المسكينة ، التى ايماناً فى التشهير بها « أقاموها فى الوسط » على مشهد من الجميع ...

ماذا فعل المسيح فى هذا الموقف ؟ لم يقل كلمة واحدة لمن أحضروا المرأة لكنه فى صمت « انحنى إلى أسفل وكان يكتب بأصبعه على الأرض » ... لكنهم فى رياتهم وتظاهروا بالتمسك بالتاموس ، استمروا فى سؤاله عن حكمه على المرأة ... أما هو فقد « انتصب وقال لهم مَن كان منكم بلا خطية فليبرمها أولاً بحجر » . ثم عاد وانحنى إلى أسفل وكان يكتب على الأرض ... أما النتيجة من كلامه وكتابته على الأرض ، فإن هؤلاء المشتكين على المرأة بدأوا ينسحبون الواحد وراء الآخر ، وبقي يسوع وحده والمرأة واقفة فى الوسط ...

قال المسيح لمن أحضروا المرأة : « مَن كان منكم بلا خطية فليبرمها أولاً بحجر » ... لكن ماذا كان يكتب على الأرض ... لقد اتفق جميع مفسرى الكتاب على أن المسيح كان يكتب خطايا كل واحد ممن أحضروا المرأة ... تلك الخطايا التى ما كان يعرفها أحد إلا الله ... خجلوا من أنفسهم ، واسرعوا بالانسحاب خشية افتضاح أمرهم ...

ثم ماذا كان حكم المسيح على هذه المرأة التى أمسكت فى ذات فعل الزنا ؟ لم يوبخها ولو على انفراد على زناها ، بل كان رقيقاً شفوفاً ، وهو الذى لا يشاء أن يهلك أحد بل أن يقبل الكل إلى التوبة ... قال لها : « يا امرأة أين هم أولئك المشتكون عليك . أما دانك أحد . فقالت لا أحد يا سيد » . فقال لها الرب يسوع : « ولا أنا آذيك . إذهبى ولا تخطئى أيضاً » ... المسيح الذى سيدن العالم فى النهاية ، والذى قال إن الدينونة كلها قد دُفعت للابن ، لم يَدُنْ المرأة الزانية ، لكنه بلا شك جذبها إلى طريق البر ... لا شك إن كلمات المسيح المملوءة حباً وحنواً على هذه المرأة الخاطئة كانت أشد وقعاً عليها من الحجارة التى أوجبت شريعة

موسى أن ترجم بها . وماذا كان يفيد لو قُتلت المرأة وماتت بخطيتها ..؟!

وفى الوقت الذى لم يَدُنْ فيه المسيح هذه الخاطئة ، كال الولايات للكتابة والفريسيين بسبب ربائهم (مت ٢٣) ، لأنهم عاشوا حياة التظاهر لكى يمدحهم الناس ويمجدوهم ... كان هذا هو جزاؤهم لأنهم أحوا مجد الناس أكثر من مجد الله ... لقد كانت هذه المرأة الخاطئة بتوبتها أفضل منهم ببرهم الذاتى ، على نحو ما كان العشار الخاطيء أفضل من الفريسي وهما يصليان فى الهيكل .

جد - لقاء المسيح مع زكا (لو ١٩) :

كان زكا رئيساً للعشارين ... وكانت كلمة عشار فى مصطلح اليهود فى زمن المسيح مرادفة لكلمة خاطيء ... وكان الكتبة والفريسيون دائى التذمر من محبة المسيح للخطاة وبجاستهم . وكان الاتهام التقليدى الذى يوجهونه لتلاميذه « لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة » (مت ٩ : ١١) ... وكان جواب المسيح على هذا التذمر « لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى . فاذهبوا وتعلموا ما هو إنى أريد رحمة لا ذبيحة . لأنى لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة » (مت ٩ : ١٢ ، ١٣) .

وتتلخص قصة زكا فى انه سمع أن السيد المسيح سيجتاز فى مدينة أريحا . وكانت تعمل فى قلب زكا رغبة ملحة فى أن يرى يسوع من هو ... كان الزحام شديداً ، وبسبب قصر قامته زكا أدرك أن فرصة رؤية المسيح سوف تفوته ، لذا ففكر فى كيف لا يدع هذه الفرصة تفوته . فركض وصعد إلى جبهة لكى يتمكن من رؤيته ...

وفى ما كان الرب يسوع مجتازاً وقف أمام الجميزة التى يحتبىء زكا بين أغصانها ... ترك الجموع ونظر إلى زكا بين أغصان الجميزة وقال له : « يا زكا اسرع وانزل لأنه ينبغى أن أمكث اليوم فى بيتك » ... كم كانت دهشة زكا الرجل الخاطيء ؟! ... لقد تمتنى أن يرى الرب يسوع ، وهوذا يكلمه ويدعوه أن يسرع وينزل ... لماذا ؟ لا لأنه سيزوره مجرد زيارة عابرة ، بل لأنه سيمكث ذلك اليوم فى بيته ... عجباً ، ما هذا ... إنه أمر غير مألوف فى المجتمع اليهودى آنئذ ... لقد كان الأبرار - فى نظر أنفسهم - لا يتعاملون مع من يعتبرونهم خطاة وأشراراً ... كيف إذن سيمكث المسيح

يوماً في بيت رجل خاطيء؟ وهذا ما حدث بالفعل ... فلما رأى الجمع أن المسيح قبل زكا فرحاً «تذمروا قائلين إنه دخل لبيت عند رجل خاطيء»!!

لكن لننظر ماذا فعلت محبة المسيح لزكا الخاطيء ... « وقف زكا وقال للرب ها أنا يارب أعطى نصف أموالى للمساكين ، وإن كنت قد وشيت بأحد أردّ أربعة أضعاف » . زكا الذى أمضى حياته فى الظلم والوشاية من أجل محبته للمال ، يصريح انه يعطى نصف أمواله للمساكين... ثم ماذا؟ يرد إلى مَنْ وشى به أربعة أضعاف... كانت شريعة موسى لا تطلب سوى الخمس زيادة على ما اختلس (عدد ٥ : ٦ ، ٧) ، لكنه سيرد لمن ظلمه ووشى به أربعة أضعاف... لقد فعل المسيح بالحب ما عجزت عنه الشريعة بالأمر والنهى والصرامة .

لا عجب إن رأينا المسيح يعلن « اليوم حصل خلاص لهذا البيت إذ هو أيضاً ابن إبراهيم . لأن ابن الإنسان قد جاء لكى يطلب ويخلص ما قد هلك »... هذه هى رسالة المسيح حتى الآن « يطلب ويخلص ما قد هلك بالخطية » .

د - مثل الابن الضال (لو ١٥) :

يُعتبر مثل الابن الضال قمة ما أعلنه المسيح عن محبة الله للخطاة ... وكان هذا المثل مع مثلين آخرين - هما مثل الخروف الضال ، ومثل الدرهم المفقود - رد المسيح على تذمر الكتبة والفريسيين من قوله للخطاة والمشارين ومجالستهم ومؤاكلتهم (لو ١٥ : ١ ، ٢) .

ومثل الابن الضال كما قدمه المسيح يتضمن شقين . الشق الأول يشرح مراحل الخطية التى سلكها ذلك الابن إلى الحد الذى « كن يشتهى أن يملاً بطنه من الخرنوب الذى كانت الخنازير تأكله ، فلم يُعطه أحد »... وكونه وصل إلى أنه أصبح يرمى الخنازير، هذا معناه أنه وصل فى الخطية إلى مدّها ، وصار خادماً لها... أما الشق الثانى فيشرح مراحل التوبة والرجوع إلى الله وهذا ما يهمنا ان نتحدث عنه .

فحينما ضاقت الحياة بذلك الابن « رجع إلى نفسه » وفكر جدياً فى العودة إلى

أبيه الذى يرمز إلى الآب السماوى... وبالفعل قام الابن وجاء إلى أبيه... وهنا لا نجد غرابة فى الأمر. إنما الغرابة فى أن ذلك الابن حالما رجع إلى أبيه وجده فى انتظاره «وإذ كان لم يزل بعيداً رآه أبوه فتحنن»... وتزداد دهشتنا حينما نرى الآب - الذى يرمز للآب السماوى - يتصرف تصرفاً كان يليق بالابن الشاب المخطئ وليس بالآب المسنّ المُخطئ فى حقه... ماذا فعل الآب «ركض ووقع على عنقه وقبله». كل ذلك حدث قبل أن يفتح الابن المخطئ فاه ويقدم كلمة اعتذار وندم!! وحينما قال الابن لأبيه: «أخطأت إلى السماء وقدامك ولست متسحقاً بعد أن أدعى لك ابناً»، لم يدعه الآب يكمل ما كان قد عقد العزم أن يقوله لأبيه: «اجعلنى كأحد أجراك»...!! ومعنى ذلك أنه بضلاله لم يفقد بنوته لأبيه...

ثم نرى فى هذا المثل الآب يفيض على الابن حباً وحنناً وحناً، حينما يقول الآب لعبيده: «اخرجوا الحلة الأولى والبسوه، واجعلوا خاتماً فى يده، وحذاء فى رجليه. وقدموا العجل المستن واذبحوه فتأكل ونفرح. لأن ابنى هذا كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوجد».

هل يمكن أن نرى حباً للمسيح يفوق هذا الحب؟! لكن المسيح بحبته للخطاة جذبهم وكسبهم إليه... كان البشر فى حالة عداوة مع الله حينما مات المسيح على الصليب لأجل خلاصهم... ولم يكونوا فى حالة عداوة فقط، بل فى حالة اصرار على الخطية والشر. هذا ما اعلنه اليهود أمام بيلاطس الوالى الرومانى الوثنى «اصليه اصله. دمه علينا وعلى أولادنا»... ومع ذلك أكمل المسيح مسيرة الصليب. ومن فوق الصليب طلب لهم المغفرة: «اغفر لهم يا أبتاه لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون»... لقد نسى المسيح إساءاتهم وكل ما كان يطلبه هو خلاص أنفسهم... هذا هو مسيحنا الذى مازال يبحث عن الحروف الواحد الضال، ومتى وجده يحمله على منكبيه فرحاً...

٥ - المجد الأبدى للإنسان :

إن محبة الله العجيبة - من خلال بركات الفداء وفعل الروح القدس - تقدّس

طبيعة الإنسان بعد تجديده، وتجعل منه إنساً لله بالتبني «لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للحواف بل أخذتم روح التبني، الذي به نصرخ يا أبا الآب» (رو ٨ : ١٥) ... وهكذا بدالة هذه البنية يهتف المؤمنون المقيدون في كل مكان قائلين : «أبانا الذي في السموات» ...

هذه المحبة العجيبة لا تجعل المؤمنين أولاداً لله فحسب ، بل تجعلهم مشابهين صورة ابن الله «ليكون هو بكرأ بين اخوة كثيرين» (رو ٨ : ٢٩) ... ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل إن الرسول يكشف لنا ما هو أبعد من ذلك «الذين دعاهم فهؤلاء برزهم أيضاً والذين برزهم فهؤلاء مجدّهم أيضاً» (رو ٨ : ٣٠).

نعم لقد مجدّ الله - في المسيح - الإنسان بمحبته ... هذا ما يعلنه السيد المسيح في مناجاته للآب : «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني» (يو ١٧ : ٢٢) ... أى شرف هذا ؟ بل إن السيد المسيح في هذه المناجاة يطلب إلى أبيه أن يكون هؤلاء المؤمنون معه «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا، لينظروا مجدّ الذي أعطيتني» (يو ١٧ : ٢٤) ... وهذا ما حدا بالرسول بولس إلى القول : «لأنه لاق بذلك الذي من أجله الكل وبه الكل، وهو آت بأبناء كثيرين إلى المجد، أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام» (عب ٢ : ١٠).

لقد أعطى الله الآب بمحبته أن يكون المؤمنون بأبنه يسوع المسيح ورثة للمجد الأبدى «إذاً لست بعد عبداً بل ابناً. وإن كنت ابناً فوارث لله بالمسيح» (غل ٤ : ٧) ... «وإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً. ورثة الله ووارثون مع المسيح» (رو ٨ : ١٧) ... هذا هو ما دعا نفس الرسول إلى أن يقول : «متى أظهر المسيح حياتنا، فحينئذ نظهر أنتم أيضاً معه في المجد» (كو ٣ : ٤)، وأيضاً يكتب إلى أهل رومية قائلاً : «لكي يبين غنى مجده على آنية رحمة قد سبق فأعدها للمجد» (رو ٩ : ٢٣) ... نفس المعنى يؤكدّه القديس بطرس الرسول «واله كل نعمة الذي دعانا إلى مجده الأبدى في المسيح يسوع بعدما تألّمتم يسيراً، هو يكملكم ويثبتكم ويقويكم ويمكنكم» (١ بط ٥ : ١٠).

محبة الله للإنسان والضيقات التى تأتى عليه :

الضيقات والتجارب التى تأتى على الإنسان ليست دليلاً على غضب الله على هذا الإنسان. لذا يقول يعقوب الرسول: «احسبوه كل فرح يا اخوتى حينما تقعون فى تجارب متنوعة. عالمين أن امتحان إيمانكم ينشأ صبراً. وأما الصبر فليكن له عمل تام. لكى تكونوا تامين وكاملين غير ناقصين فى شئ» (يع ١ : ٢ - ٤) ... إن التجارب والضيقات والآلام لا تتنافى مع محبة الله للإنسان. بل إن هناك حكمة وراء الآلام والضيقات ... وإن كان هذا الموضوع يحتاج إلى بحث خاص، لكن نكتفى بالإشارة إلى بعض النقاط ...

أ - الله يسمح بالآلام والضيقات للإنسان لكى يخلصه من البر الذاتى ... هذا الأمر واضح من سقطات بعض الأبرار كأيوب وداود وبطرس ... فأيوب تفاخر ببره الذاتى وأعماله مرات عديدة حتى انه قال: «كامل أنا» (أى ١٩ : ٢١)، فكف أصحاب أيوب الثلاثة عن مناقشته «لكونه باراً فى عيني نفسه» (أى ٣٢ : ١). وحى غضب اليهو بن برخثيل البوزى على أيوب «لأنه حسب نفسه أبر من الله» (أى ٣٢ : ٢) ... لكن أيوب بعد الآلام التى حلت به قال مخاطباً الله: «ها أنا حقير فماذا أجابيك. وضعت يدي على فمى ... بسمع الأذن سمعت عنك والآن رأتك عيني. لذلك أرفض وأندم فى التراب والرماد» (أى ٤٠ : ٤٤ : ٤٢ : ٥، ٦) ...

وداود الذى اشتهر بالعفة سقط فى خطية الزنا مع زوجة اوريا الحثي (١ مل ١٥ : ٥)، الأمر الذى لأجله تمرمر كثيراً وبكى بدموع سحينة ... «خطيئتي أمامي فى كل حين»، وقد قبل الله توبته، وصار هو رجل الصلاة ومزمع إسرائيل الحلو، ومن نسله حسب الجسد جاء المسيح ... وبطرس الذى عرف عنه الإقدام جبن وخاف بصورة بشعة أمام جارية وانكر المسيح بقسم وجذف عليه. هذه التجربة

جعلته تصغر نفسه أمامه ويندم ويكى بكاءً مرّاً...

نفس التجربة مرّ بها القديس بولس الرسول ، وكان معرضاً لها . ألم يقل عن نفسه : « لثلاً ارتفع بفرط الاعلانات اعطيت شوكة في الجسد . ملاك الشيطان ليلطمني لثلاً أرتفع » (٢ كو ١٢ : ٧) .

ب - والله يسمح بالآلام والضيقات للإنسان حتى يؤدبه ، وعمرّه من قيود الخطيئة والعادات الرديئة ... يقول المرتل : « طوبى للرجل الذى تؤدبه يارب ، وتعلّمه من شريعتك لترعّه من أيام الشر » (مز ٩٤ : ١٢ ، ١٣) ... ويقول اليفاز التيمانى أحد أصحاب أيوب ناصحاً : « طوبى لرجل يؤدبه الله . فلا ترفض تأديب القدير . لأنه هو يجرى ويعصب يسحق ويداء تشفيان » (أى ٥ : ١٧ ، ١٨) ... ويقول القديس بولس الرسول إلى العبرانيين : « لأن الذى يحبه الرب يؤدبه ويعلمد كل ابن يقبله . إن كنتم تحتملون التأديب يعاملكم الله كالبنين » . ثم يقارن بين تأديب الآباء الجسديين وتأديب الله ويقول عنه إنه : « لأجل المنفعة لكى نشترك في قداسه » (عب ١٢ : ٦ ، ٧ ، ١٠) . ويؤكد هذا المعنى ما قاله الرب يسوع لملاك كنيسة اللاودكيين : « انى كل من أحبه أوبخه وأؤدبه » (رؤ ٣ : ١٩) ...

إن الثلاثة فتية الذين ألقوا في أتون النار ببابل مثل بوضّح ما نقول . فكل ما فعلته النار بهؤلاء الفتية هى انها حلتهم من قيودهم ، وبعدها صاروا يمشون وسط نار . لأنهم كمن هم في نزهة (دا ٣ : ٢٤ ، ٢٥) ... لقد قدمت النار للفتية الثلاثة خدمة وهى انها حلتهم من قيودهم لكنها لم تحرق ثيابهم ولا شعرة من رؤوسهم ... هذا هو عين ما تفعله الآلام مع أولاد الله .

إن الذهب الذى يدخل النار له وقت معين ليتنقى من الشوائب . إذا زاد هذا الوقت تلف ، وإذا قلّ لا يتنقى الذهب ... هكذا الله لا يدعنا نجرب فوق ما نستطيع أو نحتمل (١ كو ١٠ : ١٣) ... ويقال إن علامة الذهب انه قد تنقى ان الصانع يرى صورته فيه بوضوح ... هكذا نحن نظل في التجربة إلى أن تظهر صورة الله فينا .

ج - والآلام تجعل الإنسان يختبر الله ومعاملاته وتقربه إليه ... ففي التجربة

حينما يحسّ الإنسان انه عاجز عن الخلاص منها، يلجأ إلى الله لكي ينقذه. بل إن الله يحرصنا على ذلك «ادعنى في يوم الضيق انقذك فتمجدنى» (مز ٥٠ : ١٥) ... ويقول داود النبي عن اختبار: «في يوم ضيقتى أدعوك لأنك تستجيب لى» (مز ٨٦ : ٧). والعجيب أنه حينما تُسدّ أمامنا كل الأبواب، نجد باباً واحداً يظل مفتوحاً أمامنا، هو باب الله...

د - إن الضيقات والشدائد لا تتعارض مع محبة الله لنا بل إنها مجد القديسين في السماء. يقول بولس الرسول: «لذلك أطلب أن لا تكلموا في شذائدى لأجلكم التى هى مجدكم» (أف ٣ : ١٣). ويقول: «خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً» (٢ كو ٤ : ١٧). ومعلوم إن الضيقات تحتاج إلى صبر... يقول بولس الرسول: «نفخر أيضاً في الضيقات، عالمين أن الضيق يُنشئ صبراً» (رو ٥ : ٣) ... وماذا يفعل الصبر، وماذا يثمر.. يقول السيد المسيح: «الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» (مت ١٠ : ٢٢) ... «بصبركم اقتنوا أنفسكم» (لو ٢١ : ١٩) لذا لا نعجب مما كتبه يوحنا في الرؤيا «أنا يوحنا أخوكم وشريككم في الضيقة وفي ملكوت يسوع المسيح وصبره» (رؤ ١ : ٩) ... هنا يتكلم يوحنا عن ملكوت المسيح وعن الضيقة والصبر!!

وماذا أيضاً عن الصبر الذى يصاحب الضيقات والآلام والتجارب ؟ بعدما يكتب يعقوب الرسول إلى المؤمنين ويقول: «احسبوه كل فرح يا اخوتى حينما تقعون في تجارب متنوعة» ... أمام السبب فهو: «عالمين أن امتحان إيمانكم ينشئ صبراً». وماذا عن الصبر، يقول يعقوب بعدها مباشرة: «وأما الصبر فليكن له عمل تام لكي تكونوا تامين وكاملين غير ناقصين في شيء» (يع ١ : ٢-٤).

يقول رب المجد يسوع لرسله وتلاميذه: «أنتم الذين ثبوتوا معى في تجاربى. وأنا أجعل لكم كما جعل لى أبى ملكوتاً، لتأكلوا وتشربوا على مائدتى فى ملكوتى، وتجلسوا على كراسى تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر» (لو ٢٢ : ٢٨-٣٠) ... وهذا ما حدا بالرسول بولس أن يقول: «إن كنا نصبر فنسملك أيضاً معه» (٢تى ٢ : ١٢).

محبة الإنسان لله

- محبة الإنسان لله صدى لمحبه له .
- قيمة المحبة في نظر الله ؟
- لماذا يجب أن يحب الإنسان الله .
- محبة الإنسان لله ومحبته للعالم .
- في أى شيء تظهر محبة الإنسان لله ؟
- فضائل ترتبط بمحبة الإنسان لله .
- عشاء عُزْس الحمل .

إن محبة الله للإنسان عبر الأجيال التي نجت في عايته بخليقته ، جذبت إليه نفوساً لا تحصى أعدادها ... كان لله في كل جيل نفوس أحته وعاشت في طاعته ، حتى في الأرملة التي كان العالم غارقاً خلالها في ظلام الوثنية ...

فمن نسل آدم كان هابيل البار . ثم كان أنحوخ لبار الذي ذكره الكتاب المقدس به « سار مع الله ولم يوحد لأن الله نقله » (تك ٥ : ٢٤ ؛ عب ١١ : ٥) ... ومن بين شعب الله ، القديم ظهر أرار أحبه وعاشوا في طاعته ، وأرصوه بإيمانهم ، كإبراهيم الذي - في محته وطاعته لله - قدم ابنه وحيداً إسحق ذبيحة بالنية ... ثم كان هناك إسحق ويعقوب أب الأساط و يوسف الصديق ، وموسى كليم الله الذي « أنى أن يُدعى من الله فرعون . مفصلاً بالآخرى أن يُذل مع شعب الله على أن يكون له تمتع وفي الخفية ، حاسماً عار المسيح عنى أعظم من خرائن مصر لأنه كان يطر إلى المحازة » (عب ١١ : ٢٤ - ٢٦) ... وبحسب تعبير الرسول « يعورنى الوقت ان اخبر عن جدعون وباراق وشمشون وفتاح وداود وصموئيل والأنبياء . الذين بالإيمان قهروا ممالك ، صعدوا برأ ، نالوا مواعيد ، سدّوا أفواه أسود . أطفأوا قوة النار ، نجوا من حدّ السيف . تقوّوا من ضعف صاروا أشداء في الحرب ، هزموا جيوش غرباء ... وآخرون عُذّبوا ولم يقبلوا النجاة لكي ينالوا قيامة أفضل ... هؤلاء لم يكن العالم مستحقاً لهم » (عب ١١ : ٣٢ - ٣٨) .

بعض هؤلاء الأبرار الذين ذكرناهم عاشوا قبل عصر الياقوس ، ومع ذلك عاشوا أوفياء لله بحسب له مطيعين لصوت ضمائرهم ... وحينما أعطى الله لبشر وصايا مكتوبة على يد موسى ، احتص نفسه بالأربع وصايا الأولى من الوصايا العشر . تلك لتي لخصها السيد المسيح بقوله : « تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك » (مت ٢٢ : ٣٧) . وقديماً قال الله : « يا سى اعطى قلبك » (أم ٢٣ : ٢٦) . ومعلوم ان القلب يكنى به عن المحبة والعاطفة . وفي المزمور الحادى والثلاثين ، يفرغ داود النبى والمرتل مشاعر حبه وامتنانه وشكره لإلهه ، ويدعو الجميع إلى محبة الله بقوله : « احبوا الرب يا جميع اتقيائه » (مر ٣١ : ٢٣) . وفي

مرمور آخر يقول : « تلذذ بالرب فيعطيك سؤل قلبك » (مز ٣٧ : ٤) ... وفي تربية حب يقول داود وكأنه يخاطب كل نفس بشرية : « اسمعى يا ابنتى وانظرى واميلى أذُنك وانسى شعبك وبيت أبيك، فيشتهى الملك حسنك لأنه هو سيدك فاسجدى له » (مز ٤٥ : ١٠ ، ١١) ... ويعود داود في مزمور آخر يقول : « كما من شحم ودسم تشبع نفسى، وبشفتى الانتهاج يسبحك فمى. إذا ذكرتك فى فراشى. فى الشهد الهج بك » (مز ٦٣ : ٥ ، ٦) ... ويقول المزمور : « امسكت بيدى اليمنى. برأبك تهدينى، وبعد إلى مجد تأخذنى. من لى فى السماء، ومعك لا أريد شيئاً فى الأرض » (مز ٧٣ : ٢٣ - ٢٥) ... « يا محبى الرب ابغضوا الشر. هو حافظ نفوس أتقيائه. من يد الأشرار ينقذهم. نور أشرق للصديقين وفرح لمستقيمى القلوب. افرحوا أيها الصديقون بالرب » (مز ٩٧ : ١٠ - ١٢). وسفر نشيد الأناشيد الذى يتحدث بكل وضوح عن محبة الله للنفس البشرية، ولكن فى صورة رمزية فى شخص الله كالعريس والنفس البشرية كالعروس.

كان هذا فى العهد القديم ... لكن ما أن أشرقت على العالم أنوار العهد الجديد، من قبل ظهور شمس البريسوع المسيح ربنا المحبة المتجسدة، وظهر الله محبته فى ملئها فى شخص ابنه. تلك المحبة التى سكبها بغنى بالروح القدس فى قلوب المؤمنين (رو ٥ : ٥)، حتى كان لتلك المحبة أثر عميق لا يوصف فى اهاب قلوبهم نحو ذاك الذى أحبهم وبذل ذاته عنهم (عل ٢ : ٢٠) ... نعم لقد كانت محبة المؤمنين صدى لمحبة الله لهم : « نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً » (١ يو ٤ : ١٩).

والمحبة المسيحية فريدة فى نوعيتها وعمقها. إنها تختلف عن المحبة التى تعارف عليها أهل العالم ... إن العالم يعرف المحبة كفضيلة، لكن شتان بينها وبين المحبة المسيحية. إن المحبة المسيحية كما نقصدها ليست وليدة عاطفة حسدية، بل هى من الله ذاته « محبة الله قد اسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا » (رو ٥ : ٥) ... هذا هو الروح القدس الذى اسكب يوم الخمسين على المؤمنين الأوائل فى لكنيسة الأولى فألهم حياتهم إيماناً وحاً وقداًسة. لقد حلّ عليهم فى شكل ألسنة كأنها من نار. والار من بعض الأوجه رمز للقوة والمحبة المشتعلة « لأن المحبة قوية

كالموت ... لهيبها لهيب نار لظى الرب . مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفىء المحبة والسيول لا تغمرها » (نش ٨ : ٦ ، ٧) ... كانت محبة الله قوية وما تزال ناراً تلهب قلوب المحبين ، وتغصنهم في دائرته : «لأن محبة المسيح تغصننا » (٢ كو ٥ : ١٤) ... وهذا مصداق لما قاله المسيح : « ليس كما يعطى العالم أعطيكم أنا » (يو ١٤ : ٢٧) .

لا أجد كلاماً أكثر واقعية وتعبيراً عن شدة المحبة المسيحية في قلب الإنسان المؤمن مما قاله الرسول بولس في رسالته إلى أهل رومية ... «من سيفصلنا عن محبة المسيح . أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عرى أم خطر أم سيف ... فإننى متيقن انه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ، ولا أمور حاضرة ولا مستقبل . ولا علو ولا عمق ، ولا خليفة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التى فى المسيح يسوع ربنا » (رو ٨ : ٣٥ - ٣٩) .

إن كان صاحب النشيد قال قديماً : « المحبة قوية كالموت » (نش ٨ : ٦) ؛ لكنها فى المسيحية - وفى شخص المسيح وبه وبعمل الروح القدس - صارت أقوى من الموت ... فالمحبة فوق الصليب قهرت الموت ... وحتى الآن ، أينما وُجد الصليب وجدت المحبة ، لأنه هو علامة الحب الذى غلب الموت وقهر الهاوية ، واستهان بالحزى والعار والألم ...

وبولس الرسول الذى امتلأ قلبه حباً نحو المسيح ، حينما توسل إليه الملامتون فى مدينة قيصرية ألا يصعد إلى اورشليم خوفاً على حياته ، بعد أن تنبأ النبى أغابوس بالشدائد التى تنتظره هناك ، قال لهم ... «ماذا تفعلون ، تبكون وتكسرون قلوبى . لأنى مستعد . ليس أن أربط فقط ، بل أن أموت أيضاً فى اورشليم لأجل اسم الرب يسوع » (أع ٢١ : ١٠ - ١٣) ... نعم كانت المحبة فى قلب بولس أقوى من الموت الذى ينتظره ، لأنه كان ميتاً عن العالم الذى وضع فى الشرير ، وحباً للمسيح الذى يملأ كيانه ويشغل وجدانه ...

وماذا أقول عن المعترفين والشهداء الذين أحبوا الله أكثر من أنفسهم (رؤ ١٢ : ١١) . إن شهادة الدم هى أعظم شهادة لأسمى حب « ليس لأحد حب أعظم من هذا . أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه » (يو ١٥ : ١٣) ... لم تُقرهم أعظم

الوعود، ولم يُرهَبهم وعيد الحكام وبطش المعتدين، وما ذلك إلا بسبب عظم محبتهم في المسيح الذي أحبوه وهو حي فيهم... لقد أظهروا احتمالاً عجيباً، واحتملوا آلاماً تفوق الوصف. وكان ذلك برهاناً على الحب الذي فيهم يفوق كل حب أرضي، بل يفضل العالم بكل ما فيه...

وماذا أقول عن الآباء النساك والرهبان - الذين من أجل عظم محبتهم في المسيح - امانوا ذواتهم وأعضاءهم وشهواتهم، بل ماتوا بارادتهم عن العالم وكل ما فيه... لنستمع إلى لحن عذب في المحبة من فم أحد النساك هو الأب يوحنا سابا المعروف باسم الشيخ الروحاني، يناجي به الله :

[مَنْ لا يتعجب من حكمة أسراركَ التي لا تُدرِك ، إذ وأنت وحيد في ذاتكَ تسكن في الوف وربوات من قديسيك وصانعي إرادتك بغير انقسام أو تفريق . كل حبيب لك يظن أنك أنت له وحده ، لأنه يشعر أنه هو ليس لأحد سواكَ . يظن أنك حائِك فيه وحده ، وأنه هو كفوّاً لسكنائك ، مع أنك أنت مائي السموات والأرض . فكل واحد يراك كامل فيه كما في مرآة... اعطنا أن ندخل بك إلى هيكل أنفسنا لكي ننظرك ونتنعم بك ، ونأكل من شجرة الحياة التي اثمرت داخلنا... إلهي أعطني محبتك ، وإن كنت أنا لا أستحق دالة المحبة التي بها أدعوك أبي... الباب مفتوح وليس مَنْ يدخل . مجدك واضح وليس مَنْ ينظر . نورك مشرق في عيوننا وليس مَنْ يتنعم . يمينك مبسوطة للعطاء وليس مَنْ يأخذ . تنادى بصوت عالٍ وليس مَنْ يسمع . تحذّر وتنبذ وليس مَنْ يرعوى... اعطي وقوداً لئلا قلبى التي أشعلتها بحبك... أيتها الرب الصالح اقطع من قلبى محبة هذا العالم ، وابذل حبي له بحبي لك... أهلّنى يارب أن يذوب قلبى من حبك وغخافتك كما تفتت الصخور ، وافتح قلبى كما انفتحت القبور ، وتقوم نفسى من رقادها كما قام الأموات في ساعة صلبوتك الرهيبة... طوبى لمن قطع حديث العالم من فمه ليتحدث معك... يهرب من الشمس ليتمتع بنورك . ويُغلق بابه لئلا يفتح أنت بابك ، وينقطع عن الناس ليجلس معك... اجعل يارب من قلبى الصغير سماءً لسكنائك لأرفع صوتى بالتهليل كشبه السمايين ، وأقدم لك كل حين على مذبح قلبى ذبائح الشكر والتسبيح ...] .

ولنستمع أيضاً إلى لحن عذب في المحبة من أسقف خادِم عاش حياة نسكية هو

القديس والفيلسوف أغسطينوس ...

إلهى عرفتك لأنك قد عرفتني ، وأحببتك لأنك أحببتني ... أنت مسرة
روحي اقترب مني لترتوي نفسي من ينبوع محبتك لأن فيك عزاء قلبي . شوقني لحبك
فأنت حياتي ... أيها العريس السماوي لا تبعدني عنك إذا ما اقتربت منك
وطوقتك بذراعي ... نقّ ياربى حواسي ، واجعلها جديرة بأن تتذوق وتحسّ حلاوة
اللذة لكل من يريد أن يرتشف من رحيق إحساناتك . اجعلني شغوفاً بك على الدوام .
اعطني قلباً ينبض بحبك . نفساً تشتهيكَ . روحاً تتعلّق بك . عقلاً يفكر فيك
دائماً ، ويتحدّ بحكمتك ويعرف كيف يحبك أيها الحب الزاخر بكل حكمة ...
أنت الذي يكمن فيك الحب والكمال ... كل من يعرفك يحبك . وعبك أكثر من
ذاته . يترك كل شيء ويتبعك . كما أن قطعان الوعل تندفع نحو جداول المياه
العذبة لتروي ظمأها ، هكذا نفسى متعطشة إليك يا إلهى لتطفئ لهب أشواقها . نعم
إن نفسى ظمأى إليك يا ينبوع الحياة الدائم . متى تُسكرني نشوة عذوبتك ؟!] .

• • •

وإذا كنا قد اسهنا بعض الشيء في الكلام عن محبة الإنسان لله بصفة عامة ،
وقدما عينات من مناجاة بعض رجال الله الذين أحبّوه ، وكان حبه طعامهم وشرابهم
وكساءهم ، نتقدم الآن إلى نقاط أخرى في موضوع محبة الإنسان لله ...

قيمة المحبة في نظر الله :

إذا كان الله هو المحبة ذاتها « الله محبة » ... وإذا كانت المحبة هي التي انزلت
ابن الله من السماء إلى عالمنا ، وإذا كانت هي الوصية الأولى والعظمى ، وإذا كانت
هي فضيلة المسيحية الأولى وأعظم من الإيمان الذي بدونه لا يمكن أن نرضى الله (عب
١١ : ٦) ، والرجاء الذي به نخلص (رو ٨ : ٢٤) ... وإذا كانت المحبة بهذا
الاعتقاد ، فلا شك أنها الفضيلة التي تُسير الله ، حتى أن من ثبت في المحبة
يثبت في الله ، والله يثبت فيه . وكل من لا يحب لم يعرف الله (١ يو ٤ : ٨ ،
١٦) ... لذا قال الله قديماً لشعبه : « فالآن يا إسرائيل ماذا يطلب منك الرب إلهك إلاّ

أن تتقى الرب إلهك لتسلك في كل طريقه وتحبه» (ث ١٠ : ١٢). وقال الحكيم في سفر النشيد: «إن أعطى الإنسان كل ثروة بيته بدل المحبة تحتقر احتقاراً» (نش ٨ : ٧) ... نعم هذه هي قيمة المحبة في نظر الله.

في حياة رب المجد يسوع نقرأ عن وليمة دعاه إليها فريسي يُدعى سمعان في بيته. وإذا بامرأة خاطئة (زانية) معروفة في كل مدينتها، جاءت إلى حيث الرب يسوع، ووقفت عند قدميه من ورائه، وأخذت تبكي بكاءً مُراً، حتى أنها غسلت قدمي المسيح بدموعها ومسحتهما بشعر رأسها. وكانت تقبل قدميه وتدهنهما بالطيب... ثم كان اعتراض ذلك الفريسي على المسيح من أجل قبوله تصرفات تلك المرأة الخاطئة، بأفكار أخذت تجول بخاطره دون أن يُفصح عنها!! فما كان من السيد المسيح إلا أن ضرب له مثلاً بدائن كان له مدينان. على أحدهما خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون. وإذا لم يكن لهما ما يوفيان دينهما ساعهما بما عليهما... ثم سأل السيد المسيح ذلك الفريسي: «أيهما يكون أكثر حباً لهذا الدائن». فأجاب: «أظن الذي ساعه بالأكثر». ثم بدأ المسيح يعقد مقارنة بين الأسلوب الذي تعامل به معه الفريسي من جهة واجبات الضيافة وما فعلته المرأة الخاطئة في اظهار توبتها... وختم كلامه بالقول: «من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيراً» (لو ٧ : ٣٦ - ٥٠)...

لقد أظهرت تلك المرأة الخاطئة حباً عجبياً للمخلص الذي آمنت أنه يقدر أن يحررها من قيود خطاياها ويمنحها السلام... لم تتكلم كلمة واحدة، لكنها عبرت بدموعها وبقبلاتها لقدمي المخلص وبالطيب الذي دهنتها به عن حبها الصجيب الذي قالت به الغفران والخلاص وسلامها الداخلي «مغفورة لك خطاياك... إيمانك قد خلصك. إذهي بسلام».

كلنا يعلم مأساة الرسول بطرس في إنكاره للمخلص بَقِيم ولَمَن وتُجديف... وبعد القيامة المقدسة عندما أظهر الرب ذاته لبعض تلاميذه ومعهم بطرس على بحر طرية، قال الرب له: «يا سمعان بن يونا أتجبنني؟». وكرر عليه هذا السؤال ثلاث مرات. وكان جواب بطرس في كل مرة: «نعم يارب أنت تعلم اني احبك» (يو ٢١ : ١٥ - ١٧) ... إنه موقف عجيب من الرب يسوع إنه كَمَن يستجدي محبة

بطرس!!... أيها الاخوة انه لا شيء يشبع قلب الله سوى المحبة .

يوجه السيد المسيح في سفر الرؤيا رسالة إلى ملاك وخدام كنيسة أفسس يقول له فيها : « أنا عارف أعمالك وتعبك وصبرك... وقد احتملت ولك صبرٌ، وتعبت من أجل اسمي ولم تكلّ . لكن عندى عليك انك تركت محبتك الأولى . فذكر من أين سقطت وثبّ واعمل الأعمال الأولى ، وإلاّ فإنّي آتيتك عن قريب وازحرج منارتك من مكانها إن لم تتب » (رؤ ٢ : ٢ - ٥) ... انظروا أيها الاخوة إلى قيمة المحبة في نظر الله ... لقد كان لخدام كنيسة أفسس أعمالاً طيبة ، وكان له تعب وصبر وجلّد في الخدمة من أجل الرب ، لكن كل ما كان يأخذه الرب عليه انه ترك محبته الأولى !!

وما هي المحبة الأولى يا ترى التي يشير إليها المخلص ؟ ... المحبة الأولى هي العلاقة الشخصية الوثيقة التي تربط الإنسان بإلهه ويكون أساسها وموضوعها وهدفها المحبة ... إن الأعمال لا قيمة لها بدون المحبة ... « كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يارب يارب أليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا قوات كثيرة . فحيثذا أصبح لهم إني لم أعرفكم قط . اذهبوا عني يا فاعل الإثم » (مت ٧ : ٢٢ ، ٢٣) ... إن الحب الحقيقي يبحث عن المحبوب . انه ينتظر محبة تبحث عنه ، وعنه وحده ، فلا شيء يمكن أن يشبع قلب المسيح سوى حبنا له ...

يقول القديس أغسطينوس : [ما هو السؤال الذي وجهه الرب لبطرس بعد قيامته سوى اتعبنى ؟ ولم يكن كافياً أن يوجّه هذا السؤال مرة واحدة بل مرتين وثلاث مرات ... ثلاث مرات الخوف أنكر ، وثلاث مرات الحب يعترف . هوذا بطرس يجب الرب . لكن ماذا يمكنه أن يعمل للرب ؟ ... ومهما قدمت من شيء فهذا قد اقتبلته من الله لثردّه] .

ويجب أن نعرف أن الله يريد أن يُحبّ لأجل ذاته وليس لأجل هباته ... يقول أحد الآباء : [مجدى يارب هو أن أرضيك ، وجهنّى هي أن أراك مهاناً منى ... إن كنت اشمئز من الجحيم ، فليس ذلك لما فيه من عذاب ، لكن لأن رواده هم أعداؤك . وإن كنت أحب المجد السماوى فليس لأجل لذتى ، بل لأن المتلذذين هناك

هم أجاؤك ... إن مجدك يارب هولمحبك ... يقول الرسول بولس : ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعدّه الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩) ... نعم إن أمجاد الله لمحبيه فقط] ...

إذا علمنا ذلك فكم كان قاسياً على قلب الرب يسوع خيانة يهوذا تلميذه ؟! ويزيد من قسوة الأمر أن يهوذا جعل من القبلّة التي تعبّر عن الحب ، علامة يسلمه بها لأعدائه !! ... وكل ما عمله الرب انه اكتفى بكلمة عتاب ليهوذا : « يا يهوذا اقبلّة تسلم ابن الإنسان » (لو ٢٢ : ٤٨) .

في سيرة القديس الأنبا بيمين - وهو أحد آباء البرية الكبار - ان بائع سمك كان يتردد عليه ، واعتاد أن يمضي كل يوم أحد معه في البرية ... وفي أحد الأيام طلب أنبا بيمين إليه أن يكلم الاخوة كلمة منفعة ... وبعد خجل وتقمع قبل الرجل من أجل الطاعة ... قال :

[كان لرجل ثلاثة أصدقاء . اراد هذا الرجل أن يذهب لمقابلة ملك البلاد لكنه لم يكن كفاء لذلك . فطلب إلى صديق منهم أن يصحبه ، لكنه وعده بمرافقته إلى منتصف الطريق ... ذهب إلى الصديق الثاني فوعده بمرافقته إلى باب القصر الملكي . أما الصديق الثالث فرضى أن يسير معه الطريق كله ويدخل معه إلى الملك ويتكلم نيابة عنه ... ثم بدأ يفسر لهم كلامه ... قال لهم إن الصديق الأول يشير إلى الثسك بدون محبة « وإن سلّمت جسدي حتى احترق ولكن ليس لي محبة فلا انتفع شيئاً » (١ كو ١٣ : ٣) ... والصديق الثاني يشير إلى القداسة التي بدونها لن يرى أحد لرب ... أما الصديق الثالث فهو المحبة أعظم الفضائل جميعاً ، والتي بدونها لن يستفيد إنسان من جهاده مهما كان ، ومهما بلغت تضحياته ...

لماذا يجب أن يحب الإنسان الله ؟

أ - لأن سعادة الإنسان هي في الله ، وروحه لا تستريح إلا فيه :

إن محبة الإنسان لله هي مصدر سعادته ، بل سعادة المجتمع الإنساني كله ..

إذا نزعنا المحبة من المجتمع الإنساني ساد الظلم والخبث والفساد والنفاق والسلب والنهب والفسخ والخيانة والمكايد والحروب. وهذه ولا شك تسبب لأفراد المجتمع شدائد ومصائب وأخطاراً وشرواً... والله بحكمته السامية دبر للإنسان كل ما يجلب له السعادة. وحين أمرنا بالمحبة، وإن نحبه من كل القلب، ومن كل الفكر، ومن كل القدرة، فليس ذلك لأنه بحاجة إلى محبة الإنسان بل لكي يعطى الإنسان كل ما يُسعد. والتأكيد على هذه المحبة بكلمة « كل » في كل مرة، إنما يبين لزوم هذه المحبة للإنسان.

يقول الجامعة : « يرجع التراب إلى الأرض كما كان ، وترجع الروح إلى الله الذى أعطاها » (جا ١٢ : ٧) ... وحيث أن الروح هى من الله ، فهى لا تستريح إلا فيه ... يقول المرتل : « ارجعى يا نفسى إلى موضع راحتك » إن القديس أغسطينوس الذى عاش حياة الخطية والدنس فى أعماقها ، وتَجَرَّ حياة النعمة فى أوج سموها ، يقول فى اعترافاته مناجياً الله : [لقد خلقتنا لك يا الله ، ونفوسنا ستظل بلا راحة حتى تستريح فيك] ... هذا الكلام يتمشى مع قول السيد المسيح : « تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا اريحكم » ... المسيح له المجد الذى خلق الإنسان ويعرف طبيعته وانه لن يجد الراحة بعيداً عن الله ، دعا جميع المتعبين أن يأتوا إليه لكي يريحهم ، على اعتبار ان الراحة هى فى كنفه وتحت ظله وفى الحياة معه ...

ليس للإنسان راحة إلا فى الله خالقه ، وروحه لا تستريح إلا فيه ... إن الحمامة التى أرسلها نوح من الفلك ليكتشف جفاف مياه الطوفان ، لما لم تجد مقراً لرجلها رجعت إلى نوح فى الفلك (تك ٨ : ٩) . هكذا النفس الوديعه المخلوقة على صورة الله فى البرّ وقداسة الحق ، لا تجد راحتها إلا فيه .. إنه هو شعبنا إذ هو خبز الحياة ، وهو ارتواؤنا إذ هو الماء الحى ، وهو الطريق الوحيد إلى الآب . إنه هو ضياء حياتنا إذ هو نور العالم ، وهو الراعى الصالح الذى يقتادنا إلى ينباع الماء الحى ...

ب - من أجل احساناته الدائمة :

يقول المرتل داود النبى : « باركى يا نفسى الرب ولا تنسى كل حسناته » (مر ١٠٣ : ٢) ... بعدها يعدد بعض هذه الاحسانات : « يغفر جميع ذنوبك . يشفى كل

أمراضك. يفدى من الحفرة حياتك. يكللك بالرحمة والرأفة. يشبع بالخير عمرك فيتجدد مثل النسر شبابك... لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا. كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه» ... ويقول المرتل: «ماذا أريد للرب من أجل كل حسناته لى. كأس الخلاص أتناول وباسم الرب ادعوا» (مز ١١٦: ١٢، ١٣) ... ويعلق القديس أغسطينوس على كلام المرتل هذا بقوله: [إن ذاك الذى قال هذا فى المزمور أبان كم هى عظيمة الأعمال التى صنعها الرب معه. ويبحث ماذا يجب عليه أن يردّه الله، ولكنه لم يجد شيئاً!! لأنه مهما قدمت من شيء فهذا قد اقتبلته من الله لترده. وماذا وجد المرنم ليقدمه للرب مقابل احساناته؟ كأس الخلاص أتناول وباسم الرب أدعو. ومن الذى أعطاه كأس الخلاص إلا ذاك الذى أراد أن يرد له شيئاً مقابل احساناته] ...

يقول ارميا النبى: «أردد هذا فى قلبى. من أجل ذلك أرجو. انه من احسانات الرب أننا لم نَفَرْ لأن مراحمه لا تزول هى جديدة فى كل صباح. كثيرة أمانتك» (مراثى ٣: ٢١، ٢٣) ... إنه يعطينا حياة ونفساً وكل شيء. وبه نحيا ونتحرك ونوجد (أع ١٧: ٢٥، ٢٨) ... ومنذ البداية أعلن الله لموسى عن نفسه انه «إله رحيم ورؤوف بطلىء الغضب وكثير الاحسان والوفاء. حافظ الاحسان إلى ألوْف. غامر الإثم والمعصية والخطية» (خر ٣٤: ٦، ٧) ... وقال بلسان إشعياء النبى: «الجبال تزول والآكام تنزعزع، أما احسانى فلا يزول عنك وعهد سلامى لا ينزعزع قال راحمك الرب» (إش ٥٤: ١٠) ... وداود النبى ينادى الله قائلاً: «أذكر مراحمك يارب واحساناتك لأنها عند الأزل هى» (مز ٢٥: ٦).

جـ - من أجل حنانه العجيب :

حنان الله العجيب يسى الإنسان ويأسره . إنه كآب يحنو على أولاده، وكالطير الذى يجمع فراخه ... قال رب المجد فى حزن على أورشليم: «يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجة المرسلين إليها ، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا» (لو ١٣: ٣٤) ... إنه لا يعامل الإنسان حسب خطاياها ولا يجازها حسب آثامها ... يقول بلسان إشعياء النبى: «لحيظة تركتك وبمراحم

عظيمة ساجمك. بفيضان الغضب حجبت وجهي عنك لحظة، وباحسان أبدى أرحمك» (إش ٥٤ : ٧) ... ويقول لموسى النبي: «لأن الرب إلهك إله رحيم لا يتركك ولا يهلكك ولا ينسى عهد آبائك» (تث ٤ : ٣١) ... وقال سليمان في صلاة تدشين الهيكل: «أيها الرب ... ليس إله مثلك في السماء من فوق ولا على الأرض من أسفل، حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم» (١ مل ٨ : ٢٣) ... ويقول المزمّل: «رضيت يارب على أرضك ... غفرت إثم شعبك. سترت كل خطيتهم. حجزت كل رجزك. رجعت عن جو غضبك» (مز ٨٥ : ١-٣) ... والله في حنانه يقول: «بسطت يدي طول النهار إلى شعب متعمد سائر في طريق غير صالح وراء أفكاره» (إش ٦٥ : ٢).

ويقول السيد المسيح عن الله في حنانه إنه: «منعم على غير الشاكرين والأشرار» (لو ٦ : ٣٥) ويقول بولس الرسول: «حين ظهر لطف مخلصنا الله واحسانه» (تي ٣ : ٤)، ويدعوه بولس في موضع آخر: «أبا الرأفة» (٢ كو ١ : ٣) ... وحينما تُسدّد جميع الأبواب في وجوهنا يظل باب الله مفتوحاً دائماً لن يغلّق في وجه أشر الخطاة «من يقبل إلّى لا أخرجه خارجاً» ...

إن مريض بيت حسدا الذي ظل ثمان وثلاثين سنة يعاني من مرضه العضال، حينما سأله المسيح إن كان يريد أن يبرأ، كان جوابه: «ليس لي إنسان» لذا جاءه المسيح (يو ٥) ... إن المسيح هو معين من ليس له معين له ورجاء من لا رجاء له ... والمرأة نازقة الدم التي انفقت كل معيشتها على الأطباء ولم تستفد شيئاً، بل كانت تصير إلى حال أردأ، حالما لمست هذب ثوب المسيح برئت من دائها (مر ٥) ... حينما يتعبنا العالم ويضايقنا من أى زاوية، نجد اذرع المسيح الأبدية مفتوحة لحملنا واحتضاننا ...

إن الله يقابل خطايانا بحب وعطف ورحمة. ولا عجب فهو لا يصنع معنا حسب خطايانا ولا يجازنا حسب آثامنا (مز ١٠٣ : ١٠) ... لقد أنكره بطرس وأقسم أنه لا يعرفه ولمنه وجّذف عليه. فماذا كانت النتيجة؟ بعد أن حدث كل ذلك صاح الديك فتذكر كلام المخلص فخرج إلى خارج وبكى بكاءً مراً ... ثم ماذا بعد هذا. يلتقي به المسيح بعد قيامته المجيدة عند بحر طبرية ويسأله ثلاثاً «يا سمعان بن يونا

أعجبني»، وعندما أجاب بالإنجاب قال له: «أربع خراف» (يو ٢١) ... لقد رده المسيح إلى رتبة الرسولية مرة ثانية بعد أن أنكره ... فهل هذا هو الجزاء المناسب لتلميذ أنكر وجذف ولعن؟!؟

وشاول الطرسوسى (بولس الرسول) الذى كان يضطهد كنيسة الله بافراط ومغزبها ، والذى كان يجر المسيحيين إلى السجون ، والذى قال عن نفسه إنه كان مجدفاً ومضطهداً ومفترياً ، عامله المسيح برفق حينما التقى به قرب دمشق وقال له : « لماذا تضطهدنى ؟ » ... وحينما قال له شاول : « ماذا تريد يا رب أن تفعل » ، جعل منه إناء مختاراً يحمل اسمه أمام أمم وملوك وبنى إسرائيل بل جعل منه رسولاً للعالم أجمع (أع ٩) ... هذا هو إلهنا الخنون الذى لا يعاملنا بحسب أعمالنا وكثرة خطايانا ...

د - لأن عدم محبتنا لله إهانة له :

إن عدم محبتنا لله مقابل محبته تعتبر اهانة له ... فى أكثر من موضع فى العهدين القديم والجديد يقدم المسيح ذاته كالعريس والنفس البشرية كالعروس . لقد تضمن الكتاب المقدس سراً بأكمله هو سفر النشيد فيه يوضح الله محبته لنا بصورة رمزية كالعريس والعروس . وأوضح ذلك فى العهد الجديد فى أكثر من موضع منها مثل العشر عذارى ...

لقد خطبنا المسيح لذاته عروساً : « خطبتكم لرجل واحد لأقدم عذراء عفيفة للمسيح » (٢ كور ١١ : ٢) ... إن العريس يريد من عروسه أن تكون له ، وله وحده . لا تنظر لسواه ، ولا تعطى محبتها لغيره ... وإذا حدث ما هو على خلاف ذلك ، واكتشف الخطيب أن خطيبته تعطى محبتها لإنسان آخر اعتبر ذلك اهانة له ، وفسخ هذه الخطبة ... هكذا فإن الله كعريس نفوسنا يريدنا بالتمام له ، وهو يعتبر عدم محبتنا له إهانة له ...

ومن التعبيرات التى استخدمها الله فى العهد القديم عن شعبه حينما كان ينحرف عن عبادته إلى عبادات أخرى قوله : « شعبى زنى وراء آلهة أخرى » (قض ٢ : ١٧) ... والزنا هنا معناه أنهم أعطوا محبتهم لآلهة أخرى ، أو صاروا لآلهة أخرى

على نحو ما يقول بولس الرسول إن المرأة تدعى زانية إن صارت لرجل آخر غير زوجها وهو على قيد الحياة (رو ٧ : ٣) .

هـ - محبة الإنسان لله تشعره بفناء العالم وتفاهته :

ولأن الإنسان الذي يحب الله يشغل به دائماً ، فإن أشواقه تكون في السماويات ، وبالتالي فإنه يشتهي عالماً أفضل أى سماوياً (عب ١١ : ١٦) ... يقول بولس الرسول : « فإذاً نحن واثقون كل حين وعالمون أننا ونحن مستوطنون في الجسد فنحن متغربون عن الرب ... نثق ونُسَرِّ بالأولى أن نتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب » (٢ كو ٥ : ٦ ، ٨) ... كما يُعبر عن أشواقه بقوله : « لى اشتهاه أن أنطلق وأكون مع المسيح ، ذاك أفضل جداً » (في ١ : ٢٣) ...

وصمعان الشيخ حينما حل الطفل يسوع في الهيكل بارك الله قائلاً : « الآن تطلق عبدك ياسيد حسب قولك بسلام ، لأن عيني قد أبصرتا خلاصك » (لو ٢ : ٢٩ ، ٣٠) ... والمرتل يقول : « ويلي فإن غربتي قد طالت على » (مز ١٢٠ : ٥) ، كما يقول : « غريب أنا على الأرض فلا تحضى عني وصاياك » (مز ١١٩ : ١٩) ... وحينما مثل يعقوب إسرائيل أمام فرعون مصر الذي كان معاصراً ليوسف سأله : « كم هي أيام سنى حياتك » ، فأجاب مستدركاً « أيام سنى غربتي مائة وثلاثون سنة قليلة وردية » (تك ٤٧ : ٩) .

وسليمان أحكم أهل زمانه بعد أن اختبر كل أمور العالم الحاضر قال باطل الأباطيل الكل باطل وقبض الريح ، ولا منفعة تحت الشمس (جا ١) ... من أجل كل ذلك - من أجل الاحساس بفناء العالم الحاضر ، زهد القديسون والأبرار في العالم وكل ما فيه وعاشوا كغرباء ونزلاء فيه ، محبة في الملك المسيح ... إنه بقدر ما تنمو محبة الإنسان للمسيح بقدر ما يحترق كل ما في العالم . بهذا نفهم كلمات الرسول : « لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم » (١ يو ٢ : ١٥) .

و - محبة الإنسان لله تنقذه من الوقوع في الخطأ :

إن المحبة من شأنها أن تشغل الإنسان بمن يحبه ، سواء كان المحبوب حاضراً أم

غائباً . وكلما زادت المحبة كلما تعمق هذا الاحساس لدى المحب بحيث يملك عليه مشاعره واحاسيسه ... فإذا كانت هذه المحبة بين إنسان وبين الله وبعمق ، فإن الإنسان المحب يشعر بوجوده الدائم في حضرة الله في أى مكان وزمان ، يتاجيه وعرض على فعل ما يرضيه وتجنب ما يُفْضِبه ... هذا فضلاً عن فوائده الإيجابية ، إذ يحول بين الإنسان والوقوع في « الخطيئة المحيطة بنا بسهولة » (عب ١٢ : ١) .

ولعل كلمات داود النبي « جعلت الرب أمامي في كل حين لأنه عن يميني فلا أترزعز » (مز ١٦ : ٨) تعبّر عن محبته العميقة لله ، وبالتالي الاحساس الدائم بالوجود في حضرته ... وكذلك كلمات إيليا النبي كان يقولها : « حتى هو رب الجنود الذى أنا واقف أمامه » (١ مل ١٨ : ١٥) ... وكذلك كلمات يوسف الصديق حينما ضغطت عليه امرأة سيده فوطيفار أن يغطىء معها « كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطىء إلى الله » (تك ٣٩ : ٩) ...

والحق ان الإنسان تتملكه الدهشة من كلمات يوسف هذه !! كان من المنتظر - بعد كل الذى حلّ به على أيدي اخوته - أن يقول : أين هو الله ؟ لو كان هناك إله موجود فلماذا تحلى عنى وترك اخوتى يفعلون بى ما فعلوا حتى يبيعوننى عبداً وأنا ابن يعقوب وسليل إبراهيم وإسحق ... لكن يوسف كان من طراز آخر ، وكان إحساسه بوجوده في حضرة الله عظيماً ... وهكذا نجا من تجربة قاسية ، وخطيئة أكيدة مميتة ...

ونود هنا أن نضيف شيئاً ، وهو أن ظروف الحياة القاسية وتياراتها العنيفة ، وشهواتها واغراءاتها الصعبة تحرف كثيرين من غير المتأصلين في محبة الله ، فيتخلون عن المبادئ المقدسة ، ويلجأ البعض إلى السرقة أو الرشوة أو النصب والاحتيال . ويلجأ البعض إلى الارتداد عن الإيمان كلية خوفاً من شيء ما أو سعياً وراء شيء جسدى أو عالمي ... على أن الذى يقود أمثال هؤلاء لأفعالهم الشائنة ، ليست صعوبات الحياة وحدها بل بالأكثر عدم محبتهم للمسيح .

ومنذ عهد الرسل تعرض المؤمنون لأمثال هذه الضغوط وأكثر منها ، ومع ذلك لم يستطع شيء أن ينال من إيمانهم أو يزعزعهم عن محبتهم لله التى في المسيح ... لنستمع إلى بولس الرسول وهو يقول لأهل كورنثوس ... « إلى هذه الساعة نحوج ونعطش ونعزى ونلكم وليس لنا إقامة . ونتعب عاملين بأيدينا . نُشتم فنبارك ،

نضطهد فنحتمل . يُفترى علينا فنحظ » (١ كو ٤ : ١١ - ١٣) ... وقال عن ذاته وعن المؤمنين : « نخاطر كل ساعة » (١ كو ١٥ : ٣٠) ... وقال إنه يموت كل يوم (١ كو ١٥ : ٣١) ... ولا تعليل لكل ذلك إلا في المحبة التي تحتل كل شيء من أجل المحبوب وتصبر على كل شيء ... بل إن هذه الضغوط والشدائد تؤول لمحبي الله إلى نصرة « لكننا في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبنا » (رو ٨ : ٣٧) .

ز- محبة الإنسان لله تخلصه من السرقات الروحية :

والمقصود بالسرقة الروحية ، أى شيء يستطيع أن يسرق محبتك لله حتى لو كان هذا الشيء طيباً ومشروعاً !! وهذه نقطة دقيقة وحساسة . والسارق لا يسرق إنساناً إلا بخفة دون أن يشعر . ولا يذهب بيتاً إلا إذا تأكد أن أصحابه أما نياماً أو غائبين . والسارق هنا هو إبليس .

ولا يجب الاستهانة بهذا الأمر ، فقد يكون ما يسرق محبتنا شيء مشروع كمحبة الوالدين أو الزوجة أو الأولاد ... يقول رب المجد : « من أحب أباً أو أمّاً أكثر منى فلا يستحقنى . ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى » (مت ١٠ : ٣٧) ... احترس مما ومتن يسرق محبتك لله ... قد يكون أحد أفراد أسرتك أو مالاً أو منصباً أو درجة علمية تسعى للحصول عليها . وقد يكون صديقاً ترتبط به بصداقة قديمة ... وقد يكون شيئاً من ضغوطات الحياة ، وما أكثرها في هذه الأيام الصعبة ...

يقول القديس أغسطينوس : [احترس لئلا يسرقك الشيطان فيقول لك إن الله خلق كل الأشياء لتنعم بها . لقد نسي الناس خالقهم الواحد وازدروا به حينما لم يستعملوا الأشياء المخلوقة بتعطف بل بشهوة . وعن مثل هؤلاء قال الرسول : « واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق الذى هو مبارك إلى الأبد » (رو ١ : ٢٥) .]

محبة الإنسان لله ومحبه للعالم :

لكلمة العالم ثلاثة معانٍ : العالم بالمعنى الجغرافى أى المسكونة كلها . والعالم

بمعنى الخليفة على نحو ما يقول السيد المسيح لتلاميذه: «إذهبوا إلى العالم أجمع اكرزوا بالإنجيل للخليفة كلها»... والعالم بمعنى الشهوات الشريرة وشرور العالم على نحو ما يقول يوحنا الرسول: «لأن كل ما في العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة، ليس من الآب بل من العالم» (١ يو ٢: ١٦)... وما نغنيه هنا هو هذا المعنى الشرير الأخير، كما يقول الرسول أيضاً: «نعلم أننا نحن من الله والعالم كله قد وُضِعَ في الشرير» (١ يو ٥: ١٩).

ويتكلم الكتاب المقدس بغاية الوضوح عن خطورة محبة العالم ... «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم. إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب. لأن كل ما في العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة. ليس من الآب بل من العالم. والعالم يضيء وشهوته، وأما الذي يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد» (١ يو ٢: ١٥-١٧)... ويقول يعقوب الرسول متسائلاً: «أما تعلمون أن محبة العالم عداوة لله. فمن أراد أن يكون محباً للعالم فقد صار عدواً لله» (يع ٤: ٤).

يقول القديس أغسطينوس: [هناك نوعان من الحب: محبة العالم ومحبة الله. إن سكنت فينا محبة العالم، فليس هناك سبيل لمحبة الله أن تدخل. فذغ عنك محبة العالم لتحل محبة الله... لا يقل أحد في قلبه أيها الاخوة إن هذا غير صحيح. لقد قاهها الله. لقد تكلم الروح القدس بواسطة الرسول، فليس شيء أكثر صدقاً من قوله: «إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب». فليتركتم تقننون محبة الآب حتى يمكنكم أن تشاركوا الابن في الميراث. انكم إناء، فَرِّغُوا ما فيه حتى تقبلوها ما ليس فيه. جيد ألا نحب العالم ثلثا تبقى أسرار الكنيسة المقدسة فينا للمهلك الأبدى. ولا تصبح وسيلة لتقويتنا للخلاص. إن ما يقوينا للخلاص أن يكون لنا أصل المحبة و«قوة التقوى»، لا الصورة فقط (٢ تي ٣: ٥). إن الصورة حسنة ومقدسة، ولكن بماذا تنفع الصورة إن لم يكن لها الأصل. ألا يُلقى الفرع المقطوع في النار؟ لتكن لك الصورة لكن بالأصل. ولكن بأية طريقة أنتم متأصلون حتى لا تُقْلِعُوا؟ باقتناء المحبة كما يقول الرسول بولس: «وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة» (أف ٣: ١٨). ولكن كيف تتأصل المحبة وسط برية العالم المقفرة. وكل ما في العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة، ليس من الآب بل من

العالم ... والسؤال لماذا لا أحب ما عمله الله ؟ إما أن تحب الأشياء الزمنية وتمضى مع الزمان ، وإما أن لا تحب العالم وتحيا إلى الأبد مع الله ... هل محبة العالم تطويك في دوامتها ؟ امسك المسيح بسرعة . لأجلك صار زمنياً حتى يمكنك أن تصير أبدياً . لقد أضيفت إليه بعض الأشياء من الزمان ، دون أن يفقد شيئاً من أزليته . لكن أنت ولدت زمنياً وبالخطية صرت زمنياً . لقد صرت زمنياً بالخطية ، ولكنه هو صار زمنياً بالرحمة لغفران الخطايا . ما أكثر الفارق بين اثنين في سجن واحد . بين المجرم ومن جاء لزيارته !! يحدث أحياناً أن يأتي شخص ويدخل السجن لزيارة صديقه المسجون . الاثنان في سجن . ولكنهما يختلفان اختلافاً كبيراً . أحدهما تحتم عليه قضيته ، بينما الثاني ساقته إنسانيته . وهكذا نحن في حالتنا المستحقة الموت . لقد أمسكنا بذنبنا ، وهو في رحمته نزل إلينا . ودخل إلى الأسر قادياً .]

والكتاب المقدس يضع حداً فاصلاً بين محبة الله ومحبة العالم ... بين النور والظلام ، كما بين الخير والشر . ولا يجب الخلط بين محبة الله ومحبة العالم . وسلوك الإنسان وحده هو الذى يحدد نوعية محبة الإنسان ، هل هى لله أم للعالم ... يقول صاحب النشيد بلسان العروس مخاطبة عريسها : « اجعلنى كخاتم على قلبك ، كخاتم على ساعدك . لأن المحبة قوية كالموت » (نش ٨ : ٦) .

إن وصية المسيح له المجد أن نحب الله من كل القلب والفكر والقدرة . ولا ينبغي أن نشرك آخر أو آخرين ، أو أى أمور عالمية مع الله في محبتنا . بل لتكون محبتنا للآخرين من خلال محبتنا لله ، فإن ذلك يقدس هذه المحبة ويقويها وينقيها ...

أنت إلى سليمان ملك إسرائيل امرأتان مختلفتان على طفل . كل منهما تدعى بنوته لها ، لأن الاثنين ولدتا في وقت واحد تقريباً . وإذا أراد سليمان بما أوتى من حكمة معرفة الأم الحقيقية ، أمر أن يؤتى بسيف ، وأمر أن يشطر الطفل اثنين لتأخذ كل امرأة نصفاً . تهللت إحداها لهذا الحل ، بينما قالت الأخرى : « استمع يا سيدى . أعطوها الولد الحى ولا تميته » . فعلم سليمان أن هذه هى الأم الحقيقية (١ مل ٣ : ١٦ - ٢٧) ... إن الأم غير الحقيقية لا يهمها أن يموت الطفل . أما الأم الحقيقية فلا ترضى إلا بالابن حياً وكاملاً ... هكذا الله لا يرضى إلا بقلب الإنسان ومحبه كاملة . أما عدو الخير فلأنه سارق وليس مالكنا ، فإنه يُسر بما يستطيع أن يحصل عليه منا .

لكن ربما بدا الأمر صعباً بالنسبة لكثيرين . إنهم يتساءلون كيف يكون الإنسان عائشاً في العالم ولا يحبه أو يتعامل معه؟ ... يقول القديس اغسطينوس : [حب الله وافعل ما شئت] . لكن في هذه الحالة سوف لا تعمل ما تريده أنت ، بل ما يريده الله لأن محبة المسيح تحصر كما يقول الرسول بولس (٢ كو ٥ : ١٤) ... اجعل محبة الله هي الأولى ، وبعد ذلك ستعرف ما يمكنك أن تعمله دون أن تخطيء إلى هذه المحبة أو تهينها ... إن محبة العالم عداوة لله ... وكثيراً ما يجرح المسيح في بيت أحبائه (زك ١٣ : ٦) ... ولنحذر الخطيئة فإنها سبب فتور المحبة « لكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين » (مت ٢٤ : ١٢) .

في أى شيء تظهر محبة الإنسان لله ؟

أ - في محبته لله أكثر من أى شيء أو أى أحد ، حتى لو كانت محبة طاهرة ومشروعة . وهذه قد تكلمنا عنها قبلاً في ثنايا حديثنا .

ب - في محبته لكل الخليقة لا سيما الإنسان . وقد اشرنا إلى ذلك قبلاً وستتناول موضوع محبة الإنسان للإنسان في الموضوع المقبل ...

ج - في مشاركة المسيح آلامه ... ليس أدل على محبة إنسان لآخر من مشاركته آلامه وضيقاته ... أو في احتماله للآلام من أجله ... والسيد المسيح وإن كان قد أكمل الفداء على الصليب ، لكن آلامه لم تكتمل ومازالت حتى الآن . يقول الرسول بولس لأهل كورنثوس : « أفرح في آلامي لأجلكم ، وأكمل نقائص شذائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة » (١ كو ٢٤) ... والمؤمنون بالمسيح يكملون آلامه حتى الآن ... لذا في رسالته إلى خدام كنيسة أفسس يقول السيد المسيح : « أنا عارف أعمالك وتعبك وصبرك ... وقد احتملت ولك صبر وتعبت من أجل اسمي ولم تكلم » (رؤ ٢ : ٢ ، ٣) ... ولقد جعل المسيح حمل الصليب علامة من علامات التمددة له وتبعيته ... ومتى يحمل الإنسان الصليب ... يقول المسيح « كل يوم » (لو ٩ : ٢٣) ... وأين نحمل الصليب بالمفهوم الحقيقي والروحي ... في كل مكان وفي كل مناسبة . انها الشهادة الحية أننا تلاميذه واتباعه « تكونون لي شهوداً في اورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض » (أع ١ : ٨) ...

إن كل ما يأتى على المؤمن من ضيقات - طالما أنها ليست بسبب أخطائه - فإنها تكون من أجل المسيح، سواء كانت ضيقات روحية من عدو الخير، أو مضايقات أخرى يثيرها علينا عدو الخير أيضاً... تكفى كلمات المسيح التى أنبأنا بها عما سيحل بنا «تكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى» (مت ١٠ : ٢٢)... وواضح هنا أن البغضة ليست بسبب خطأ ارتكبهنا، بل «من أجل اسمى» !!

د - فى خدمة المسيح :

الخدمة بصفة عامة فى المفهوم الروحى ، هى التعبير العمل عن محبة الإنسان لله... فلقد أتم المسيح فداءه للبشر على الصليب، وأسس الكنيسة فى يوم الخمسين، لكنه ترك مهمة امتداد ملكوته على الأرض لتلاميذه وكل من يتلمذون على أيديهم... ومازلنا كل يوم نطلب إلى الله فى الصلاة التى سلمنا إياها المسيح قائلين : «ليأت ملكوتك» ...

والخدمة ليست وفقاً على جماعة من البشر ، كما أنها ليست من نوع واحد . لذا يقول الرسول بولس : «أنواع مواهب موجودة ولكن الروح واحد . وأنواع خدَم موجودة ولكن الرب واحد . وأنواع أعمال موجودة ولكن الله واحد» (١ كو ١٢ : ٤ - ٦)... ليست خدمة التعليم إلا نوعاً من أنواع الخدمة الكثيرة والمتنوعة... ولا نكون مبالغين إذا قلنا إنه لا يمكن إحصاء أنواع الخدمة... قد تكون كلمة طيبة تريح إنساناً خدَمه ، وقد تكون نغمة إنسان حزين خدَمه ، وقد تكون فك ضيقة إنسان محتاج خدَمه ، وقد تكون النصيحة المخلصة خدَمه... هذا ناهيك عن أنواع الخدَم المتعارف عليها بين الناس... لفهم جيداً أن الخدمة فى أى صورة من صورها هى تعبير عن حب . لذا فالإنسان المحب يعرف كيف يخدم جيداً، بعكس الإنسان الذى تنقصه المحبة وتتوفر له مواهب كثيرة... لذا يقول القديس بولس لأهل غلاطية : «بالمحبة اخدموا بعضكم بعضاً» (غل ٥ : ١٣) ، ويشير فى رسالته إلى أهل تسالونيكي إلى عمل إيمانهم وتعب محبتهم (١ تس ١ : ٣)... وفيما نحن نخدم اخوتنا فإننا نقدم الخدمة له «بما إنكم فعلتموه بأحد اخوتى هؤلاء الأصاغر فبى فعلتم» (مت ٢٥ : ٤٠) .

فضائل ترتبط بمحبة الإنسان لله :

سبق القول ان الفضائل جميعاً ترتبط بالمحبة ، وقد شبهنا المحبة بالنسبة لبقية الفضائل بخيط المسبحة الذى يمر وينفذ في كل حبات المسبحة ، ويجعل منها وحدة واحدة ، ولذا دعاها الرسول بولس : « رباط الكمال » ... لكننا نخص بالكلام هنا بعض الفضائل الأساسية كالإتضاع ونقاوة القلب والصبر والاحتمال والعطاء ...

أ- الإتضاع :

الإتضاع والحب يتعاضدان ويؤازر كل منهما الآخر ... يقول القديس أغسطينوس : [حيث المحبة هناك السلام . وحيث التواضع نجد المحبة] ... ويقول القديس يوحنا الدرجمي : [لا شيء أفضل من الإتضاع والحب . لأن الاتضاع يرفع كما قال الرب ، والحب يمسك في الارتفاع كما قال الرسول إن المحبة لا تسقط أبداً ولا تبطل] .

إن محبتنا لله يقومها الإتضاع ويقويها . فحينما يشعر الإنسان بكثرة خطاياها ورداءة سيرته ، ويشعر إلى جانب ذلك بأن الله مازال أميناً في محبته..له والعناية به ، تكون مشاعر الإتضاع والإنسحاق هذه سبباً في اضرام قلبه بمحبة الله ... هذه المشاعر هى التى اضمرت نار محبة الله في قلوب القديسين ، ومازالت تحرك كثيرين نحو هذا الهدف السامى ...

وإذا كان الاتضاع عامل هام في تدعيم المحبة ، فإن المحبة بدورها تقوى الإتضاع وتدعمه . ويبدو هذا في علاقتنا بالله والناس ... فاحساسنا بشدة وعمق محبة الله لنا يزيدنا إنسحاقاً ، ومن الناحية الأخرى فإن إتضاعنا يجذب محبة الله نحونا . ونفس الشيء يحدث في علاقتنا بالآخرين ...

ب- نقاوة القلب :

السيد المسيح في عظته على الجبل يطوب أتقياء القلب لأنهم يعاينون الله (مت ٥ : ٨) ... ويقول المرتل : « من يصعد إلى جبل الرب ، ومن يقوم في موضع قدسه . الطاهر

البيدين والتقى القلب» (مز ٢٤ : ٣ ، ٤) ... والقلب التقى هو القلب الذى تنقى من الخطية ومن الأباطيل ، وبدأ يثمر ثمار الروح . وأول ثمرة من ثمار الروح القدس هى المحبة (غل ٥ : ٢٢) ... وإذا كان السيد المسيح قد طوَّب أنقياء القلب فلأنهم يعاينون الله ... ومعاينة الله تحتاج أول ما تحتاج إلى المحبة ، لأن الله محبة .

جـ - الصبر والاحتمال :

إن محبة الإنسان لله - وحتى محبتنا للآخرين - لا تظهر إلا بالصبر والاحتمال ، فالمحبة تحتل كل شيء (١ كو ١٣ : ٧) . فضلاً عن أن المحبة تهوّن علينا الشدائد والآلام والضيقات . فمن أجل محبة الله يكون الإنسان مستعداً لتقبل الآلام وكل ما يأتى عليه ، حتى أن الرسول بولس يقول : « من أجلك ثُمات كل النهار . قد حُسبنا مثل غنم للذبح . ولكننا فى هذه جميعها نعظم انتصارنا بالذى أحبنا » (روم ٨ : ٣٦ ، ٣٧) ...

ولدينا مثل رائع فى العهد القديم فى قصة زواج يعقوب أب الآباء إبراهيم ... حينما طلب يعقوب يد راحيل ليتزوج منها ، اشترط عليه خاله لابان أن يخدمه سبع سنين مقابل زواجه منها . ونفذ يعقوب ما تعهد به لخاله وخدمه سبع سنين . ويقول الكتاب : « كانت فى عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها » (تث ٢٩ : ٢٠) ... لكن القصة لم تكتمل ، فلقد خدعه خاله لابان وزوجه من ليثة شقيقة راحيل الكبرى . وحينما طالب إبراهيم اشترط عليه أن يخدم سبع سنين أخرى . وبالفعل خدم يعقوب خاله لابان أربع عشرة سنة لكى يفوز بإبراهيم من أجل عظم محبته لها ...

د - العطاء :

يرتبط العطاء بالمحبة ... وحينما نقول العطاء فنحن لا نقصد إلى الناحية المادية فقط ، بل العطاء فى كل صوره . وليس من المبالغة إن قلنا إن العطاء المادى هو أدنى أنواع العطاء ... فالإنسان فى عطائه يتدرج من العطاء المادى إلى عطاء الوقت والجهد ، حتى يصل بالنسبة للبعض إلى عطاء النفس حينما يكرس حياته تكريساً كاملاً لله على نحو ما يفعل من يعيشون حياة التبتل فى الرهبنة ، أو

الخدمة الكهنوتية في العالم أو المكرسون في أية صورة من صور التكريس .

والله لا يقبل عطايانا وتقدماتنا إلا إن كانت عن حب فان « أعطى الإنسان كل ثروة بيته بدل المحبة تحتقر احتقاراً » (نش ٨ : ٧) ... والرسول بولس يقول : « إن اطعمت أموالى وأسلمت جسدى حتى احترق ولكن ليس لى محبة فلا انتفع شيئاً » (١ كو ١٣ : ٣) . والرسول يوحنا الحبيب يربط بين العطاء والمحبة حينما يقول : « وأما من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشائه عنه ، فكيف تثبت محبة الله فيه . يا أولادى لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق » (١ يو ٣ : ١٧ ، ١٨) .

يقول الرسول بولس : « كل واحد كما ينوى بقلبه ، ليس عن حزن أو اضطراب ، لأن المعطى المسرور يحبه الله » (٢ كو ٩ : ٧) ... ولا شك أن السرور في العطاء إنما يدل على ما يكتنه قلب المعطى من محبة نحو الله ، لأنه يحسن وهو يعطى إنساناً إنما يعطى الله ذاته ...

وثمة قصص كثيرة في تاريخ الكنيسة توضح لنا أنه كلما زاد الإنسان في محبة الله كلما زاد في عطائه ، ونكتفى بذكر واحدة منها وهى عن القديس بطرس العابد ...

بدأ حياته قاسياً في معاملته ، شديداً في شحه وبخله ، حتى لقبوه بمن لا رحمة فيه . قصّده فقير ذات يوم يسأل صدقة ، فلم يجبه إلى طلبه . لكن السائل استمر في لحاحه . واتفق أن وصل غلامه يحمل خبزاً . فأخذ خبزة والقاها في وجه الفقير ، مريداً صربه وليس بقصد الرحمة ... ولكن ذلك الفقير انحنى نحو الخبزة واخذها وانصرف ... أراد الرب أن يفتّر قلب ذلك الرجل من جهة محبة الشديدة للمال . فرأى بطرس في نك الليلة حلماً ، وكأنه في يوم الدينونة واقف للمحاكمة أمام الملائكة . ولم توجد له حسنات سوى تلك الخبزة التى ضرب بها ذلك الرجل الفقير ... استيقظ من نومه مذعوراً مرتجفاً ، وأخذ يفكر في ذلك الحلم ، ومعه أخذ يلوم نفسه على شحه وبخله ... كان ذلك سبباً في تحويله إلى إنسان رحوم . وزع ثروته على الفقراء ، ولما لم يجد شيئاً يتصدق به تصدق بثوبه الذى يرتديه فباعه وتصدق بثمنه ... وقيل إنه لما لم يبق له شيء ترك بلده ومضى وباع نفسه عبداً وتصدق بالثمن على الفقراء .

ولما شاع ذكره وذاعت فضيلته قصد بركة شبيته ، وأمضى بقية حياته في عبادة ونسك ، أهله في النهاية إلى أن يعرف ساعة انتقاله من العالم . وتعيّد له كنيسة بتذكار نياحته في الخامس والعشرين من شهر طوبة من كل عام .

عشاء عُرس الحمل :

ونحن نتكلم عن محبة الإنسان لله ، نقول ما هي الغاية من هذه المحبة ، وهل لها من نهاية ... وما هي نهاية محبة الإنسان لله التي ظل يُغذّيها ويضرمها حياته كلها بالجد على الأرض .. ؟

يقول يوحنا في سفر الرؤيا : « وخرج من العرش صوت قائلاً سبحوا لإلهنا يا جميع عبيده الخائفية الصغار والكبار . وسمعت كصوت جمع كثير وكصوت مياه كثيرة وكصوت رعود شديدة قائلة هلولوا ، فإنه قد ملّك الرب الإله القادر على كل شيء . لنفرح ونتهلل ونُعطي المجد لأن عُرس الخروف قد جاء ، وامراته هيأت نفسها . واعطيت أن تلبس بزاً نقياً لأن البز هو تبررات القديسين . وقال لي اكتب طوبى للمدعوين إلى عشاء عرس الخروف » . (رؤ ١٩ : ٥ - ٩) ...

ماذا يعنى الحضور إلى عرس الحمل ؟ انه يفوق تعبير الكلمات والأفكار ... ان كل الفرح والسعادة في هذا العالم لا يقارن بمشاء عرس الحمل . انه مهرجان المحبة العظيم . إن ملك الملوك ورب الأرباب يصنع وليمة عرسه مع عروس محبته التي هي الكنيسة بأعضائها . أعداد لا تحصى من الملائكة ... ألوف الوف وربوات ربوات ... وإذا كان الملائكة أرواحاً مرسلّة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص (عب ١ : ١٤) ... إذا كانوا قد خدموا الأمانة على الأرض فكهم بالأحرى ستزداد خدمتهم لهم في السماء ... وما هذه العروس التي تجلس إلى جوار الرب يسوع الحمل المذبوح . كم هي جميلة وتفوق كل وصف ... لقد حول دم الخروف الخطاة إلى عروسه ، وهم يعملون صورته ويجلسون معه .

ووسط هذا المجد الذي لا يُعبّر عنه ستكون العروس وكأنها في حلم . لكن لأنها تحب بالحق فهي لا تنظر إلّا إلى محبوبها - الخروف الذي وسط العرش الذي هو عريسها ... إنها وسط تهليل الملائكة والخلائق السماوية لا تصفى إلّا إلى صوت واحد

هو صوت عريسها ملك الملوك ... انها الآن تستطيع أن تبقى معه إلى الأبد وتستطيع رؤيته وجهاً لوجه. إنها الآن تبين مجده الذى كانت تنظره كما فى مرآة (٢ كو ١٨ : ٣) ... كانت وهى على الأرض تنظر فى مرآة فى لغز، ولكنها الآن وجهاً لوجه (١ كو ١٣ : ١٢) ... لقد وصلت العروس إلى آخر محطة وهى تستقل قطار السماء ... انها المحطة العظمى ، محطة المحبة ...

سترى العروس الملك فى بهائه - أبرع جالاً من بنى البشر » (مز ٤٥ : ٢) ... وسيقول لها : « ما أحسن حبك يا اختى العروس » (نش ٤ : ١٠) ... وعندما تذكر العروس ماضيها ، وتنتبه إلى مكانة عريسها انه هو ملك ملوك الأرض ، تسقط عند قدميه مقدمه له العبادة ، ولكنه يُقيمها ويُجلسها إلى جواره « وأنا اعطيهم المجد الذى اعطيتنى » (يو ١٧ : ٢٢) ... انها عروسه التى قيل عنها : « جُعِلَت الملكة عن يمينك بذهب أوفير » (مز ٤٥ : ٩) ... لقد حققت العروس كل ذلك بحبتها لعريسها ... آه ! من الذى يستطيع التعرف على الخاطنة القديمة فى شخص هذه العروس؟! ... إنها ترتدى ثياب الملكة فى كنان أبيض ، ومتوجة بأكليل البر ، مقابل الذل والعار اللذين تحملتهما من أجل اسمه فى صبرٍ وتواضع ومحبة . وحملت صليبه بفرح وسارت خلفه المسيرة كلها ...

ويا لها من فرحة للأب السماوى عندما يرى ثمار آلام ابنه الحبيب . فعروسه هى مجموعة من الخطاة ، لكنهم الآن صاروا مشابهين صورة ابنه الذى بذل ذاته عنهم ، وذاق الموت لأجلهم ... لقد حرّره من قوة الخطيئة وسلطانها حتى بذلك يعكسوا مجد الخالق ثانية ... إن هؤلاء جميعاً جماعة من الخطاة حولتهم محبة ابن الله إلى قدسين فضيلتهم الأولى هى المحبة ...

مبارك من يستطيع المثول فى حضرة الرب فى ذلك اليوم ... لقد ألقاه محبته العميقة الخالصة لهذا المجد الذى لا يعبر عنه ، بقوة الفداء الذى أتمه ابن الله على الصليب فوق الجلجثة ... إن مجداً لا يوصف سيكتنف هؤلاء المفدين ... لقد أتوا من الضيقة العظيمة ، وقد غسلوا ثيابهم وبيّضوها فى دم الخروف ... من أجل ذلك « هم أمام عرش الله ، ويخدمونه نهراً ولباً فى هيكله . والجالس على العرش يحلّ فوقهم . لن يجوعوا بعد ، ولن يعطشوا بعد ، ولا تقع عليهم الشمس

ولا شيء من الحرّ. لأن الخروف الذى فى وسط العرش يرعاهم ويقتادهم إلى
ينابيع ماء حية، ويمسح الله كل دمعَة من عيونهم» (رؤ ٧ : ١٥ - ١٧) ... ما
هذا المجد كله يا إلهى ... إنها الحياة الأبدية التى وعدت بها كل الذين
يحبونك ...

محبة الإنسان لأخيه الإنسان

- محبة الإنسان للإنسان في تعليم السيد المسيح .
- محبة الإنسان للإنسان في تعليم الرسل .
- المحبة الأخوية في حياة الكنيسة .
- مفهوم جديد يقدمه المسيح لمحبة الإنسان للإنسان .
- تعليم المسيح عمن هو القريب .
- محبة الأعداء في تعليم المسيح .
- سمات المحبة المسيحية في محبة الإنسان للإنسان .

الله هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد ، ليس عنده تغيير ولا ظل دوران (عب ١٣ : ٢٨ يوح ١ : ١٧) . وإذا كان الله محبة كما أعلن في العهد الجديد ، لكنه محبة أيضاً منذ القديم ، بل منذ الأزل ، فالله من صفاته الثبات وعدم التغير... وإن كنا في العهد الجديد نرى محبة الله في ملتها وعمقها ، فليس معنى ذلك أنه لم يكن محبة منذ القديم .

قال الله بلسان موسى النبي : « تحب قريبك كنفسك أنا الرب ... كالوطنى منكم يكون الغريب النازل عندكم ، وتعبه كنفسك ، لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر . أنا الرب إلهكم » (لا ١٩ : ١٨ ، ٣٤) ... « فاحبوا الغريب لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر » (لا ١٩ : ١٠) ... ويقول الحكيم : « البغضة تهيج خصومات ، والمحبة تستر كل الذنوب ... أكلة من البقول حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعه بغضة ... من يستر معصية يطلب المحبة » (أم ١٠ : ١٢ ، ١٥ : ١٧ ، ١٧ : ٩) . كما يقول أيضاً : « لا تفرح بسقوط عدوك ، ولا يتهيج قلبك إذا عثر ، لتلا يرى الرب ويسوء ذلك في عينيه » (أم ٢٤ : ١٧ ، ١٨) ... وحين أخطأ بنو إسرائيل وصنعوا لأنفسهم عجلاً من الذهب ليعبدوه ، أظهر موسى محبة لشعبه ووقف يشفع فيه وقال للرب : « آه قد أخطأ هذا الشعب خطية عظيمة ، وصنعوا لأنفسهم آهة من ذهب . والآن ان غفرت خطيتهم وإلا فأعني من كتابك الذى كتبت » (خر ٣٢ : ٣١ ، ٣٢) ... ويقول المرتل : « هوذا ما أحسن وما أجل أن يسكن الاخوة معاً . مثل الدهن الطيب على الرأس النازل على اللحية لحية هارون النازل إلى طرف ثيابه . مثل ندى حرمون النازل على جبل صهيون . لأن هناك أمر الرب بالبركة حياة إلى الأبد » (مز ١٣٣ : ١ - ٣) .

قلنا إن تعليم محبة الإنسان لأخيه الإنسان موجود في العهد القديم ، لكن الفهم الكامل والواضح لهذه الوصية لا نراه إلا في العهد الجديد ، حيث أظهر الله محبته في ملتها سواء محبته هو للبشر أو في تعليمه عن محبة الإنسان للإنسان في شخص ابنه يسوع المسيح ربنا . وليس أدل على ذلك مما قاله الرسول بولس : « أما المحبة الأخوية فلا حاجة لكم أن أكتب إليكم عنها ، لأنكم أنفسكم متعلمون من الله أن يحب بعضكم بعضاً » (١ تس ٤ : ٩) ... لتلاحظ التعبير الذى يستخدمه الرسول : « لأنكم أنفسكم متعلمون من الله » .

محبة الإنسان للإنسان في تعليم السيد المسيح :

وما أكثر ما علّم السيد المسيح عن المحبة الأخوية :

« تحب قريبك كنفسك » (مت ١٩ : ١٩ ؛ غل ٥ : ١٤) ... وفي عظته على الجبل يقول : « من شغرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين . من سالك قاعطه . ومن أراد أن يقترض منك فلا تردّه ... وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضاً بهم هكذا » (مت ٥ : ٤١ ؛ لو ٦ : ٣١) ... « هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم ... أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيتكم به ... بهذا أوصيكم حتى تحبوا بعضكم بعضاً » (يو ١٥ : ١٢ ، ١٤ ، ١٧) .

والإنسان الذي لا يجب يفصل نفسه عن الكنيسة ، ومعلوم أنه لا خلاص خارج الكنيسة ... يقول رب المجد يسوع : « إن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما . إن سمع منك فقد ربحت أخاك . وإن لم يسمع فخذ معك أيضاً واحداً أو اثنين ... وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة . وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كاللوثى والعشار » (مت ١٨ : ١٥ - ١٧) ... بعد هذا القول يسأل بطرس الرسول السيد المسيح قائلاً : « كم مرة يخطئ إليّ أخى وأنا أغفر له . هل إلى سبع مرات » . فكان جواب الرب عليه : « لا أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات » (مت ١٨ : ٢١ ، ٢٢) ...

بعدها مباشرة يقدم لنا مثلاً يوضح به عاقبة من لا يحب أخاه ... يقول :

« يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً أراد أن يحاسب عبيده . فلما ابتدأ في المحاسبة قُدم إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة . وإذ لم يكن له ما يوفى ، أمر سيده أن يباع هو وامراته وأولاده وكل ما له ويوفى الدين . فخرّ العبد وسجد له قائلاً : يا سيد تمهل عليّ فأوفيك الجميع . فتحنن سيد ذلك العبد وأطلقه وترك له الدين . ولما خرج ذلك العبد وجد واحداً من العبيد رفاقه كان مديوناً له بمائة دينار . فأمسكه وأخذ بمنقه قائلاً أوفنى ما لى عليك . فخرّ العبد رفيقه على قدميه وطلب إليه قائلاً تمهل عليّ فأوفيك الجميع . فلم يُرد ، بل مضى والقاء في سجن حتى يوفى الدين . فلما رأى العبيد رفاقه ما كان حزنوا جداً واتوا وقصوا على سيدهم كل ما جرى . فدهاه حينئذ

سيده وقال له : أيها العبد الشرير كل ذلك الدين تركته لك لأنك طلبت إليّ .
 أفما كان ينبغي أنك أنت أيضاً ترحم العبد وظيفك كما رحمتك أنا . وغضب
 سيده وسلّمه إلى المُعَذِّبِينَ حتى يوفى كل ما كان له عليه . فهكذا أبى السماوى
 يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته » (مت ١٨ : ٢٣ -
 ٣٥) .

بل أكثر من هذا فإن السيد المسيح يجعل المحبة العملية هى المؤهل
 للملكوت السماوى :

« ومتى جاء ابن الإنسان فى مجده وجميع الملائكة القديسين معه ، فحينئذ يجلس
 على كرسى مجده . ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيمیز بعضهم من بعض كما يميز الراعى
 الخراف من الجداء . فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار . ثم يقول الملك للذين
 عن يمينه تعالوا يا مباركى أبى رثوا الملكوت المقء لكم منذ تأسيس العالم ، لأنى جعت
 فأطعمتمونى ، عطشت فسقيتمونى ، كنت غريباً فأوتمونى ، عرياناً فكسوتونى ،
 مريضاً فزرتونى ، محبوساً فأتيتم إليّ . فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين : يارب متى رأيناك
 جائعاً فأطعمناك أو عطشاناً فسقيناك ، ومتى رأيناك غريباً فأويناك ، أو عرياناً
 فكسوناك ، ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتيناك إليك . فيجيب الملك ويقول لهم :
 الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتى هؤلاء الأصاغر فبى فعلتم . ثم يقول
 أيضاً للذين عن اليسار اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المقءة لإبليس
 وملائكته ، لأنى جعت فلم تطعمونى ، عطشت فلم تسقونى ، كنت غريباً فلم
 تأوونى ، عرياناً فلم تكسونى ، مريضاً ومحبوساً فلم تزورونى . حينئذ يجيبونه هم
 أيضاً قائلين : يارب متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو
 محبوساً ولم نخدمك . فيجيبهم قائلاً : الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوا بأحد
 هؤلاء الأصاغر فبى لم تفعلوا . فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدي ، والأبرار إلى حياة
 أبدية » (مت ٢٥ : ٣١ - ٤٦) .

ويقول السيد المسيح : « من سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم
 تلميذ فالحق أقول لكم انه لا يضيع أجره » (مت ١٠ : ٤٢) ... ربما كان كأس الماء
 البارد تافهاً فى نظر الناس ، لكنه متى قُدم بحبة فقد صار شيئاً له أجر عند الله ، لأنه
 تنفيذ لوصيته .

محبة الإنسان للإنسان في تعليم الرسل :

يقول معلمنا القديس بولس الرسول : « لا تكونوا مديونين لأحد بشيء ، إلا بأن يحب بعضكم بعضاً . لأن من أحب غيره فقد أكمل الناموس . لأن لا تزنى لا تقتل لا تسرق لا تشهد بالزور لا تشتهى ، وإن كانت وصية أخرى هي مجموعة في هذه الكلمة أن تحب قريبك كنفسك » (رو ١٣ : ٨ ، ٩) . ويضيف عل ذلك قوله : « المحبة لا تصنع شراً للقريب . فالمحبة هي تكميل الناموس » (رو ١٣ : ١٠) . ويكتب إلى أهل كورنثوس ... « اتبعوا المحبة ... لتصر كل أموركم في محبة » (١ كو ١٤ : ١٠ ، ١٦ : ١٤) . ويقول لأهل غلاطية : « بالمحبة اخدموا بعضكم بعضاً . لأن كل الناموس في كلمة واحدة يكمل تحب قريبك كنفسك » (غل ٥ : ١٣ ، ١٤) ... ويربط بين محبتنا بعضاً لبعض ومحبة المسيح لنا فيقول : « اسلكوا في المحبة كما أحبنا المسيح أيضاً وأسلم نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحة لله رائحة طيبة » (أف ٥ : ١ ، ٢) ...

ويتكلم هذا الرسول عن الفضائل المسيحية ويتوجها بالمحبة حينما يقول لأهل كولوسى : « فالبسوا كمختارى الله القديسين المحبوبين أحشاء رأفات ولطفاً وتواضعاً ووداعة وطول أناة محتملين بعضكم بعضاً ومساعدين بعضكم بعضاً إن كان لأحد على أحد شكوى ، كما غفر لكم المسيح هكذا أنتم أيضاً . وعلى جميع هذه البسوا المحبة التى هي رباط الكمال » (كو ٣ : ١٢ - ١٤) . وجعلها الغاية من جميع وصايا الله « وأما غاية الوصية فهى المحبة من قلب طاهر وضمير صالح وإيمان بلا رياء » (١تى ١ : ٥) .

ويعقوب الرسول يدعو المحبة الأخوية الناموس الملوكى ... « فإن كنتم تكملون الناموس الملوكى حسب الكتاب تحب قريبك كنفسك فحسناً تفعلون » (يع ٢ : ٨) .

أما يوحنا الرسول - التلميذ الذى كان الرب يسوع يحبه - فيسهب في الكلام عن المحبة الأخوية :

« لأن هذا هو الخبر الذى سمعتموه من البدء أن يحب بعضنا بعضاً ... نحن

نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الاخوة. من لا يحب أخاه يَبْقَى في الموت. كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس. وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه. بهذا قد عرفنا المحبة أن ذاك وضع نفسه لأجلنا. فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الاخوة. وأما من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشائه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه. يا أولادى لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق» (١ يوحنا ١١ : ١٨-١٩) ... كما يقول: «أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً. لأن المحبة هي من الله. وكل من يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله. ومن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة» (١ يوحنا ٤ : ٧، ٨).

وما يذكر عن يوحنا الرسول إنه ظل حياته كلها رسول المحبة في كرازته ووعظه ورسائله وإنجيله ... روى عنه انه لما شاخ ولم يعد قادراً على الوعظ، كان يُحمل إلى الكنيسة ويقف بين المؤمنين مردداً العبارة: «يا أولادى حبوا بعضكم بعضاً». فلما سأم السامعون تكرار نفس هذه العبارة، تساءلوا لماذا يعيد هذه الكلمات ويكررها. فكان جوابه لأنها هي وصية الرب، وهي وحدها كافية لخلاصنا لو اتقناها...

ويقول بطرس الرسول: «ظَهَرُوا نفوسكم في طاعة الحق بالروح للمحبة الأخوية العديمة الرياء. فاحبوا بعضكم بعضاً من قلب طاهر بشدة ... والنهاية كونوا جميعاً متحدى الرأي بحسّ واحد ذوى محبة أخوية مشفقين لطفاء، غير مجازين عن شر بشر أو عن شتيمة بشتيمة بل بالعكس مباركين عالمين أنكم لهذا دعيتم لكي تراثوا بركة ... ولكن قبل كل شيء لتكن محبتكم بعضكم لبعض شديدة لأن المحبة تستر كثرة من الخطايا» (١ بطرس ١ : ٢٢ : ٣، ٨ : ٤٤٩).

ويولس الرسول فيلسوف المسيحية يقارن بين العلم والمحبة فيقول: «العلم ينلخ ولكن المحبة تبنى» (١ كورنثوس ٨ : ١) ... ويجعلها أول ثمار الروح القدس في النفس المؤمنة «أما ثمر الروح فهو محبة فرح سلام طول أناة. لطف صلاح. إيمان وداعة تعفف» (غل ٥ : ٢٢). وفي مجال التعامل بين الأفراد ينصح أهل رومية قائلاً: «يحب علينا نحن الأقوياء أن نحتمل أضعاف الضعفاء ولا نرضى أنفسنا.

فليرضى كل واحد منا قريبه للخير لأجل البنيان . لأن المسيح أيضاً لم يُرض نفسه ، بل كما هو مكتوب تعبيرات معبريك وقعت على» (رو ١٥ : ١ ، ٢ ، ٣) .

المحبة الأخوية في حياة الكنيسة :

لا قيمة للوصية الإلهية دون تنفيذها عملياً . فالغرض من الوصية هو أنه بتنفيذها تصبح جزءاً معاشاً في حياة الإنسان... ويعبر الرسول بولس عن ذلك بقوله : «إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ، ولكن ليس لى محبة فقد صرت نحاساً يطنّ أو صنجاً يرنّ» (١ كو ١٣ : ١) ، أى أن مثل هذا الإنسان يصبح كالتبل الأجوّف... لا قيمة للمعرفة النظرية ، فإنها لا تقدم الإنسان فى حياته الروحية أو العملية قيد شعرة !! وحسناً قال رسول المحبة يوحنا : «يا أولادى لا نحب بالكلام ولا باللسان ، بل بالعمل والحق» (١ يو ٣ : ١٨) ... لا غرابة إذن إن رأينا الكنيسة فى حياة رسل المسيح - الذين تسلّموا منه تعليم المحبة الأخوية - أن ينفذوه عملياً فى حياة الكنيسة الأولى...

كان المجتمع المسيحى الأول ، معظم أعضائه من العناصر الفقيرة الكادحة . وكانت الكنيسة ترعى أعضائها الفقراء من الأرامل وأماثلن ، بتوزيع وجبة من الطعام عليهم يومياً . لذا فقد سميت هذه الخدمة ، خدمة الموائد (أع ٦ : ٢) ... بعد ذلك - حينما ازداد عدد المنضمين إلى الكنيسة الأولى - أقامت الكنيسة سبعة شمامسة كهنة مشولة عن خدمة الفقراء .

ويقدم لنا سفر أعمال الرسل برهاناً عملياً على إيمان أعضاء الكنيسة الأولى بالمحبة الأخوية . فيذكر لنا مَن باعوا حقولاً وبيوتاً ، وقدموا ائمانها للكنيسة لتوزيعها على المحتاجين ... ومنهم برنابا الرسول وحنانيا وسفيرة (أع ٤ : ٣٤ ، ٥ : ٢) ... كما يذكر اسم طابيثا التى اهتمت بالفقراء وعلى الأخص الأرامل (أع ٩ : ٣٦ - ٣٩) ... ولما اتسعت دائرة المؤمنين بدأ يظهر تنظيم مالى فى الكنيسة الأولى عناية بالفقراء وتنفيذاً لوصية المحبة الأخوية . ويعبر عن ذلك سفر أعمال الرسل بقوله : «لم يكن فيهم أحد محتاجاً» (أع ٤ : ٣٤) ... كان المؤمنون يعيشون فى حياة وصية المحبة الأخوية ، فوجدت الحياة المشتركة أو الحياة الاشتراكية كما

تسمى: «لم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له ، بل كان عندهم كل شيء مشتركاً» (أع ٤ : ٣٢) ... ونلاحظ على الاشتراكية المسيحية الأولى، انها مفهوم روحي بالدرجة الأولى نتيجة عمل النعمة في القلب ... لقد أصبح جميع المسيحيين أعضاء في جسد واحد رأسه المسيح، وكان لهم قلب واحد ونفس واحدة (أع ٤ : ٣٢ ؛ رو ١٢ : ٥ ؛ كو ١ : ١٨) ... فلا عجب إن كان لهم لاحساس الواحد بالآلام البعض واحتياجاتهم ... ولم تطلب الكنيسة من أعضائها أن يقدموا ، بل قدموا هم من تلقاء أنفسهم ، بل أكثر من هذا ، كانوا يلمسون من الكنيسة أن تقبل عطاياهم . هذا ما كشفه الرسول بولس بالنسبة للمكدونيين ... «لأنهم أعطوا حسب الطاقة ، أنا أشهد وفوق الطاقة من تلقاء أنفسهم . ملتصين منا بطبة كثيرة أن نقبل النعمة ، وشركة الخدمة التي للقيدين» . أما السر في ذلك ، فيكشفه الرسول في الآية التالية بعد الكلام السابق فيقول انه سبق وأعطوا أنفسهم أولاً للرب (٢ كو ٨ : ١ - ٥) ...

وبالإضافة إلى عناية الكنيسة بالمحتاجين من أعضائها ، فقد ظهرت المحبة الأخوية في ميادين أخرى كإعالة المعلمين والخدام وقد أوصى بها الآباء الرسل في تعاليمهم وقوانينهم ، ورعاية المرضى والمعزة والمقعدين وغير القادرين وذلك من خلال صلوات الكنيسة وزيارات الخدام . وهذا واضح مما جاء في رسالة كليمنطس إلى أهل كورنثوس وكتاب الراعي لهرماس . كما ظهرت في العناية بالمحبوسين . كان هناك محبسون لأجل إيمانهم ، وآخرون محبسون وفاء لديون عليهم . وكان يجب افتقاد النوعين بالصدقة والمحبة . وكان هذا يتم عن طريق شمامسة الكنيسة والمؤمنين العلمانيين ... ولعل هذا واضح فيما قاله الرسول بولس : «اذكروا المقيدون كأنكم مقيدون معهم ، والمذلين كأنكم أيضاً في الجسد» (عب ١٣ : ٣) ... وبداءة فقد كان هذا تعليم السيد المسيح «كنت محبوساً فأتيتم إليّ» ...

وقد كانت المحبة الأخوية تظهر كذلك في العناية بمن تحمل بهم الكوارث . وقد مُدحت الكنيسة منذ وقت مبكر لأنها وقفت بنبل إزاء الاضطهاد والكوارث التي حلت بها (انظر عب ١٠ : ٣٢ - ٣٤) ... كما ظهرت في ضيافة الغرباء . وقد اظهرت الكنيسة الأولى اهتمامها بهم (رو ١٢ : ١٣ ؛ ١ : ١٦ ، ١٢ ؛ عب ٦ : ١٠ ؛

١٣ : ١٢ : ١ بط ٤ : ٩ : ٣ يو ٥ - ٨) ... في رسائل ووثائق الكنيسة الأولى نجد صلوات وطلبات مقدمة من الكنيسة لأجل الغرباء والمعتنين بهم ... ولعل هذا واضحاً في القداس الباسيلي «بارك إكلييل السنة بصلاحك من أجل فقراء شعبك . من أجل الأرملة واليتيم والغريب والضعيف» ...

كما ظهرت المحبة الأخوية منذ الفترة المبكرة من تاريخ الكنيسة في العناية بالكنائس الفقيرة أو التي يحيق بها خطر . وهذا واضح في سفر أعمال الرسل ورسائل بولس الرسول . فقد كانت تجمع تقدمات لأجل فقراء أورشليم . وقد اهتم بولس نفسه بهذا الأمر ، وجمع من كنائس انطاكية وغلطية ومقدونية وإخائية لهذا الغرض (أع ١١ : ٢٧ - ٣٠ : ٢ كو ٨ : ١ - ٥ رو ١٥ : ٢٦ : ٢ غل ١٠ : ١) .

وثمة نقطة أخيرة في موضوع المحبة الأخوية في الفترة المبكرة من تاريخ الكنيسة فقد دعا المسيحيون بعضهم بعضاً أخوة وإخوات تأكيداً لهذه الحقيقة . كان لهم قلب واحد ونفس واحدة (أف ٤ : ١ : ٦) ، ويسلمون على بعضهم بعضاً بقبلة مقدسة (رو ١٦ : ١٦ : ١ كو ١٦ : ٢ : ١٣ : ١٢ : ١ تس ٥ : ٢٦ : ١ بط ٥ : ١٤) ... لقد كانت محبة المسيحيين بعضهم لبعض تثير دهشة اليهود فيقولون : «انظروا كيف يحبون بعضهم بعضاً» !! ... وحينما كان أى مسيحي غريب يصل إلى أية مدينة كان يُقبل فيها كأخ ويقدمون له المسكن . وكانت الأرمال التقيات يفسلن قدميه . وكان يعامل كل ما يدل على المحبة الأخوية ...

والموضوع عميق - لكن المجال لا يتسع للتوسع فيه ... يكفي أن نقول إن روح الأخوة حملت معها معنى المساواة ، فلا تفرقه عنصرية بسبب لون أو جنس أو وطن . الجميع يتجهون إلى إله واحد ، ويجلسون جنباً إلى جنب على موائد الأغابي ، ويقفون للصلاة في الكنيسة متجاورين سواء كانوا أحراراً أم عبيداً ... « ليس يهودى ولا يونانى . ليس عبد ولا حر . ليس ذكر وأنثى . لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع » (غل ٣ : ٢٨) .

وإذا انتقلنا من الفترة المبكرة من تاريخ الكنيسة إلى ما تلاها ، نجد نفس الروح الأخوية تسرى في حياة آباء الكنيسة وتعاليمهم ، بل براها واضحة كل الوضوح في المؤمنين العلمانيين ، وذلك من القصتين التاليتين ...

يذكر كتاب بستان الرهبان عن القديس مقاريوس الكبير أب رهبان الاسقيط (وادی النطرون) ، أنه في إحدى الفترات حُورب بأفكار العظمة انه صار أفضل أهل زمانه . و اراد الله محب البشر أن يُلقنه درساً . فأعلمه أنه لم يصل بعد إلى فضيلة امرأة في الاسكندرية تسكن مع نساء بنيتها . كما أعلمه أنه يستطيع أن يشاهد ذلك عياناً ... ولما سمع القديس ذلك اتقّد بنار الغيرة المقدسة ، إذ كيف وهو الرجل الناسك الذي هجر العالم وعاش في البرية ، لم يصل بعد إلى فضيلة امرأة متزوجة ومقيمة في العالم !! ... قام لوقته قاصداً الإسكندرية فوصلها صباح يوم الأحد . قصد الكنيسة ، وفي نهاية الصلاة تقدم كواحد من الشعب لنوال البركة من الأب البطريرك . فشاهد امرأة تخلّفت عن بقية النساء ، وكانت تصل بحرقه ودموع . فظن القديس أنها في شدة ، فأخذته الشفقة وأسرع نحوها لعله يستطيع مساعدتها . وفيما هو يسألها عن سبب حزنها ، أعلن له الروح أن هذه هي المرأة التي قصدها الله ... ولما سألها عن طريقة معيشتها ذكرت له ان لها ابنين متزوجين من غريبتين . وتعاهد الجميع أن يميشوا بحجة . وكانت هي لا تفضل واحدة من زوجتي ابنيها على الأخرى . وتعاهدن ألا تخرج من فم احدهن كلمة تثير خاطر الأخرى . وان لمن زماناً طويلاً عائشات بهذه الطريقة . وأن لولديها صندوقاً واحداً لرزقهما ، لا يعلمان قيمة الموجود فيه ، موضوع تحت عناية وتصرف هذه المرأة ... أما سبب صلاتها بدموع فظننها أن الله غير راض عن بنيتها لأن لها فترة طويلة بلا تجربة !! ... فانتفع القديس من كلامها وعلم قيمة المحبة الأخوية لدى الله ...

والقصة الثانية هي قصة إيمان الأنبا باخوميوس أب الشركة الرهبانية ، ذلك العملاق الذي بنى أول دير في العالم بصورة الأديرة الحالية ، والذي تتمذ له آلاف من الرهبان ، ووضع قوانين للرهبنة سار على منوالها رهبان العالم الغربي ... ولد الأنبا باخوميوس من أبوين وثنيين ونشأ وثنياً . وانخرط في سلك الجندية وهو في سن العشرين تنفيذاً لأوامر الامبراطور قسطنطين الكبير في الحرب التي أثارها عليه خصمه مكسيميانوس سنة ٣١٠ م . لكن هذه الحملة لم تستمر طويلاً لاندحار قوات مكسيميانوس وقتله . وعاد باخوميوس إلى الحياة المدنية ... وما يهمنا من قصة الحملة العسكرية انه تعرف خلالها على المسيحيين ودينهم . كانت الكتبية التي كان هو

ضمن أفرادها قد عسكرت عند مدينة اسنا . ورغم ان الجنود في ذلك الوقت كانوا مكروهين من سكان المدن والبلاد من أجل تصرفاتهم واعتداءاتهم على ما يملكه سكان تلك البلاد ، فقد خرج سكان مدينة اسنا إلى الجند يحملون إليهم الطعام ويقضون حوائجهم في دعة ودعائه ، استرعت انتباه باخوميوس . فتساءل ما الذى حدا بهؤلاء الناس إلى إبداء العطف عليهم . فقبل له انهم مسيحيون ينفذون وصايا دينهم . فما كاد يُسَرَّخ من الجندي حتى عكف على دراسة هذا الدين الجديد . وانتهى به الأمر إلى اعتناقه المسيحية سنة ٣١٤ . وبانضمام باخوميوس للمسيحية كسبت واحداً من أكبر زعمائها . ولم يقف الأمر عند حد إيمانه بالمسيح ، بل لقد قرر تكريس نفسه وترك العالم . وكانت هذه بداية الطريق الذى صار هو رائداً من أكبر رواده ...

مفهوم جديد يقدمه المسيح لمحبة الإنسان لأخيه الإنسان :

قال السيد المسيح لتلاميذه في تعليمه عن المحبة : « وصية جديدة أنا أعطيكُم ، أن تحبوا بعضكم بعضاً ، كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً » (يو ١٣ : ٣٤) ... ما معنى كلام المسيح هنا عن المحبة كوصية جديدة ؟ وهل المحبة وصية جديدة ، وقد سبق أن ذكرنا وجود هذه الوصية في العهد القديم ... فماذا يقصد المسيح ؟ يجيب عن ذلك القديس أغسطينوس فيقول :

[يعلن الرب يسوع انه يعطى لتلاميذه وصية جديدة ان يحب الواحد الآخر... لكن اَلَمْ تُفَقِّظْ هذه الوصية في ناموس الله القديم حيث هو مكتوب « تحب قريبك كنفسك » (لا ١٩ : ١٨) ... فلماذا إذن يدعوها الرب وصية جديدة إذا كانت هكذا قديمة ؟ ! لأنه نقلنا من القديم واليهنا الإنسان الجديد . فليس حقاً أن كل نوع من الحب يجدد من يستمع إليه أو يستم لمطاعته . بل ذاك الحب الذى أشار إليه الرب ، لكى يتميز من الحب الجسدانى . لذا فقد أضاف قائلاً : « كما أحببتكم أنا » ... فالأرواح والزوجات يحبون بعضهم بعضاً ، والوالدون أطفالهم ، وكل العلاقات الإنسانية الأخرى التى تربط الناس ببعضهم . فما بالكم بحب الزناة والزانيات ؟ ! ... من أجل هذا أعطانا المسيح وصية جديدة أن يحب الواحد الآخر كما أحبنا هو . هذا هو الحب الذى يجددنا ، جاعلاً منا أشخاصاً جدداً ، ورثة العهد الجديد ، مرتضى الترنيمة

الجديدة... هذا هو الحب الذى يُجَدِّد الآن الشعوب. ومن بين الجنس البشرى الذى ينتشر فى العالم كله، يعمل ويجمع شعباً جديداً، هو جسد العريس الحديث الزينة الذى للابن الوحيد ابن الله... من أجل هذا، فإن أعضاء هذا الجسد لهم اهتمام مشترك كل بالآخر. وإذا تألم عضو تألمت معه سائر الأعضاء، وإذا كُرم عضو، فإن كل الأعضاء تفرح معه (١ كو ١٢ : ٢٥، ٢٦)... ليس كما يحب الفاسدون بعضهم بعضاً، وليس كما يحب البشر بعضهم بعضاً بطريقة بشرية. لكنهم يحبون بعضهم بعضاً كأناس الله، وجميعهم بنو العلى، واخوة لابنه الوحيد... والإنسان الذى يحب قريبه بطريقة مقدسة روحية إنما يحب الله فيه. هذا هو الحب المميز عن الحب العالمى الذى ميزه الرب حينما أردف «كما أحببتكم أنا». لأنه ماذا أحب فينا غير الله [١٩].

وخلاصة هذا الكلام أن الحب الأخوى فى المسيحية ليس على غرار حب أهل العالم الجسدى. فالحب المسيحى بالدرجة الأولى فى كل صورته وأشكاله هو حب انسكب فى قلوب المؤمنين المسيحيين بالروح القدس المنسكب من فوق (رو ٥ : ٥)... إنه من نوعية الحب الذى أحبنا به المسيح... ذلك الحب الذى لا يفى شيئاً إلا الحب ذاته، ولا يقف عند حد. بل كما أحبنا المسيح إلى المنتهى هكذا الحب المسيحى. انه ليس حب نفعى. بل هو حب خالص فريد متميز «تحب قريبك كنفسك»!!

تعليم المسيح عمّن هو القريب :

قال الرب قديماً لشعبه بلسان موسى النبى : «لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك. بل تحب قريبك كنفسك» (لا ١٩ : ١٨)... وهكذا استقر فى أذهان بنى إسرائيل أن القرابة تقتصر على صلات الارتباط بحسب الجسد، سواء فى الأسرة الواحدة أو فى جماعة بنى إسرائيل كشعب انحدر عن أب واحد هو إبراهيم... كانت محبة القريب هى تلخيص اللوصايا التى جاءت فى اللوح الثانى للوصايا العشر... وهذا واضح من كلام الرسول بولس : «لا تكونوا مديونين لأحد بشئ إلا بأن يحب بعضكم بعضاً. لأن من أحب غيره فقد أكمل الناموس. لأن لا ترن، لا تقتل، لا

تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تشته . إن كانت وصية أخرى هي مجموعة في هذه الكلمة أن تحب قريبك كنفسك . المحبة لا تصنع شراً للقريب . فالمحبة هي تكميل الناموس » (رو ١٣ : ٨ - ١٠) .

ولكن السيد المسيح قدم مفهوماً جديداً للقريب ... فلم يتعد القريب هو أخ الإنسان في الأسرة الواحدة أو الشعب الواحد ، لكنه يتعداه إلى المفهوم الإنساني ... أى أن قريب الإنسان ، هو أى إنسان ، باعتبار أن البشر جميعاً انحدروا من أب واحد هو آدم ... يقول بولس الرسول إن الله «صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض» (أع ١٧ : ٢٦) ...

قدم السيد المسيح هذا المفهوم الجديد عن القريب في مثل السامري الصالح ...

تقدم ناموسى إلى السيد المسيح ، وسأله سؤالاً ليس يقصد الاستفادة بل يقصد تجربته . والسؤال كان : «يا معلم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية» . أجابه : «ما هو مكتوب في الناموس . كيف تقرأ . فأجاب وقال تحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل قدرتك ، ومن كل فكرك . وقريبك مثل نفسك . فقال له بالصواب أجبت . أفل هذا فتحياً» . لكنه لم يكتف بهذه الإجابة بل أراد أن يبرر نفسه ، فعاد وسأل الرب يسوع : «ومن هو قريبى» . أجاب يسوع وقدم مثلاً هو ما يعرف باسم السامري الصالح ، قال : «إنسان كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا فوقع بين لصوص فعزوه وجرحوه ومضوا وتركوه بين حى وميت . فعرض أن كاهناً نزل في تلك الطريق فرآه وجاز مقابله . وكذلك لاوى أيضاً إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله . ولكن سامرياً مسافراً جاء إليه ولما رآه تحن . فتقدم وضمد جراحاته ، وصب عليه زيتاً وخرأ وأركبه على دابته ، وأتى به إلى فندق واعتنى به . وفي الغد لما مضى أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق ، وقال له : اعتنِ به ومهما انفقت أكثر فعند رجوعى أوفيك . فأى هؤلاء الثلاثة ترى صار قريباً للذى وقع بين اللصوص . فقال الذى صنع معه الرحمة . فقال له يسوع اذهب أنت أيضاً واصنع هكذا» (لو ١٠ : ٢٥ - ٣٧) .

مثل السامري الصالح ملء بالتأملات العميقة النافعة ، ولكن ما يهمنا هنا هو

تعريف السيد المسيح للقريب... كان المفروض أن يحس اليهود أنهم جميعاً أخوة باعتبارهم من نسل إبراهيم، وكلهم يؤلفون شعب الله في ذلك الوقت... فماذا حدث بالنسبة لذلك الإنسان اليهودي الذي كان مسافراً من أورشليم إلى أريحا ووقع بين اللصوص واعتدوا عليه اعتداء مُبرحاً. مرّ به كاهن يهودي فنظر إليه وعاین حالته التي تدعو إلى الشفقة والمساعدة، لكنه اكتفى بالنظرة ومضى في حال سبيله. ومرّ به أيضاً لاوى وهو من طغمة خدام الدين. وما فعله الكاهن فعله اللاوى. وبمدهما مرّ به سامرى... كان هناك عداوة تقليدى بين اليهود والسامريين، حتى أن اقصى شتيمة كان اليهود يوجهونها إلى أحد كانت هى القول انه سامرى. وهذه الشتيمة وجهها اليهود للسيد المسيح في إحدى المرات، حينما قالوا له أليس حسناً أننا قلنا انك سامرى وبك شيطان (يو ٨ : ٤٨)... ومع كل ذلك فإن هذا السامرى ما أن رأى اليهودى المجرع والعريان حتى تحنن عليه وضمد جراحاته، وأركبه على دابته وحمه إلى فندق ليسترىح. وأعطى أجراً لصاحب الفندق، وطلب إليه أن يعتنى به، وسيدفع إليه كل ما ينفقه عليه مهما بلغ... كان المثل بليغاً وواضحاً. وحينئذ سأل السيد المسيح ذلك الناموسى : «أى هؤلاء الثلاثة ترى صار قريباً للذى وقع بين اللصوص» فأجاب بدون تردد : «الذى صنع معه الرحمة»...

المسيحية تعلّم وتنادى بالمحبة. وإن كان أساس المحبة فى الفرد والأسرة، لكنها لا تقف عند هذه الحدود. انها تشمل كل البشر وتضمهم بين ذراعى حنوّها... فبينما أقامت الروح القومية قديماً حواجز ضخمة بين الشعوب المختلفة (يهود وأمم، رومان ويونان وبرابرة... إلخ) حتى كانوا كالأغريباء بالنسبة لبعضهم البعض، إذ بالمسيحية تزيل هذه الحواجز جميعاً، وتعلّم أن الله «صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض» (أع ١٧ : ٢٦)...

وبتمجيد فكرة الإنسانية ووضعها فوق القومية، غيرت المسيحية بالتدريج وجه العالم القديم، وطمعت فكرة الوطنية الجامدة بمشاعر أنبل وأفكار أرحب... لقد تغلغلت المسيحية فى حياة الناس المدنية والاجتماعية بفضيلتها وأدبياتها، وقادتهم فى الطريق نحو التمدن الحقيقى... إن روح المسيحية روح مسكونية جامعة، تهدم فواصل البغضة والكراهية بين مختلف الأجناس والأمم

محبة الأعداء في تعليم المسيح :

استحدثت المسيحية تعليماً جديداً لم يرد في تعليم أى من الفلاسفة أو حكماء العالم... قال السيد المسيح في عظته على الجبل التى تتضمن تعاليم المسيحية لأدبية... «سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم: احبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، احسنوا إلى مبغضيك، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات. فإنه يشرق شمس على الأشرار والصالحين، ويطر على الأبرار والظالمين لأنه إن أحببتهم الذين يحبونكم فأى أجر لكم. أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك. وإن سلمتم على اخوتكم فقط فأى فضل تصنعون. أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا. فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل» (مت ٥ : ٤٣ - ٤٨).

لكن ما معنى قول المسيح : «سمعتم انه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك»؟... هل هذا هو ما علمت به شريعة العهد القديم؟

كان تعليم العهد القديم لأبنائه اليهود ألا يعادوا من يعاديهم معاداة شخصية، لأن الناموس أمرهم أن يحسنوا معاملة مثل هذا... يقول الرب : «إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شارداً ترده إليه. إذا رأيت حمار مبغضك واقفاً تحت حمله وعدلت عن حمله فلا بد أن تحل معه» (خر ٢٣ : ٤، ٥ - أنظر تث ٢٣ : ٧)... ويقول الحكيم : «لا تفرح بسقوط عدوك. ولا ينتهح قلبك إذا عثر» (أم ٢٤ : ١٧)... كما يقول : «إن جاع عدوك فاطعمه خبزاً، وإن عطش فاشقه ماءً. فإنك تجمع جراً على رأسه، ولرب يجازيك» (أم ٢٥ : ٢١، ٢٢). نفس هذا المعنى أورده القديس بولس رسول في (رو ١٢ : ٢٠)...

لكن كان عدو اليهود الحقيقي هو من يعادى الله ويتحداه، ومن ثم يعاديه الله، ويأمر شعبه كحكومته على الأرض أن يقضوا عليه بلا شفقة (تث ٢٣ : ٣ - ١٠ يش ٦ : ٢، ٢٠، ٢١)... لكن معلمى اليهود بعد انتهاء عهد الحكومات الإلهية، حولوا هذا الأمر إلى قانون للانتقامات الشخصية... وهذا ما أراده لمسيح بتعليمه، وما كان ينقضه.

ولا شك أن محبة الأعداء هي درجة من درجات السمو والكمال المسيحي الذى يجب أن نجاهد للوصول إليه ... وقد دعانا السيد المسيح فى نهاية تعليمه عن محبة الأعداء أن نكون أثناء حقيقين لله، متشبهين بأبنا السماوى الذى يشرق على الأبرار والأشرار. وختم تعليمه بقوله : « فكونوا أنتم كامدين، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » .

والحق ان الإنسان يحتاج إلى عمل نعمة الله فيه لإتمام هذه الوصية . هي ليست وصية مستحيلة ، بل وصية ممكنة عاشها القديسون وأظهروها فى حياتهم ... ولدينا أمثلة كثيرة على ذلك ...

فاستفانوس أول شهداء المسيحية - فيما كان أعداؤه يرمونه حتى الموت - كان يدعو ويقول : « يارب لا تثقم لهم هذه الخطية » (أع ٧ : ٦٠) ... وما أكثر ما أظهر الشهداء والمعترفون من حب حقيقى نحو معذبيهم ومضطهديهم ، ورفعوا صلوات من أجلهم جذبت بعضهم فيما بعد للإيمان . وفى نفس الوقت كانت محبة هؤلاء الشهداء والمعترفين لأعدائهم برهاناً صادقاً على سمو الديانة المسيحية وصاق تعاليمها ، وانها ليست تعاليم نظرية ... هذا الأمر دفع كثيرين من غير المؤمنين لإعلاء إيمانهم وما يتبعه من تحمل الآلام كثمن للإيمان الجديد ...

لكننا لا ننكر أن تنفيذ وصية محبة الأعداء ليست سهلة ، لكن تنفيذها يحتاج إلى عدة أمور :

أ - معونة من الله معطى هذه الوصية ، تنفيذاً لقوله : « بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً » والمعونة الإلهية توافينا بالصلوات والتضرع ... ولا شك أن الله فى هذه الحالة سيعيننا لأنه يعلم ضعف طبيعتنا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يعلم أننا نجاهد ضد طبيعتنا الجسدية التى تميل إلى الانتقام ، وإلى الاحساس بالدات ...

ب - الامتلاء من المحبة نحو الله فننفذ وصيته « إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى » ، ثم الامتلاء من المحبة الأخوية نحو من يُضمر أو يظهر لنا العداء ، والنظر إليه على انه إنسان مسكين خاطيء استحوذ الشيطان على أفكاره وسلبه محبته لله ولاخوته ...

جـ - الاتضاع الحقيقي ... وبعيننا في ذلك محاولة التشبه بسيدنا المسيح وتذكر قوله : « ليس التلميذ أفضل من المعلم ، ولا العبد أفضل من سيده ، يكفي التلميذ أن يكون كمعلمه والعبد كسيده » (مت ١٠ : ٢٤ ، ٢٥) ... وماذا فعل أعداء المسيح به ؟! لقد افتروا عليه وشتموه وأهانوه وهو الإله ، وظلت عداوتهم تزداد حتى بلغت الذروة حينما صلبوا رب المجد ... وإلى جانب ذلك نتذكر ماذا كان موقف المسيح منهم في أحلك الأوقات ، وهو معلق على الصليب اغفر لهم يا أبتاه لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون (لو ٢٣ : ٢٤) ... ربما قيل إن تسليم المسيح نفسه لأعدائه كان لوناً من الضعف ، لكن ماذا يمكن أن يقال في طلب المسيح المغفرة لصالحيه بعد أن صُلب وانتهى الأمر .

د - التفكر في أن مقابلة عداوة إنسان بعداوة مثلها ، أي مقابلة الشر بشر مثله ، من شأنه أن يزيد نار العداوة اشتعالاً ، الأمر الذي يكون له أسوأ العواقب على الإنسان روحياً وصحياً . ومن هذا نفهم حكمة الرسول في قوله : « لا يغلبك الشر ، بل اغلب الشر بالخير » (رو ١٢ : ٢١) . ومن الناحية المقابلة نقول إن مقابلة عداوة إنسان بحبة أو بإحسان من شأنه أن يزيل هذه العداوة ويستأصلها ... ذكر عن المعلم جرجس الجوهري أن إنساناً تعرض له وأهانته ، فذهب يشكو إلى أخيه المعلم إبراهيم الجوهري - وكان أكبر موظفي الدولة في عهد المماليك إبراهيم ومراد بك في أواخر القرن الثامن عشر . فقال المعلم إبراهيم لأخيه بعد أن استمع إليه ، سأقطع لسان هذا الإنسان الذي أهانك ، ثم استدعى خادمه وأمره أن يأخذ قمحاً وسمناً وجبناً وأشياء أخرى ويوصلها إلى منزل ذلك الشخص المعتدى ... وفي اليوم التالي مر المعلم جرجس كعادته ، وما أكثر دهشته حينما وجد نفس الإنسان الذي أهانته بالأمس يرحب به وييجله . فتعجب جداً وذهب يروي لأخيه المعلم إبراهيم عما فعله مع ذلك الرجل ، فروي له ما فعله وقال له لقد قطعت منه لسان الشر !!

سمات المحبة المسيحية في محبة الإنسان لأخيه الإنسان :

كانت كنيسة كورنثوس ببلاد اليونان في زمن الرسول بولس غنية بمواهبها

روحية. ولكن سرعان ما بدأ بعض أعضاء هذه الكنيسة الناشئة يتفاخرون بهذه المواهب، أو يسعون من أجل اقتنائها كشيء هام... كان هذا التفاخر ومجة اقتناء المواهب لذاتها من جانب هؤلاء الكورنثيين أمراً خاطئاً اهتم الرسول بولس أن يبيّنه فضّل رسالته الأولى التي كتبها إلى هذه الكنيسة ثلاثة اصحابات تكلم فيها عن المواهب الروحية أو مواهب النعمة كما تُسمى. وهذه الاصحابات هي الثانية عشر والثالث عشر والرابع عشر من هذه الرسالة. وفي نهاية الاصحاح الثاني عشر كتب إليهم الرسول يقول: «لكن جّدوا للمواهب الحسنى وأيضاً أريكم طريقاً أفضل» (١ كور ١٢: ٣١)... أما هذا الطريق الأفضل من المواهب فهو اقتناء المحبة، الذي تكلم عنه الرسول بالتفصيل في الاصحاح التالى الثالث عشر من رسالته هذه.

في هذا الاصحاح بعد أن عرض القديس بولس لأهمية المحبة كفضيلة المسيحية الأولى، وأبان أنها أهم من موهبة التكلم باللسنة، ومن النبوة التي تكشف الأسرار وتعلّم الإنسان ما لا يعلمه، ومن الإيمان الذي يقلّ الجبال، ومن الصدقة وانسك الشديد، بدأ يتكلم عن سمات المحبة المسيحية... والمحبة كما أوضحها بولس في هذا الاصحاح لها وجهان، أحدهما يهدم كل ركن من أركان الإثم والخطية وهو ما نسميه بالوجه السلبي، والآخر يبنى كل فضيلة في الإنسان المسيحى على اعتبار أن المحبة هي فضيلة كل فضيلة وهو ما نسميه بالوجه الإيجابى... ونعرض فيما يلى لكل من الوجهين...

أولاً - الوجه السلبي :

ونعنى به أثر المحبة في ملاشاة واختفاء كل ملامح الخطية في حياة الإنسان المؤمن...

+ المحبة لا تحسد :

الحسد احساس بالنقص ، والمحبة احساس بالملء . الحسد عين ناظرة إلى أسفل أما المحبة فعين ناظرة إلى فوق ، إلى السماء ، وهذا سر فيضها وشعبها ... يكفى لمعرفة كم أن الحسد شر ، أن اليهود أسلموا المسيح حسداً (مت ٢٧ : ١٨ ؛ مر ١٥ : ١٠) . وان اخوة يوسف الصديق باعوه كعبد للإسماعيليين حسداً ...

استطاع الراهب بنفوتوريوس أو بنوده تلميذ القديس مقاريوس الكبير أب رهبان الاسقيط ، أن يصعد مسرعاً في السلم الروحاني وهو بعد شاب الأمر الذي أهله فيما بعد إلى أن يخلف القديس مقاريوس في أن يكون أباً لرهبان الاسقيط ... دخل شيطان الحسد قلب أحد الرهبان الشيخ ، ودفعه الحسد الذي تمكك عليه أن يسىء إليه ... ففى أحد أيام الآحاد بينما ترك جميع الرهبان قلايهم ليذهبوا إلى الكنيسة ، تسلل ذلك الشيخ الحاسد إلى قلاية بنفوتوريوس ونحاً إنجيله وهوبين سعف النخيل الذى بالقلاية ، وأسرع بعدها إلى الكنيسة . وفي الكنيسة أعلن أمام الجميع أن انجيله قد سرق وهذا ما لا يصح في أماكن القديسين ... حزن الأنبا ايسيدوروس قس القلاي على حدوث مثل هذا الأمر المحزن ، وأمر بتفتيش جميع القلاي ... جلس الشيخ الحاسد شامتاً عالماً بما سيحدث ... ويحدث ما لا يتوقعه الاخوة يوجد الإنجيل في قلاية بنفوتوريوس ... وكان تصرفه الوحيد هو سكب الدموع وضرب المطانيات لكل الاخوة يسألهم الصلاة عنه ... تقبل الاتهام وهو برىء بالتسليم وضاعف صلاته وصومه وانسحاقه .

لم تكن هذه هي خاتمة القصة ... فقد صرع الراهب الحاسد روح شرير وبقي زماناً متألماً . وحله الاخوة للأنبا ايسيدوروس - وكان قد اعطى موهبة اخراج الشياطين - لكنه عجز عن اخراج هذا الشيطان . ولما سأل الأنبا ايسيدوروس ذلك الراهب الحاسد اعترف بخطيئته . وأراد الله أن يكرم بنفوتوريوس ، فلم يخرج الروح النجس إلا بصلاته ...

+ المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ :

الانتفاخ هو الكبرياء ، والتفاخر هو مظهر الانتفاخ وثمره ... المفتخر بنفسه ويعقدونه ومواهبه أو بشيء له هو إنسان فاته أن الله مصدر خيريه وكل ما هو حسن فيه ... أما المحبة فلأن مصدرها الله فهي تفتخر بالله المعطى كما يقول الرسول : «مَنْ افْتَخِرْ فَلْيَفْتَخِرْ بِالرَّبِّ» (٢ كو ١٠ : ١٧) . أما المنتفخ فهو إنسان ذاته كبيرة في نظره ، وهو بار في عينى نفسه ، وأحب مجد ذاته أكثر من مجد الله ... والحقيقة أنه إنسان لم يعرف حقيقة ذاته ، وأنه حفنة من تراب الأرض . وإن كل ما فيه من حسن هو من الله لأن « كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبى الأنوار » (يع ١ : ١٧) .

ذكر عن القديس العظيم الأنبا أرسانيوس المعروف باسم معلم أولاد الملوك لأنه كان يعلم اركاديوس وهونوريوس ابنى الملك ثيودوسيوس الصغير، ذكر عنه أنه شوهد مرة يجلس إلى شيخ راهب مصرى بسيط، يسمع إليه ويستفيد من نصائحه... رآه راهب وهو جالس يستمع إلى هذا الراهب البسيط فأبدى دهشته أن معلم أولاد الملوك يحاول أن يستفيد من مثل هذا الراهب . فقال الأنبا أرسانيوس لذلك الراهب انه اتقن العلوم اليونانية والرومانية، أما الفا قيطا في الروحيات التى اتقنها الراهب المصرى فهو يجهلها !!

+ المحبة لا تقبح :

تقبح أى تستهجن ، وتدين ، ويخرج ذلك الاستهجان إلى حيز التقبيح ... أما المحبة فلها العين البسيطة التى لا ترى إلا ما هو حسن . انها ترى الخالق في خلقته ، ولأنها طاهرة فترى كل ما يحيط بها طاهراً ... ذكر عن راهب قديس انه إذا دخل قلابة راهب ومجدها نظيفة ومرتبته يقول لا بد وأن أخى الراهب حياته مرتبة

كفلايته . وإذا دخل قلاية راهب آخر ووجدها غير مرتبة يقول في نفسه لا بد وانه مشغول بالعبادة عن أن يصرف وقتاً في ترتيب قلايته .

+ المحبة لا تطلب ما لنفسها :

مَن يطلب ما لنفسه أناى يعيش في دنيا ذاته ... وأما المحبة فهي العطاء والبدل . انها لا تطلب ما لنفسها لأنها تعيش من أجل الآخرين ...

حدث في زمان القديس مقاريوس الكبير أن الراهب المكلف بالزراعة شاهد عنقود عنب يظهر في غير أوانه . حمله إلى أبيه القديس مقاريوس ... لكن مقاريوس فكر في راهب مُسِنٍّ ومريض فحملة إليه لأنه أحس أنه بحاجة إليه . أخذه الشيخ لكنه فكر في راهب بسيط حديث الرهبة فحملة إليه قائلاً في نفسه انه لم يألف حياة التقشف . أخذه الراهب الصغير، لكنه لم يقربه وفكر في آخر أحس أنه أكثر احتياجاً . وظل عنقود العنب ينتقل من شخص إلى آخر حتى وصل إلى القديس مقاريوس ثانية . شكر القديس الله لأنه أوجد محبة في قلوب الاخوة ، ودق الناقوس واجتمع الاخوة يسمعون إلى رحلة عنقود العنب التى برهن فيها جميع الاخوة أن المحبة لا تطلب ما لنفسها ...

يذكر عن القديس الأنبا سراييون انه أثناء سيره في الطريق أبصر فقيراً عارياً من ثياب ويتلوى من البرد الشديد . فخلع القديس ثوبه وأعطاه لذلك المسكين . قابله أحد الأغنياء وسأله بدهشة : [مَن الذى عراك] . أجابه : [الإنجيل يا ولدى] . فما كان من ذلك الفنى إلا أن حلع ثوبه وأعطاه للقديس . ثم يعود سراييون يلتقى بآخر عليه دين ، والدائن ممسك به يعذبه ، يتألم القديس ، ماذا يمكن أن يفدى به هذا الرجل . لم يكن معه سوى الإنجيل الغالى الثمن في ذلك الوقت . . ولم يتردد في أن يبيع الإنجيل ويعطى ثمنه للدائن . واصل مسيرته بلا إنجيل وقابله مسكين آخر فخلع ثوبه وأعطاه له . وعاد إلى قلايته بلا ثوب ولا إنجيل . فلما رآه تلميذه بلا ثوب سأله

عنه فقال : [لقد قدمته يا ولدى أمامنا حيث نحتاجه] وأشار إلى السماء . ثم عاد وسأله عن الإنجيل الذى يتعزى بكلامه فقال له : [لقد كان كل يوم يقول لى بع كل ما لك وأعطه للفقراء وتعال اتبعنى] ...

+ المحبة لا تختد :

من يختد يسلم نفسه للغضب وضيق النفس ، أما المحبة فتوسع القلب .

+ المحبة لا تظن السوء :

من يظن السوء قلبه غير نقى ، وعينه غير بسيطة . أول ما ينطبع فى ذهنه هو الشر . أما المحبة فلأنها من الله ، فهى نظيره تعمل كل الأمور تعمل معاً للخير ، ولا تقبل إلا الحياة فى سلام ... وما أكثر الأبرياء الذين يظلمهم الناس بسبب سوء ظنهم .

قصص الأنبا دانيال - وهو أحد آباء الرهبنة الكبار - ديراً للعدارى كان يأخذ اعترافاتهن . وكان بهذا الدير عذراء دعوها الهييلة لأن تصرفاتها كانت تحكم عليها بذلك . وما أن دخل الأنبا دانيال للدير حتى اسرعت الأم الرئيسة وبقية العدارى لنوال بركته ما عدا هذه الهييلة . فاعتذرت الأم الرئيسة له وظهرت ضجرتها منها وقالت له : [مراراً كثيرة أردت أن اطرحها خارج باب الدير ، لكنى خشيت من الخطية] ...

تنهد الأنبا دانيال لأنه علم بالروح سر هذه الهييلة ... فقال لتلميذه اسهر معى الليلة لترى عجائب الله فى قديسه ... وفى الليل نهضت تلك الهييلة لتصل وتسكب الدموع ، وكان وجهها يضيء . كانت تصلى فى الخفاء ، فإذا احست بقدوم أحد تظاهرت بالنوم . أرسل الأنبا دانيال واستدعى الأم الرئيسة وعينت ذلك بنفسها

فبكتت نفسها قائلة : [الويل لى أنا الخاطئة فكم صنعت بها من الشتم والإهانة والتمييز] ...

انتشر الخبر بين عذارى الدير ، وما أن أحست الهيبة بأن أمرها انكشف حتى هربت من الدير وتركت ورقة كتبت فيها : [أهانتكن لى كانت ثمرة نفسى . بعدكن عنى واستقلالكن (احتقاركن) لى كان ربحى . فمباركة تلك الساعة التى قيل لى فيها يا هيبة . وانتن بريئات من الخطية من جهتى . وانى قد امكن أمام المنبر سوف أجاب عنكن لأجلى . ليس فيكن مستهزئة ، بل كلكن نقيات] ... وعندما قرأ الرسالة مع الأنبا دانيال قال لمن : [ما كان مبيتى أمس هنا إلا لهذا السبب] .

+ المحبة لا تفرح بالإثم :

قن بفرح بالإثم هو أنييم ويشتهى أن يسقط كل الناس كما سقط هو... أما المحبة فتقيم الساقطين ونحل المربوطين وتستريح على الأثمة ...

ذهب القديس بولس البسيط إلى الكنيسة يتأمل الاخوة الداخلين ، وكان قد اعطى نعمة نظر الخفيات ... كان يرى الملاك الحارس لكل أخ يتبعه مسروراً ، ما عدا أخ نظر ملاكه الحارس عابساً وشياطين كثيرة تُحيط به . وفهم أن هذا الأخ معذب من الخطية . بكى القديس بولس البسيط على هذا الأخ الذى دخل إلى الكنيسة . وفيها تحرك قلبه بالتوبة عند سماعه القراءات الكنسية وبالفعل قرر عدم العودة إلى الخطية ... وحال خروجه من الكنيسة رأى بولس البسيط الملاك الحارس لهذا الأخ مهتلاً ... لقد استجاب الله لدموع القديس بولس الذى احترق قلبه من أحل هذا الأخ .

+ المحبة لا تسقط أبداً :

الإنسان يسقط حينما يكون وحده ، وليس معه قن يسنده أو يقيمه حينما

يسقط. أما المحبة فالله يسندها، لذا فهي لا تسقط أبداً... المحبة الحقيقية التي تستند إلى محبة الله لا تسقط أبداً مهما قابلها ومهما احتملت من شدائد وضيقات... أما العاطفة الوقتية فسرعان ما تزول... ولدينا مثل في الإنجيل المقدس، ذلك الشاب الغنى الذى أظهر لهفة نحو الحياة الأبدية فركض نحو المخلص وسأله «أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية»... ولما قال له السيد: «يعوزك شيء واحد، اذهب بع كل مالك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعنى حاملاً الصليب»... لما سمع هذه الكلمات: «اغتم على القول ومضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة» (مر ١٠ : ١٧ - ٢٢)... مسكين ذلك الشاب الذى أظهر عاطفة في الأول، لكن سرعان ما سقطت محبته لأن شهوة محبته للمال كانت أقوى من محبته لله...

ثانياً - الوجه الإيجابي :

ونقصد به الصفات الإيجابية التي تتصف بها المحبة...

+ المحبة تتأني وترفق :

لا عجب أن يضع القديس بولس هاتين الصفتين المتكاملتين على رأس قائمة صفات المحبة الإيجابية مشيراً إلى جوهرها الإلهي. فالله بطبيعته طويل الأناة جداً. وهكذا ينبغي أن يكون أولاده. إن التأني هو الصفة المتعلقة بمعاملة الضعفاء والخطاة، وإذا توفرت للإنسان توفرت له عوامل النجاح في خدمته. والترفق صفة مكملة للتأني... يقول الآباء: [طول الروح هو فخر القديسين]. إن المحبة بطول أناتها وترفقتها تكسب النفوس.

ذكر عن القديس تادرس تلميذ الأنبا باخوميوس أب الشركة الرهبانية، انه

علم يوماً أن راهباً من رهبان الدير ينوى أن يترك الرهينة لتضايقه من الأب الكبير أنبا باخوميوس . فذهب إلى أنبا باخوميوس واتفق معه سراً بأنه سيحضر مع هذا الراهب ويتظاهر أمامه بشدة تضايقه منه ومن معاملته ويظهر بذلك متضامناً مع ذلك الراهب ... ذهب تادرس والراهب إلى أنبا باخوميوس ، وأمامه أخذ تادرس يكيل الاتهامات لأبيه باخوميوس . أما باخوميوس ففى وداعة أخذ يستمع فى صمت ، حتى أن الراهب الآخر خجل من موقف تادرس وكان يمنعه عن الاسترسال فى الكلام . وأخيراً صنع ذلك الراهب مطانية لأنبا باخوميوس وعاد إلى حياته الأولى كما كان .

+ المحبة تفرح بالحق :

إذا كانت المحبة لا تفرح بالإثم فبالتالى هى تفرح بالحق ... والحق هو الله نفسه «أنا هو الطريق والحق والحياة» . إن الحق لا ينفصل عن الله لأنه من صفاته ، بل هو الحق ذاته ... وحينما يظهر الحق فى قضية ما يكون الله قد ظهر أو أظهر ذاته . وحينما يسود الحق بين جماعة ، يكون الله وسط هذه الجماعة ... وإذا كنت إنسان الله - حتى لو كان الحق ضدى - لفرحت به ...

+ المحبة تحتل كل شيء :

هذه الصفة تؤقن للمحبة وصولها إلى غايتها ، وهى تفيد احتمال الاساءة إلى أقصى حدودها بدون أى رد فعل حتى لا تفقد النفس سلامها .

كان الأب جلاسيوس وهو أب لجماعة من الرهبان يقتنى انجيلاً ثميناً ووضعه فى كنيسة الدير لمنفعة بقية الرهبان ... حرك الشيطان أحد زوّار الدير لسرقة الإنجيل . وخرج مسرعاً من الدير ليبيعه . عرضه على أحد المهتمين بالكتب فعرض عليه أن يشتريه منه بثمانية عشر ديناراً . لكنه أجل دفع الثمن حتى ما يستشير إنساناً له دراية

بالكتب المقدسة ... عرض الإنجيل على الأب جلاسيوس الذى تعرف على انجيله في الحال . ورغم ذلك لم يظهر بل شجعه على شرائه بهذا الثمن ...

عاد الرجل إلى السارق وقال له انه عرض الإنجيل على الأب جلاسيوس وقد نصحه بشرائه . صُدِمَ السارق حينما سمع اسم الأب جلاسيوس ، واستعلم منه إن كان قد قال له شيئاً آخر... فلما نفى الرجل ذلك ، مضى للتو إلى الأب جلاسيوس ومعه الإنجيل دون أن يبيعه . وخرّ عند قدمى ذلك القديس معترفاً وتائباً ... ولم يكتفِ بذلك بل مكث بجوار الأب جلاسيوس ونذر حياته للرهبنة .

+ المحبة تصدق كل شيء :

حدث أن ضبعة قطعت الطريق إلى أحد الأديرة . فاستدعى رئيس الدير راهباً بسيطاً وأمره أن يذهب ويحضر هذه الضبعة . أطاع الراهب . ولما وصل إلى حيث كانت الضبعة خضعت تحت قدميه ، فقال لها إن معلمى أمرنى أن أحضرك . وبالفعل حملها إلى رئيس الدير... لكن رئيس الدير خاف على الراهب من المجد الباطل فأمره أن يطلق الضبعة قائلاً له : [لقد طلبت منك أن تحضر لى ضبعة فتضى وتأتينى بكلب] . وللوقت اطلقتها .

+ المحبة ترجو كل شيء :

المعلم فانوس هو أحد أراخنة الأقباط في عهد حكم المملوكين إبراهيم ومراد بك في النصف الثانى من القرن الثامن عشر . وفي ليلة عيد من الأعياد الكبيرة كان أحد جيران المعلم فانوس من الأقباط مقبوضاً عليه ظلماً . فذهبت زوجة ذلك الرجل وشكت إلى زوجة المعلم فانوس . فما كان منها مشاركة لها إلا أنها لم تظهر أى مظهر من مظاهر ليلة العيد . ولما عد زوجها المعلم فانوس وجد بيته مظلماً فأخذته

الدهشة . لكن زوجته قالت له كيف نحتفل بالعيد وأخوتنا فلان محبوس !! خرج لوقته المعلم فانوس وأخذ يتصل ببعض كبار الحكم حتى تمكن من الإفراج عن جاره ... كل ذلك استغرق جزء كبيراً من الليل فنام متأخراً .

كانت العادة أن يذهب الأراخنة إلى الأب البطريك لتهنئته بالعيد . وكان مرتب أن يمر المعلم فانوس على المعلم إبراهيم الجوهري ليذهباً سوياً للبطريك . لكن بسبب ظروف الليلة السابقة تأخر المعلم فانوس عن مواعده ، واعتذر للمعلم إبراهيم الجوهري ذاكراً له الأسباب . فلامه المعلم إبراهيم لأنه لم يشركه في نوال هذه البركة ... ذهباً إلى البطريك وعرضاً عليه الخلاف . فقال البطريك للمعلم إبراهيم الجوهري : [هو أطلقه من حبسه وأنت أوجد له عملاً] .

+ المحبة تصبر على كل شيء :

لا مفر من أن تصبر المحبة على كل ما يصادفها من ضيقات وشدائد وعقبات ... فالصبر هو الذى يوصل إلى المجد الأبدى « الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص . بصبركم تقتنون أنفسكم » ... والمحبة بطول اناتها قادرة على الصبر...

سكن أخوان البرية وعاشا معاً في محبة . فلما ضجر الشيطان من محبتهما - وهو عدو كل خير- عوّل على التفريق بينهما . ففى ذات مساء أوقد الأخ الأصفر السراج ووضعه في المكان المعتاد فأوقعه الشيطان فانطفأ ... احتد الأخ الأكبر على أخيه الأصفر وعنفه وضربه . أما الأصفر فكان مملوءاً محبة . صنع مطانية لأخيه معتذراً وقال له : [لا تفجع يا أخى . طول روحك على وأنا أوقد السراج ثانية] . ومن أجل صبر الأخ الصغير ومحبه عذب الرب الشيطان إلى الصباح .

ذهب الشيطان إلى رئيسه في هيكل للأوثان ليقص عليه ما حدث له . وكان هناك كاهن ذلك الهيكل الوثنى يستمع إلى حديث الشيطان الذى غدّب من أجل صبر

وحبة الأخ الصغير... اخذت الكاهن الدهشة من عظم هذه المحبة التي تغلب
الشر وتهزم الشيطان. فقرر أن يصير مسيحياً ويصبح راهباً. وبالفعل سلك هذا
الطريق ...



الإيمان بالله - فعاليته وثماره

- ما هو الإيمان ؟
- العقل والإيمان - الإيمان والأمور التي لا ترى .
- إيماننا المسيحى فى الله وهل يتضمن عقائد محددة ؟
- هل للإيمان درجات ؟
- علاقة الإيمان بالحياة الروحية .
- بعض ثمار الإيمان .
- مشجعات الإيمان ومعوقاته ..

الإيمان هو المدخل لعلاقة سليمة تقوم بين الإنسان والله ... فكما يقول الرسول بولس انه بدون إيمان لا يمكن إرضاء الله . لأنه يجب أن الذى يأتى إلى الله ، يؤمن بأنه موجود ، وانه يجازى الذين يطلبونه (عب ١١ : ٦) ... ويضيف نفس الرسول : « كل ما ليس من الإيمان فهو خطية » (رو ١٤ : ٢٣) ... وكون عدم الإيمان خطية ، فمعنى ذلك أنه لا يمكن أن تقوم علاقة بين الإنسان والله على أساس غير الإيمان ...

من هنا كان الإيمان شيئاً ثميناً جداً . هكذا يعزّ بطرس الرسول حينما يتوجه رسالته الثانية « إلى الذين نالوا معنا إيماناً ثميناً » (٢ بط ١ : ١) ... وبالحق فإنه لا يوجد ما هو أثمن من الإيمان ، لأن به تقترب إلى الله ، بل ونرتبط به « فإذا قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله ربنا يسوع المسيح ، الذى به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التى نحن فيها مقيمون » (رو ٥ : ١ ، ٢) ... وبه يسكن المسيح قلب الإنسان . هذا ما يقوله بولس الرسول صراحة إلى أهل أفسس : « ليحلّ المسيح بالإيمان في قلوبكم » (أف ٣ : ١٧) ... وهو الوسيلة التى ينجينا بها الأبرار « أما البار فبالإيمان يحيا » (عب ١٠ : ٣٨) ، فضلاً عن أنه احدى فضائل المسيحية الكبرى الإيمان والرجاء والمحبة (١ كو ١٣ : ١٣) .

ولا شك أن الإيمان يعتبر أعظم عطية وهبها الله للبشر مجاناً . فبه نحصل على الخلاص من عبودية الخطية والموت الأبدى ... يقول رب المجد يسوع : « من آمن واعتمد يخلص ، ومن لم يؤمن يُدان » (مر ١٦ : ١٦) ... وحينما سأل حافظ سجن مدينة فيلبس بولس وسيلا عما ينبغى أن يفعله لكى يخلص - وذلك بعد المعجزة التى حدثت بسبب وجودهما داخل السجن - كان جواب الرسولين : « آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص أنت وأهل بيتك » (أع ١٦ : ٣٠ ، ٣١) ... ويختم الرسول يوحنا إنجيله بقوله : « كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله . ولكى تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه » (يو ٢٠ : ٣١) ... وصدق القديس امبروسيوس إذ يقول : [الإيمان نهار دائم لا يعقبه ليل] .

ما هو الإيمان ؟

الإيمان هو حياة يحياها الإنسان « البار بالإيمان يحيا » ، وإلا صار إيماناً نظرياً يتلخص وينحصر في اعتناق عقائد معينة يرددها الإنسان كما في قانون الإيمان ... ولا فائدة للإيمان بالله بدون علاقة خاصة به ، تقودنا إلى محبته وطاقته ، ونزول إلى عشرة تبدأ هنا ونستكملها في الملوكوت الأبدى ... ولا فائدة للإيمان بحياة بعد الموت إن لم نعتد أنفسنا لها بالتوبة والمحبة والجهد . هذه هي حياة الإيمان . الإيمان العمل الذى يخلص النفس وتظهر ثماره في حياتنا ، وليس الإيمان النظرى الذى لا يخلص النفس بل يجلب عليها دينونة ...

الإيمان ليس بالادعاء أو الانتساب أو الوراثة ، كان يدعى الإيمان حاملاً اسم مؤمن ، أو ينحدر من أسرة مؤمنة تقية ... والإيمان ليس مجرد عقيدة نظرية بل هو حياة « من ثمارهم تعرفونهم » (مت ٧ : ١٦ - ٢٠) ... وهو يختبر بحياة الطاعة لله « بهذا نعرف أننا قد عرفناه إن حفظنا وصاياه . من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه فهو كاذب وليس الحق فيه » (١ يو ٢ : ٣ ، ٤) .

والإيمان بالله لا يتطلب معرفة لاهوتية ، لكنه يتطلب بالدرجة الأولى ثقة في الله وتصديقاً لأقواله ومواعيده ... ويقدم لنا القديس بولس في رسالته إلى العبرانيين والاصحاح الحادى عشر ، نماذج من رجال الإيمان الذين ليس بينهم فيلسوف أو لاهوتى واحد ... منهم أخنوخ الذى كل ما نعرفه عنه انه « سار مع الله » (تك ٥ : ٢٢ ، ٢٤) ، وانه « أرضى الله » (عب ١١ : ٥) ... ومنهم إبراهيم الذى « لما دعى أطاع ان يخرج إلى المكان الذى كان عتيداً أن يأخذه ميراثاً فخرج وهو لا يعلم إلى أين يذهب » ، وقدم ابنه إسحق الذى عنه قبل المواعيد « إذ حسب أن الله قادر على الإقامة من الأموات » (عب ١١ : ٨ ، ١٧ - ١٩) ... وسارة وضعت في قائمة أبطال الإيمان لأنها « حسبت الذى وعد صادقاً » (عب ١١ : ١١) .

يعترف القديس بولس الرسول الإيمان بأنه « الثقة بما يُرجى والإيقان بأُمور لا تُرى » (عب ١١ : ١) ... فالإيمان والحال هذه هو ثقة في الله وكلامه المقدس وإعلاناته . لذا فإن نفس الرسول بعد تعريفه للإيمان يقول : « بالإيمان نفهم أن العالمين

أثقت بكلمة الله» (عب ١١ : ٣). ولأن الإيمان هو ثقة مطلقة في الله وكلامه وإعلاناته، لذا «فكل ما ليس من الإيمان فهو خطية» (رو ١٤ : ٢٣). لأن عدم الإيمان يعنى انعدام الثقة في الله وكلامه المعلن...

العقل والإيمان :

إن الإيمان والخال هذه ليس مجرد شعور أو إحساس أو عاطفة . كما أنه ليس دعوة مبهمة نحو أمور غامضة ، أو ارغام للنفس للتسليم بغير المنظور، وما لا يُدرك بالحواس والإيمان ليس الغاء للعقل، بل هو تصديقه للحقائق الإيمانية بقبول ورضى ... لكن العقل لكى يتقبل الحقائق الإيمانية، ويذعن للإيمان بدون مقاومة أو فحص، يحتاج إلى اتضاع فكري من جانب الإنسان...

يقول القديس والفيلسوف المسيحي أغسطينوس :

[إن شئت أن تبلغ إلى سمو الله ، فابحث عنه أولاً في تواضعه . اتضع إن شئت فالتواضع مفيد لك، لأن الله قد اتضع من أجلك وليس من أجل ذاته . خذ المسيح المتواضع وتعلم منه الاتضاع . وحين تأخذ تواضعه ترتفع معه ... آمن بوصايا الله، واعمل بموجبها حتى ما يعطيك القدرة على الفهم . لا تعتد بعلمك ولا تفضله على وصية الله، لئلا تخسر قدرتك وتضعف ... المسيح يسكن بالإيمان في قلبك ... تذكر شهادة الرب يسوع : «احمدك أيها الآب رب السماء والأرض لأنك اخفيت هذه عن الحكماء والفهماء واعلنتها للأطفال» (مت ١١ : ٢٥) ... لقد اخفاها عن الحكماء والفهماء، ولم يكشفها للجهال والبلهاء، بل أعلنها للأطفال أى المتواضعين ... لا تطلب ما يرتفع في قلبك، بل اطلب ما يستحق قلبك أن يسمو إليه . إن تعلمت أن تفخر بالمصلوب أخذت المجد من الملك . كثيرون رأوا الهدف وما اكتشفوا السبيل إليه وهو التواضع ... لا تستكبر، فالإيمان نعمة من الله تعطى مجاناً، وليست أجراً على عمل، بل رحمة من قبل المعطي . إيمانك هبة من الله، وليس حقاً لك . اسمع قول الرب يسوع : « لا يقدر أحد أن يأتي إليّ إن لم يُنْظَ من أبى » (يو ٦ : ٦٥) ... آمن فأتى، وأحب فتدعى . هلم إلى المسيح ولا تخف من طول الطريق . آمن وتعال] .

وحيثما يظهر العقل الخضوع ، ويقدم التسليم الكامل للحقائق التى يعلن عنها الإيمان ، ففى هذه الطاعة المحبوبة ، التى تتولد عن الانضاع ، يكشف الروح القدس للعقل كل ما يتعلق بهذه الحقائق الإيمانية «الروح القدس ... يعلمكم كل شيء» (يو ١٤ : ٢٦) ... يقود الروح القدس العقل فى ضوء المعرفة الروحانية الجديدة حتى يوصله إلى الحق ... قال السيد المسيح لمرثا أخت لعازر: «ألم أقل لك إن آمنتِ تريّن مجد الله» (يو ١١ : ٤٠) .

بعد ذلك يأتى دور العقل . فبعد أن يقبل الحقائق الإيمانية بخضوع وتسليم ويستنير بالمعرفة الروحانية ، يستطيع أن يفحص الحقائق الإيمانية . والفحص العقلى فى هذه المرحلة يزيد هذه الحقائق الإيمانية وضوحاً .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه الحقائق الإيمانية التى يُسلم بها العقل بادية ذى بدء هى أمور أعلنها الله . ولا أحد سواه يستطيع أن يكشفها أو يعلن عنها ... فهى أمور فائقة لطبيعتنا البشرية ، لأنها تختص بغير المنظور وما وراء الطبيعة ... ولا يمكن للإنسان أن يصل إلى معرفتها المعرفة اليقينية بواسطة فكره وحواسه ... يقول القديس بولس : «لأن من من الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذى فيه . هكذا أيضاً أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله . ونحن لم نأخذ روح العالم بل الروح الذى من الله لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله . التى نتكلم بها أيضاً لا بأقوال تعلمها حكمة إنسانية ، بل بما يعلمه الروح القدس ... ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه ، فأعنه الله لنا نحن بروحه . لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله» (١ كو ٢ : ١١ - ١٣ ، ٩ ، ١٠) .

وعن العلاقة بين العقل والإيمان يقول القديس والفيلسوف أغسطينوس :

[آمن تصبح أهلاً لأن تفهم . على الإيمان أن يسبق الإدراك ، ليكون الإدراك جزاء الإيمان ... من اللازم أن تؤمن بما تُبشّر به ببساطة ، لأن غاية العقل أن يناقش بدقة . بالإيمان تتحد ، وبالعقل تحيا . يجب عليك قبل كل شيء أن تتحد بواسطة الإيمان لتحيا بواسطة العقل . إن لم تتحد تقاوم . وإن كنت تقاوم فلست مؤمناً . وإن كنت تقاوم فكيف تحيا . إنك تجعل نفسك

عدواً لشعاع النور الداخل فيك ... يقول واحد أريد أن أفهم . من الواجب على أن أفهم حتى أؤمن . فأجيب آمن تفهم . الإيمان مرفاة ، عليها تبلغ الفهم . والفهم جزاء الإيمان ... اعطاك الله عينين جسديتين وعقلاً باطنياً . ايقظ عقل قلبك ، وارفع الساكن في عينيك الباطنيتين ، ليفتح نوافذه ويتأمل في خليقة الله ... آمن بما لم ترَ من أجل الأشياء التي تراها ... الإيمان يدرك ما لا يدركه العقل البشري . وحيث يعجز العقل ينجح الإيمان . وحيث يعجز العقل ينمو الإيمان] .

نخلص من هذا كله إلى أن للعقل تقديره ، وبه ميز الله الإنسان عن الحيوان . ومع ذلك فالعقل له حدود ، ولا يرتقى فوق ما ينبغي أن يرتقى (رو ١٢ : ٣) . والأمور التي هي فوق ادراكه يجب أن يُسلم قيادته للإيمان ... فالعقل قد يوصلك إلى بداية الطريق ، لكن الإيمان هو الذي يكتمل معك الطريق كله إلى الله . وعلى ذلك فالإيمان لا يتعارض مع العقل لكنه يتجاوزه إلى مراحل أبعد بما لا يقاس ، ولا يستطيع العقل بمفرده أن يصل إليها ...

الإيمان والأمور التي لا ترى :

في تعريفه للإيمان يقول بولس الرسول عنه انه : « الثقة بما يُرجى ، والإيقان بأمور لا تُرى » (عب ١١ : ١) .. وكلمة الإيقان من اليقين ويفيد التأكيد الشديد الذي لا يأتيه الشك ... وفي هذه المناسبة نقول ان ثمة فارق بين رجال الإيمان ورجال البحث العلمي ... رجال الإيمان يصدقون ما لا يرى ويشقون فيه ، أما رجال البحث العلمي فإنهم يريدون أن يخضعوا كل شيء لما تقبله عقولهم ... هنا نتذكر كلمات السيد المسيح لتوما بعد أن لحقه الشك عقب قيامته المجيدة : « لأنك رأيتني يا توما آمنت ، طوبى للذين آمنوا ولم يروا » (يو ٢٠ : ٢٩) ... لكن ما هي الأمور التي لا ترى التي يشير إليها بولس الرسول في تفسيره للإيمان .. ؟

من الأمور التي لا ترى الله وصفاته « الله لم يره أحد قط » (يو ١ : ١٨) ... وحينما يقول داود مثلاً : « تقدمت فرأيت الرب أمامي في كل حين » ، فبلا شك ان الرؤية تمت بعين الإيمان . ومن الأمور التي لا ترى مواعيد الله . فرجال الإيمان « لم

ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها» (عب ١١ : ١٣) ... ومن الأمور التي لا ترى انذارات الله بأمور ستحدث ، كما في حالة الطوفان وحريق سدوم وعمورة ...

ومن الأمور التي لا ترى بركات الله ونعمته في داخل الإنسان ، كأن يصبح هيكلًا لله (١ كو ٣ : ١٦ ، ١٧ : ١٩) ... ومن الأمور التي لا ترى الخلائق العلوية ، على نحو ما حدث في حرب ملك آرام مع إسرائيل زمن الإشع النبي . فقد رأى جيحزي تلميذه جيشاً يحيط المدينة وخيلاً ومركبات . لكن حينما صلى الإشع إلى الله ليفتح عينى جيحزي ، فقد رأى الجبل مملوءاً خيلاً ومركبات . نار حوله « (٢ مل ٦) . ومن الأمور التي لا ترى كل ما يتعلق بالعالم الآخر وما ينتظر المؤمنين من مجد ، والأشوار من ويلات ... ومن الأمور التي لا ترى عمل الروح القدس في أسرار الكنيسة ... إلخ .

إيماننا المسيحي في الله :

الله في إيمان المسيحيين ليس مجرد قوة عليا خفية غير منظورة تدبر الكون وتدبر حياة البشر وحسب ... لكن المسيحيين يؤمنون بإله واحد مثلث الأقانيم الآب والابن والروح القدس . ويؤمنون ان ابن الله ، الأقنوم الثاني في الذات الإلهية ، في ملء الزمان تجسد وتأنس ، أى أخذ جسداً من العذراء الطاهرة مريم وصار إنساناً كاملاً ، بعد أن جعل هذا الجسد الذى أخذه من أحشاء البتول مريم واحداً مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ... وهكذا فإن الله الذى لم يكن منظوراً في العهد القديم ، صار منظوراً في المسيح في العهد الجديد «الكلمة صار (اتخذ) جسداً وحل بيننا ورأينا مجده مجدداً كما لوحيده من الآب مملوءة نعمة وحقاً» (يو ١ : ١٤) .

ولا تعارض بين هذا الكلام وما قاله الله لموسى النبي قديماً حينما طلب أن يرى مجده «لا تقدر أن ترى وجهي . لأن الإنسان لا يراني ويعيش» (خر ٣٣ : ١٨ ، ٢٠) ... بل إن يوحنا الإنجيلي الذى استفتح بشارته بالكلام عن أزلية ابن الله وتجسده ، قد أكد على ذلك بقوله : «الله لم يره أحد قط» (يو ١ : ١٨) ...

لكن الأمر في غاية البساطة ... فالمقصود هنا بعدم امكانية رؤية الله ، عدم امكانية رؤية الإنسان للاهوت . وهذا صحيح . لذا حينما اراد ابن الله الكلمة الأقنوم الثانى ، أن يتم عمل الفداء للبشر ، اتخذ جسداً اخفى به لاهوته ، وقيل فيه الآلام نيابة عن البشر...

هذه عقيدة أساسية في الإيمان المسيحى ، بها يرتبط خلاصنا وغفران خطايانا ، واستحقاقنا للحياة الأبدية في السماء ، ومفاعيل النعمة الإلهية بعمل الروح القدس الذى نقل وينقل للبشر بركات الخلاص من خلال أسرار الكنيسة المقدسة ...

ويعلق المسيحيون أهمية عظيمة على عقيدة التجسد وإيمانهم به وبركاته ... فيه (التجسد) تباركت طبيعتنا البشرية ، وصرنا شركاء الطبيعة الإلهية (٢ بط ١ : ٤) . بل إن الكنيسة المسيحية مؤسسة على صخرة الإيمان أن المسيح هو ابن الله الحى (مت ١٦ : ١٨) .

فالإيمان المسيحى هو إيمان بالتجسد والفداء والبركات التى نتجت عنهما ... «مَن آمَن واعتمد بخلص» (مر ١٦ : ١٦) ... «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد ، لكي لا يهلك كل مَن يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣ : ١٦) ... «الذى يؤمن به (المسيح) لا يدان . والذى لا يؤمن به قد دين» (يو ٣ : ١٨) ... وويخ السيد المسيح اليهود قائلاً : «إن لم تؤمنوا انى أنا هو تموتون في خطاياكم» (يو ٨ : ٢٤) ... المسيح في عقيدة المسيحيين هو المخلص ، لذا فالإيمان به وبعمله الفدائى هو الذى يخلص ... قال بولس وسيلا لحافظ السجن في مدينة فيلبى حيث كانا مسجونين : «آمَن بالرب يسوع فتخلص أنت وأهل بيتك» (أع ١٦ : ٣١) ... ومن أجل الإيمان بيسوع المسيح المخلص كُتبت الأناجيل وكرُز بها ، وكتبت رسائل الرسل ... يقول يوحنا في خاتمة إنجيله : «أما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ، ولكى تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (يو ٢٠ : ٣١) .

هل يتضمن الإيمان المسيحي عقائد محدّدة ؟

نتساءل ، هل الإيمان المسيحي مجرد إيمان ساذج بشخص الرب يسوع المسيح وخلاصه ، قوامه حياة التعبّد والتقوى الخالصة ، ولا شيء غير ذلك ؟ والا توجد عقائد إيمانية محدّدة في نطاق هذا الإيمان المسيحي ؟

الحق ان القول بعدم وجود عقائد محدّدة في نطاق الإيمان المسيحي فهم خاطيء للمسيحية الأصيلة وإيمانها المسلّم مرة واحدة للقديسين (يه ٣) ... فالكنيسة منذ البداية - منذ عصر رسل المسيح - كانت لها - إلى جانب الإيمان المسيحي العام - عقائد إيمانية أساسية محدّدة ، صاغتها في قانون إيمان عُرف باسم قانون إيمان الرسل ، حفظه كل راغب في نوال سرّ العمد المقدس ، وكان يعلنه لحظة عماده ، متمهّداً التمسك به ... ولما ظهرت البدع والهرطقات في عصور لاحقة ، صاغت الكنيسة في مجامع مسكونية قانون الإيمان الذي يؤمن به كل مسيحي ، والذي مازلنا نردده حتى الآن ، ونعلن به عن حقيقة إيماننا ...

يقول أحد أساتذة اللاهوت غير الأرثوذكسي : [إن تصوير المسيحية الأولى على أنها مجرد طريق للحياة بدون عقيدة لاهوتية - على نحو ما تصوّرها العظة على الجبل ، ولا شيء غير ذلك - أمر ليس فيه انصاف ، ولا تؤيده الأسانيد التاريخية . لقد وُجد منذ البداية إيمان عام واحد ، كثيراً ما أشار إليه العهد الجديد تحت اسم «التقليد» (١ كو ١١ : ٢) ، «صورة التعليم التي تسلّمتموها» (رو ٦ : ١٧) «تعليم الرسل» (أع ٢ : ٤٢) ، «صورة الكلام الصحيح» (٢ تي ١ : ١٣) ، «الإيمان المسلّم مرة للقديسين» (يه ٣) .]

وقد دافع رسل المسيح عن هذه العقائد المسيحية في نطاق الإيمان الواحد ، وحاربوا الخارجين عنها ، الذين وصّفوا بأنهم «يدتّون بدع هلاك» (٢ بط ٢ : ١) . بل أمر يوحنا الرسول المؤمنين بمقاطعتهم تماماً حتى لا يصيروا شركاء في أعمالهم الشريرة (٢ يو ١٠ ، ١١) .

الإيمان العامل بالمحبة :

هناك نوعان من الإيمان : الأول إيمان عقل نظرى يشترك فيه ملايين الناس ، بل وحتى الشياطين يشتركون معهم فيه ... يقول يعقوب الرسول : «أنت تؤمن أن الله واحد ، حسناً تفعل . الشياطين يؤمنون ويقشعرون» (يع ٢ : ١٩) . هذا الصنف من الإيمان هو ما يصفه هذا الرسول بأنه : «ميت فى ذاته» (يع ٢ : ١٧) ... والنوع الثانى إيمان عمل ، وهو ثمين ونادر . عن هذا النوع قال السيد المسيح : «الحق أقول لكم ، لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل ، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ، ولا يكون شىء غير ممكن لديكم» (مت ١٧ : ٢٠) . وعنه كتب الرسول بولس إلى أهل غلاطية : «لأن فى المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً ولا الفرة ، بل الإيمان العامل بالمحبة» (غل ٥ : ٦) ... والمعنى الحرفى الدقيق «للإيمان العامل بالمحبة» انه هو الإيمان الذى يعبر عن ذاته بالمحبة ، أو الذى يعمل من خلال المحبة ... لأن الإيمان إن لم يعبر عن ذاته ووجوده فى الإنسان صار إيماناً نظرياً لا قيمة له . وبتعبير آخر هو إيمان ميت ...

فالمؤمن الحقيقى سلوكه فى توافق تام مع إيمانه . وليس فى تصرفه تناقض البتة مع عقيدته . كما يكثر من أعمال المحبة لأن إيمانه حى ... فالإيمان الحى هو إيمان عامل ... وأما الإيمان الذى لا يعمل فهو إيمان ميت لا قيمة له «الإيمان بدون أعمال ميت» (يع ٢ : ٢٠) وفى كل مرة يذكر الكتاب المقدس الإيمان ، إنما يعنى الإيمان العامل بالمحبة ...

وموضوع لزوم الأعمال الصالحة لخلاص الإنسان مع الإيمان هو مثار جدل عقيدى ، لكننا لن نتعرض لهذا الجدل هنا ... لكن نقول ببساطة إن الأعمال الصالحة هى بمثابة ثمار للإيمان الحى ، والشجرة تُعرف من ثمارها . وكل شجرة لا تصنع ثمرأ جيداً تقطع وتلقى فى النار هكذا قال رب المجد فى عظته الخالدة على الجبل (مت ٧ : ١٩) ... ويعقوب الرسول يتساءل : «ما المنفعة يا אחوتى إن قال أحد إن له إيماناً ، ولكن ليس له أعمال . هل يقدر الإيمان أن يخلصه» (يع ٢ : ١٤) . ويستطرد الرسول قائلاً : «ترونها إذاً انه بالأعمال يتبرر الإنسان لا بالإيمان وحده» (يع ٢ : ٢٤) ...

يقول رب المجد : « إن ابن الإنسان سوف يأتى فى مجد أبهى مع ملائكته ، وحينئذ يجازى كل واحد حسب أعماله » (مت ١٦ : ٢٧) ... كما يقول : « تأتى ساعة فيها يسمع جميع الذين فى القبور صوته . فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة » (يو ٥ : ٢٨ ، ٢٩) ... والقديس بولس يتكلم عن الله الذى « سيجازى كل واحد حسب أعماله » (رو ٢ : ٦) ... كما يقول : « لأننا نحن عمله مخلوقين فى المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لكى نسلك فيها » (أف ٢ : ١٠) ... ويختتم رب المجد يسوع المسيح على كتاب العهد الجديد فى الرؤيا التى أعلنت ليوحنا ويقول : « ها أنا آتى سريعاً وجزائى معى لأجازى كل واحد كما يكون عمله » (رؤ ٢٢ : ١٢) .

هل للإيمان درجات ؟

يقول القديس بولس الرسول : « فإنى أقول بالنعمة المعطاة لى لكل من هو بينكم أن لا يرتى فوق ما ينبى أن يرتى ، بل يرتى إلى التعقل كما قسم الله لكل واحد مقداراً من الإيمان » (رو ١٢ : ٣) . لعل هذا النص يوضح أن الإيمان يتفاوت من إنسان إلى آخر . وأن الأمر ليس كما يصوره البعض حينما ينسبون عدم الإيمان إلى ضعف الإيمان . أو يقولون إن هذا مؤمن وذلك غير مؤمن !!

فالرسول بولس فى معرض حديثه عن الأسقف يشير إلى حداثة الإيمان ، فيشترط فيمن يختار لدرجة الأسقفية ألا يكون « حديث الإيمان » (١ نى ٣ : ٦) ... والمسيح له المجد أشار إلى ضعف الإيمان أو قليل الإيمان . ففيما يتكلم عن طيور السماء التى لا تزرع ولا تحصد وكيف أن الله يعتنى بها ورنابق الحقل وكيف يكسوها الله جمالاً قال : « أفليس بالحرى جداً يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان » (مت ٦ : ٣٠) . ووبخ بطرس حينما لحقه الشك وهو يمشى على الماء بناء على أمر السيد بقوله : « يا قليل الإيمان لماذا شككت » (مت ١٤ : ٣١) ... كما وبنخ التلاميذ فى السفينة لما خافوا من الأمواج بقوله لهم : « ها بالكم خائفين يا قليلي الإيمان » ... وهنا نلاحظ أن الخوف والشك من مظاهر قلة الإيمان .

ويشير بولس الرسول إلى نوع رابع يسميه « ضعيف الإيمان » (رو ١٤ : ١)

وذلك في معرض حديثه عمن يعثر من أكل ما يذبح للأوثان .

وهناك عينة من الناس إيمانهم غير مطلق أى محدود ... ومن أمثلة ذلك مريم ومرثا اللتان كانتا تؤمنان أن المسيح يقدر أن يشفى فقط ، هذا أقصى ما وصل إليه إيمانهما « يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخى » (يو ١١ : ٢١ ، ٣٢) .

وهناك عينة أخرى إيمانها بطيء نتيجة عدم الفهم والمعرفة . ومن أمثلته تلميذا عمواس اللذان قال لهما المسيح : « أيها العريان والبطيخا القلوب في الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء » (لو ٢٤ : ٢٥) .

وثمة عينة أخرى من الناس إيمانهم في حالة نمو . فيكتب بولس الرسول إلى أهل تسالونيكي شاكرًا الله من جهتهم لأن إيمانهم ينمو كثيراً (٢ تس ١ : ٣) ... ويكتب لأهل كورنثوس يصفهم بأنهم يزدادون في كل شيء في الإيمان والكلام والعلم وكل اجتهاد (٢ كو ٨ : ٧) .

وهناك عينة أخرى من الناس يوصفون بأنهم مملوون من الإيمان كاستفانوس (أع ٦ : ٥ ، ٨) .

وأخيراً فهناك ذوو الإيمان الميت كما يصفهم يعقوب الرسول (يع ٢ : ١٧) ... ومن يرتدون عن الإيمان كلية ... لكن الروح يقول صريحاً انه « في الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان تابعين أرواحاً مضلة وتعاليم شياطين » (١ تي ٤ : ١) ...

علاقة الإيمان بالحياة الروحية :

ولأن الإيمان المسيحي مفروض فيه أن يكون إيماناً عاملاً بالمحبة ، فلا بد وأن يكون وثيق الصلة بحياة الإنسان الروحية ، أو كما يدعو القديس أغسطينوس : [رأس الحياة الصالحة] ... يقول أحد الآباء : [إنى أعتقد أن لا شيء يُنمى روحنا بقوة وسرعة ، أكثر من الإيمان وحده . ولا أقصد بالإيمان ، الإيمان النظري بوجود الله ، بل الإيمان الحى القائم في الداخل ... ذلك الإيمان الذى يجعل النفس قادرة أن تؤمن ، وتشهد بإمكان اكتسابها في هذا الدهر حالة القديسين المغبوة] ...

في الإيمان الحقيقي يكون الإنسان خاضعاً لإيمانه ، لا الإيمان خاضعاً للإنسان ،

يتغير تبعاً لأهوائه وحالاته النفسية وأفكاره... إلخ. وعندما يخضع للإيمان، يعمل على تطهيرنا تدريجياً. فنحن بالإيمان نتغير وننمو، بل بالإيمان نتجاوز أنفسنا... ونقدم بعض الأمثلة على ذلك:

أ - الإيمان يؤثر على وعي الإنسان وإرادته... فالأهواء والشهوات تستعبد الإنسان. ومن يخضع لها يصبح بصورة ما غير خاضع للعقل، بل يأتي أفعالاً لا عقلانية... له عقل ولكنه يجعله في خدمة أهوائه، إذ تستعبد الأهواء العقل فيعمل ويفكر في خدمتها... وهنا فإن العقل يبرر الأهواء المنحرفة أو كما يقال: «العقل خادِم أمين للنفس» ويُقصد بالنفس شهواتها وميوها المنحرفة...

أما الإيمان فهو يثبت العقل، وبلقى فيه بذار زرع مقدس جديد، به يقاوم الإنسان تجربة إشباع الأهواء واخضاع كل شيء لها... وبالجملة فإن الإيمان يرفق الإرادة ويسمو بها... يقول القديس أغسطينوس: [لن نحيا حياة صالحة إلا إذا بدأت تؤمن. ومتى رَغَيْثُ الإيمان زِيدَ لك الباقي... إن كل عمل مستقيم يأتيه إنسان لا يمكن أن يكون مستقيماً إذا لم يرتبط بتقوى الله. وإذا لم يكن الإيمان سابقاً، فلا صلاح في الحياة... اسمع الرسول «بدون إيمان لا يمكن إرضاء الله» (عب ١١: ٦)... إن لم يستقم إيمانك فلست باراً، لأن البار بالإيمان يحيا]...

ب - والإيمان وثيق الصلة بالصلاة... يقول القديس أغسطينوس عن علاقة الإيمان بالصلاة: [إن لم يكن فيك إيمان، فلا مجال للصلاة. إذ كيف تصلّي لَمَنْ لا تؤمن به. الإيمان هو ينبوع الصلاة. ويظهر الرسول أن الإيمان هو ينبوع الصلاة بقوله: «كيف يدعون بَمَنْ لم يؤمنوا به» (رو ١٠: ١٤). والنتيجة: آمن لكي تصلّي، وصلّ حفاظاً على إيمانك الذي به تصلّي، الإيمان يفيض صلاة. والصلاة المُفاضة تقوى الإيمان]... إذا كان هذا الكلام عن الصلاة بوجه عام، فإن الإيمان وثيق الصلة بالصلاة المقتدرة المقبولة... يقول رب المجد: «كل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تناولون» (مت ٢١: ٢٢)... «لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون، فآمنوا أن تناولوه فيكون لكم» (مر ١١: ٢٤)، ولذا يقول يعقوب الرسول: «صلاة الإيمان تشفى المريض والرب يقيمه» (يع ٥: ١٥).

ج - والإيمان يولّد فينا الصبر ... وما يناله الإنسان بالصبر لا يستطيع أن يناله بوسيلة أخرى. يقول يعقوب الرسول: «احسبوه كل فرح يا اخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة. عالمين أن امتحان إيمانكم ينشئ صبراً. وأما الصبر فيمكن له عمل تام. لكي تكونوا تامين وكاملين غير ناقصين في شيء» (يع ١ : ٢-٤).

د - والإيمان يمنحنا قوة زمن التجارب والشدائد ... بقدر ما يضعف إيماننا بقدر ما تقوى علينا التجربة. وبقدر ما يكون إيماننا ثابتاً ووطيداً بقدر ما نقاوم التجربة وننتصر عليها... الإيمان النقي يحيا وسط التجارب وضيقات هذا العالم. العالم يهتز، أما الإيمان فلا يتزعزع، بل هو الإيمان الراسخ كما يدعوه بطرس الرسول: «اصحوا واسهروا لأن ابليس خصمكم كأسد زائر يحول ملتصقاً من يبتله هو. فقاوموه راسخين في الإيمان» (١ بط ٥ : ٨، ٩)...

بالإيمان يعرف الإنسان انه ليس وحده في حروبه وجهادته ... الإيمان يقوّي ثقة الإنسان في جهاده، ويقوّي رجاءه في الله. إن مسيحنا دعى «عمانوئيل» أى (الله معنا). وإن كان الله معنا فمن علينا (رو ٨ : ٣١).

هـ - إن الإيمان يزيدنا ثقة في تصديق مواعيد الله التي تملاً أسفار الكتاب المقدس ... كل مواعيد الله هي لنا، وننالها بالإيمان ... الإيمان بمن؟ «برئيس الإيمان ومكمله يسوع» (عب ١٢ : ٢) ... وتعبير «رئيس الإيمان» يعنى بدء الإيمان. وعلى ذلك فإن المسيح هو أساس إيماننا، وبدء إيماننا، ومكمل إيماننا ... وبالإيمان به ننال كل شيء حسب مواعيده الصادقة، إن حفظنا وصاياه، وعشنا في طاعة الإيمان لله ولكنيستة «عمود الحق وقاعدته» (١ تي ٣ : ١٥).

و- وبالجملّة فإن الإيمان له صلة بنواحي كثيرة في حياة الإنسان الروحية ...

فمثلاً الإنسان يستحي أن يخطيء أمام إنسان كبير في مقامه، كما يترفع عن الخطأ أمام من هو ادنى منه احتراماً لذاته ... وهكذا فإن الناس يرتكبون الخطايا في الخفاء، لذا قيل عن الخطاة انهم: «أحبوا الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة» (يو ٣ : ١٩) ... إذن فالإنسان يخجل أو يخاف من إنسان يراه إنساناً يخطيء ... إن الإيمان يجعلنا نحس أننا في حضرة الله دائماً وأنه يرانا. هذا ما حفظ

يوسف الصديق في تجربة امرأة فوطيفار، وهذا ما يحفظنا نحن أيضاً، وما يمنح القلب اتضاعاً.

إن آمنا بالأبدية فلنضعها أمامنا أنها تعطى ضماناتنا بقطعة، وإن كنا نؤمن بحبة الله فلنحرص ألا نجرحها. فأشد الجروح هي التي يجرح بها الله في بيت أحبائه (زك ١٣ : ٦) ... وإن آمنا بالفضيلة كمنهج لحياتنا فلنسلك في طريق التقوى والفضيلة. وإن آمنا بفناء العالم وتفاهته ترفعنا عن الخطأ. إن الإيمان يدفعنا إلى الزهد في العالم «الذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه. لأن هيئة هذا العالم تزول» (١ كو ٧ : ٣١) ... وبالإيمان نغلب العالم بكل ما فيه «وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماننا» (١ يو ٥ : ٤).

بعض ثمار الإيمان :

للإيمان ثمار روحية كثيرة ومباركة منها حياة التسليم، والسلام والفرح، والرضا والشكر، والتغلب على الصعاب ...

١ - حياة التسليم ...

تأتي كثرة للإيمان ... إذا كان الإيمان بالله هو الثقة به، فإن هذا الإيمان، أو بالتالي الثقة تقودني إلى تسليم حياتي لله الذي أثق به ... وما لم تتوفر الثقة لا يمكن أن يكون هناك تسليم ... إنه طاعة الإيمان.

المؤمن يسلم حياته لله بلا تحفظ ولا شروط أو ضمانات ... انه واثق في محبته وحكمته وقدرته. كثيرون لا يسلمون لله إلا إذا فشلت أساليبهم البشرية. ليس هذا هو الإيمان. إنما هو الاضطرار إلى الله. يقول السيد المسيح : «بدوني لا تقدرون أن تعملوا شيئاً» (يو ١٥ : ٥). إن اخطر ما يهدد حياة الإنسان الروحية هو محاولة العمل مستقلاً عن الله، والاعتماد على فكره وتدبيره بعيداً عن مشورة الله. انه لا يرى انه محتاج لأن يُشرك الله معه في العمل ... لقد وهب الله الإنسان العقل والارادة، لكن ليس ليستقل بهما عنه ... يقول الحكيم : «وعلى فهمك لا تعتمد» (أم ٣ : ٥) ... إن خطية الإنسان الأولى كانت محاولة الحصول على المعرفة بعيداً عن الله.

والمؤمن الحقيقي لا يكفى بالاعتماد على الله بل يسلمه كل شيء، لأن معرفة الإنسان جهالة عند الله (١ كو ١: ٢٠) ... والمعرفة الحقيقية هي من عند الله «المُذخَّر فيه كل كنوز الحكمة والعلم» (٢ كو ٢: ٣) ... إن حياة التسليم تعنى اعتراف الإنسان بعدم معرفته.

وحياة التسليم لا تعرف الشكوى والتذمر بل تقبل كل شيء برضى وفرح وشكر. ومن يحيا حياة التسليم لا يخضع لمشيئة الله في تغضب واضطرار وحزن، بل انه من أعماقه يهتف برضى: «لكن مشيئتك»، لأن ما أبعد احكامك عن الفحص وطرقك عن الاستقصاء (رو ١١: ٣٣).

ونسوق بعض أمثلة لرجال الله الذين عاشوا حياة التسليم الكامل.

نوح لما أمره الله أن يصنع فلكاً لأنه آت بطوفان الماء على الأرض ليهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما فى الأرض يموت (تك ٦: ١٧)، أطاع نوح وفعل حسب كل ما أمره به الله هكذا فعل (تك ٦: ٢٢) ... فى تسليم كامل بنى الفلك عن أمر لا يرى له أثراً أمامه (عب ١١: ٧).

وإبراهيم لما دعاه الله أن يخرج من أرضه وعشيرته وبيت أبيه إلى الأرض التى يريه إياها (تك ١٢: ١) لم يعترض بل أطاع فى تسليم كامل «وخرج وهو لا يعلم إلى أين يذهب» (عب ١١: ٨) ... ومرة ثانية حينما أمره الله أن يقدم ابنه وحيدته اسحق ذبيحة أطاع فى تسليم كامل رغم أن الله وعده انه باسحق هذا يدعى له نسل «بالإيمان قدم إبراهيم إسحق وهو مجرب. قدم الذى قبل المواعيد وحيدته، الذى قيل له إنه باسحق يدعى لك نسل» (عب ١١: ١٧، ١٨) ... وإبراهيم لما أرسل عبده لعازر الدمشقى ليأخذ زوجة لابنه إسحق قال له: «الرب إله السماء الذى أخذنى من بيت أبى ومن أرض ميلادى والذى كلمنى والذى أقسم لى قائلاً لنسلك أعطى هذه الأرض، هو يرسل ملاكه أمامك فتأخذ زوجة لابنى من هناك» (تك ٢٤: ٧).

وموسى فى عبوره وشعب الله البحر الأحمر سلك فى طاعة كاملة لله فى أمر خارق للطبيعة، إذ كيف يتحول الماء إلى يابس (خر ١٤) ... ورحلة شعب الله فى

البرية مدة أربعين سنة مثال حياة التسليم فلم يفكروا إلى أين هم ذاهبون، أو ماذا يأكلون وكيف يشربون، وماذا سيلبسون في هذه الرحلة الطويلة!!

والعذراء الطاهرة مريم مثال حياة الطاعة والتسليم. فمع كل محبتها لحياة البتولية قبلت أن تختطف لرجل هو يوسف وتعيش معه في بيت واحد... وحين بشرها الملاك بالجيل الإلهي قالت في تسليم: «ليكن لي كقولك» (لو ١: ٣٨).

والتسليم والطاعة يظهران في حياة رسل المسيح وتلاميذه... فلاوى الجالس عند مكان الجباية حينما قال له السيد المسيح «اتبعنى»، قام وتبعه (مر ٢: ١٤؛ لو ٥: ٢٧)... ويلخص بطرس الرسول كل هذه القصص بقوله للرب: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك، فماذا يكون لنا» (مت ١٩: ٢٧؛ لو ١٨: ٢٨).

ومن أمثلة حياة التسليم يوسف الصديق الذى - رغم الأحلام وكل ما صادفه من شذائد - لم يشك بل كان يسلم لله.

ومن أمثلة حياة التسليم داود الذى كان يرعى غنم أبيه، وأرسل الله صموئيل ومسحه ملكاً، لكنه لم يسلمه من التلذذ شيئاً. وبقي يرعى الغنم دون تذمر. ثم اختير خادماً لشاول الملك المرفوض من الله الذى كان يغيته روح ردىء من قبل الرب (١ صم ١٦: ١٤)... لم يحتاج داود ولم يقل أنا الملك المختار من الله، كيف اخدم هذا المرفوض. بل فى تسليم كامل قبل الوضع. وكان يهدى شاول الملك حينما تبغته الأرواح الشريرة... وظل شاول يطارد داود من برية إلى برية يحاول قتله حسداً وغيره. ولم يحدث أن داود اعترض على الله، ولم يقل له مثلاً ماذا فعلت من شر حتى استحق كل هذا، بل انتظر فى عدوه خلاص الرب... لقد كان لله حكمة فى كل ذلك. فلقد كان داود صبياً حين اختياره ومسحه ملكاً. وكان الانتظار نافعاً له حتى يكبر وينضج ويزداد الناس حباً له يوماً بعد يوم.

إن حياة التسليم الكامل - بدون أدنى مبالغة - هى حياة الكمال المسيحى... ففيها يكون الله هو العامل بالإنسان وفيه... وهذا ما يعينه الرسول بولس بقوله: «مع المسيح صُلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فى». فما أحياء الآن فى الجسد، فإنما أحياء فى الإيمان - إيمان ابن الله الذى أحببنا واسلم نفسه لأجلنا » (غل ٢: ٢٠)... فى هذه

الحالة لا يتمم الإنسان مشيئته بل يصبح آلة برّ يتمم بها الله مشيئته تشبهاً برب المجد الذى قال : «نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي ، بل مشيئة الذى أرسلنى» (يو ٦ : ٣٨) .

٢ - حياة السلام والفرح

السلام يصاحب الإيمان . فالشخص الذى يحسّ انه وحده يخاف ، أما من يؤمن أن الله معه فلا يخاف «إن حاربنى جيش فلا يخاف قلبى» (مز ٢٧ : ٣) ... «إن سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معى» (مز ٢٣ : ٤) .

إن السلام والفرح هما ثمرتان حلوتان من ثمار الإيمان ... يقول القديس بولس لأهل رومية : «فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح الذى به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التى نحن فيها مقيمون» (رو ٥ : ١ ، ٢) ... ويقول القديس بطرس «يسوع المسيح الذى وإن لم تروه تحبونه . ذلك وإن كنتم لا ترونه الآن لكن تؤمنون به ، فتبتهجون بفرح لا ينطق به ومجيد» (١ بط ١ : ٨ ، ٩) ... وحافظ السجن فى فيلبى بعد أن آمن واعتمد على يد بولس وسيلّا «أصعدهما إلى بيته وقدم لهما مائدة ، وتهلل مع جميع بيته إذ كان قد آمن بالله» (أع ١٦ : ٣٤ ط .

فى صلاة الشكر التى نتلوها فى صلواتنا الفردية والكنسية ، نذكر ثلاث صفات لله : فهو صانع خيرات ، وهو ضابط الكل أى كلى القدرة ، وهو محب للبشر... إن الإيمان بالله وبصفاته هذه يمنحنا سلاماً وفرحاً...

إيماننا بأن الله صانع خيرات معناه أنه لا يستطيع أن يصنع إلاّ خيراً ، ولا يمكن أن يصنع شراً بأحد ، لأن الشر لا يتفق وطبيعته ... ثم هو يريد أن يصنع بك خيراً لأنه محب للبشر . وهو قادر على ذلك لأنه قادر على كل شئ . وغير المستطاع عند الناس مستطاع عنده ... إذا آمنت بهذا حقاً عشت مطمئناً ، واثقاً من أن الله سوف يدبر لك كل ما هو صالح ونافع . وسوف لا يلحق بك إلاّ ما هو مفيد ونافع لك . عندئذ يملك

السلام على قلبك، ويزول منك القلق، ويغمرك فرح عظيم، لأنك واثق بمن بيده حياتك.

أما ان وقعت في القلق والخوف، فاعلم أن إيمانك ليس راسخاً. ومن ضعف إيمانك تخاف كما خاف بطرس وهو يمشي على الماء بأمر السيد المسيح. وحينما أحس بقدميه تفوصان في الماء صرخ: «يارب نجنى». فمد الرب يسوع يده وأمسك به وقال له: «يا قليل الإيمان لماذا شككت» (مت ١٤: ٣٠، ٣١).

وإذا قلت إنك لا تخاف الله إنما تخاف الشياطين والأرواح الشريرة وشروها، فاعلم يقيناً أن هذه مجرد مخلوقات خاضعة لله، ولا يمكن أن تصنع شيئاً إلا في حدود ما يسمح به الله. وهذا واضح من قصة أيوب وعجربته (أى ١، ٢).

ومن أمثلة السلام وعدم الخوف لقاء داود مع جليات ... يقول داود: «من هو هذا الفلسطيني الأغلف حتى يعتبر صفوف الله الحي ... لا يسقط قلب أحد بسببه». وقال داود لجليات: «أنت تأتي إليّ بسيف ورمح وبئرس. وأنا آتى إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الذين غيرتهم. هذا اليوم يحبسك الرب في يدي فأقتلك واقطع رأسك، وأعطى جثث جيش الفلسطينيين هذا اليوم لطيور السماء وحيوانات الأرض. فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله لإسرائيل. وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يخلص الرب لأن الحرب للرب وهو يدفعكم ليدنا» (١ صم ١٧: ٢٦، ٣٢، ٤٥ - ٤٧).

ومن أمثلة السلام وعدم الخوف لقاء إيليا بآخاب ملك إسرائيل. فبعد أن أغلق إيليا السماء بصلاته فلم يسقط مطر ولا ظلّ على الأرض مدة ثلاث سنين ونصف، أمر الرب إيليا أن يذهب ويتراءى لآخاب حتى يعطى مطراً على الأرض ... وما أن التقى آخاب بإيليا حتى قال له: «أأنت هو مكدر إسرائيل. فقال لم اكدر إسرائيل، بل أنت وبيت أبيك وترككم وصايا الرب وبسيرك وراء البعليم» (١ مل ١٧، ١٨) ... لتأمل ثبات إيليا وعدم خوفه من الملك نتيجة السلام الذي يغمرك قلبه نتيجة إيمانه بالله الذي كان يحس دائماً أنه واقف أمامه ...

ومن أمثلة السلام الثلاثة فتية الذين أمر بنوخذنصر ملك بابل بإلقائهم في أتون نار مُحَمَّى سبعة أضعاف ... كان تحدى الملك لهم بقوله : «مَنْ هو الإله الذى ينقذك من يدى» ... أما الثلاثة فتية فكان ردهم على هذا الكلام : « هوذا يوجد إلهنا الذى نعبد يستطيع أن يُنَجِّبنا من أتون النار المتقدة وأن ينقذنا من يدك أيها الملك » (دا ٣ : ١٥ : ١٧) .

ومن أمثلة عدم الخوف والسلام نتيجة الإيمان ، دانيال الذى القاه الملك في جب الأسود . ولما ذهب الملك في صباح اليوم التالى ليرى ماذا حدث لدانيال وناداه بصوت اسيف ، كان جواب دانيال : « أيها الملك عش إلى الأبد . إلهى أرسل ملاكه وسد أفواه الأسود فلم تضرنى لأنى وُجِدْتُ بريئاً قدامه وقدامك أيضاً أيها الملك لم أفعل ذنباً » (دا ٦ : ٢١ ، ٢٢) .

ومن أمثلة السلام أيضاً نتيجة الإيمان . القديس بطرس الرسول في السجن ... كان هيرودس مزعماً أن يقتله في اليوم التالى ، أما بطرس فكان في تلك الليلة « نائماً بين عسكريين مربوطاً بسلسلتين » ... وهذا موقف يدل على نفس مملوءة من السلام ولا أثر للخوف فيها . أما بقية القصة فنحن نعلمها ، وكيف أخرج ملاك الرب بطرس من السجن : ايقظه فقصت السلسلتان من يديه وسار خلف الملاك وإذا بباب السجن يفتتح لهما من ذاته (أع ١٢) .

٣- الرضا والشكر :

الإنسان المؤمن يعيش في رضى . هو راض دائماً بحالته التى سمح الله له أن يوجد فيها ، لأنه مؤمن بأنه لا توجد حالة أخرى أصلح له مما هو فيه ... لأنه لو كانت توجد حالة أفضل لكان الله - كصانع للخيرات وعالم بكل شئ - قد نقله إليها . لأن الله الذى قال على فم يعقوب الرسول : «مَنْ يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل فذلك خطية له » (يع ٤ : ١٧) ، ألا يُنفذ هو هذه الوصية على ذاته الإلهية ؟

ورجل الإيمان يعرف أيضاً أن الله كحكيم ، إن أراد أن ينقله إلى حالة أفضل ، يختار لذلك الوقت المناسب الذى يعرفه هو بالأكثر ، ويختار الظروف المناسبة لمصلحه ... ولذا فإنه يعيش في رضى بحاله ، إيماناً منه بمحبة الله وحكمته . وهو

لذلك يشكر الله دائماً على كل حال ومن أجل كل حال وفي كل حال . ويتطور به الشكر حتى لا يصبح مجرد ألفاظ في الصلاة ، وإنما هو شعور دائم في القلب يفيض فرحاً وسعادة كل حين .

٤ - التغلب على الصعاب :

الإنسان المؤمن لا يوجد شيء يقف أمامه ، ولا توجد صعوبة مهما بلغت تحول دونه وبلوغ ما يريد ، وهو لابد وأن يكون أمراً صالحاً ... الإيمان يصنع المعجزات ، ويخترع الآيات ... إنه ينتصر على قوى الشر « إبليس خصمكم كاسد زائر يحول ملتصقاً من يتلعه هو . فقاوموه راسخين في الإيمان » (١ بط ٥ : ٨ ، ٩) ... ويكتب يوحنا في رسالته الأولى عبارة جامعة عن قوة الإيمان ، يقول : « وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم إيماننا . من هو الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله » (١ يو ٥ : ٤ ، ٥) . وغلبة العالم هنا تشير إلى النصر في كل شيء ، وعلى كل شيء ... إن هذا الكلام - كما ينطبق على الأفراد ينطبق أيضاً على الكنيسة التي ثبتت بإيمانهم إزاء كل المحاولات الفاشمة لتحطيمها ومحو الإيمان المسيحي .

مُشَجَّعات الإيمان ومَعَوَّقاته :

الإيمان كأى فضيلة ينمو ويقوى ويتدرج ، كما انه يضعف أحياناً وينحل . له مقويات ومشجعات ، كما ان له أيضاً أسباباً تضعفه ، علماً ان لكل إنسان في كل مرحلة من مراحل حياته درجة إيمان خاصة ...

أولاً - مشجعات الإيمان :

من مشجعات الإيمان المعرفة والبساطة والقراءة عن عجائب الله في قديسه ، والجرأة (الشجاعة) والصلاة ...

أ - المعرفة :

يقول مار إسحق إن هناك نوعين من المعرفة . إحداها تسبق الإيمان ، والأخرى

تأتى نتيجة له... فالإنسان بحسب معرفته وصفاته وقدرته العقلية يؤمن بالله ويتكل عليه. وإذا تدخل في حياة الإيمان العملية، وتقر عليه تجارب وخبرات، وهو ثابت يرى معونة الله له في الضيقات والأحزان المتنوعة، حينئذ يكتسب من خبرات إيمانه لونا آخر من المعرفة العملية غير تلك المعرفة النظرية التي بدأ بها... وهذه المعرفة الأخيرة أقوى وأثبت. وهي تشجعه وتنمي أكثر في الإيمان. وهكذا كلما تزداد معرفته العملية يزداد إيمانه. وكلما يزداد إيمانه يلقى بنفسه في أمور أعلى، وخبرات أصعب، تزداد بها معرفته، ويزداد بها إيمانه أيضاً.

ب - البساطة :

وإذا كانت المعرفة من مشجعات الإيمان ، فالبساطة أيضاً تشجعه. ولا تعارض هنا بين المعرفة والبساطة. فالمعرفة الإيمانية لا تتناق مع البساطة، بل هي أيضاً بسيطة... ونقصد بالبساطة هنا بساطة الإيمان في بعده عن شكوك العقل ودوام تساؤله : لماذا وكيف ؟... فرجل الله الذي في بساطة يؤمن أن الله قادر على كل شيء، لا يسمح للحكمة البشرية - التي هي جهالة عن الله - أن تضعف إيمانه. فالله فرق هذه الحكمة، وفوق كل علم بشري، ويستطيع أن يعمل أشياء كثيرة تفوق العقل. فكيف نجعل هذا العقل المحدود حاجزاً أمام الإيمان بها ؟

ج - القراءة عن عجائب الله في قديسيه :

مثل هذه القراءة تقوى الإنسان وتشجعه ، وتلهب قلبه بالإيمان حتى يتكل على الله ويثق به. وعلى الإنسان في كل أمر يترقبه أن يتلمس يد الله فيه. ربما حدث أمر واحد لشخصين. أحدهما يحلله عقلياً محاولاً أن يرجعه إلى أسباب طبيعية أو شخصية أو نتائج منطقية أو محض الصدفة. مثل هذا الإنسان لا يستفيد من هذا الأمر روحياً. أما الشخص الثاني فيأخذ الأمر من الناحية الإيمانية ويرجعه إلى عمل النعمة فيه. وهكذا يزداد إيمانه.

و- الجرأة والشجاعة :

هناك أمور إيمانية تحتاج إلى شجاعة وجسارة قلب . ونقصد بها جسارة القلب المبنية على الثقة بالله وتصديق مواعيده ... الرجل الخائف يجبن على الدخول فيها ، فيظل إيمانه على ضعفه . ويظل واقفاً على شاطئ البحر الأحمر خائفاً من أن يضع قدمه في الماء لئلا يفرق . وإنسان آخر لا يخاف فيلقى بنفسه في الأمور الصعبة - في إيمان - فيكتسب إيماناً جديداً عملياً . وهكذا « فإن من له سيعطى ويزاد » (مت ١٣ : ١٢) . لكن الله لا يترك ضعاف الإيمان في ضعفهم ، بل يُدرّجهم في هذا السبيل . إن كانوا لا يستطيعون الاتكال عليه في الأمور الخطرة ، ولا حتى في الأمور الصعبة ، فإنه يبدأ معهم بأمور سهلة .

هـ- الصلاة :

أشرنا ونحن نتكلم عن علاقة الإيمان بالحياة الروحية - أشرنا إلى الصلاة... ونضيف إلى ما قلناه هنا ، إنه قد يضعف إيمان الإنسان ، فإما أن يتراخى فيخسر اكليته ، وإما أن يشعر بضعفه فتسحق نفسه في داخله ويطلب من الله المعونة . وكما يقول مار إسحق : [إذا اتضع الإنسان ففى الحال تحيط به النعمة ، فيحس القلب بالمعونة الإلهية ، وعتلى القلب بالإيمان] ... لذلك يجب على الإنسان أن يطلب من الله باستمرار أن يعطيه إيماناً ، وأن يقوى هذا الإيمان ، لأن الإيمان قبل كل شيء هو هبة من الله ، وليس عملاً بشرياً « لا يقدر أحد أن يُقبل إلىَّ إن لم يجتذبه الآب الذى أرسلنى » (يو ٦ : ٤٤) ... كذلك فى كل عمل تعمله ابدأ بالصلاة ، حتى إذا ما اعانك الله واتمته تفرح بمعونة الله ويرداد إيمانك به . أما إذا عملت عملاً بدون صلاة ونجحت فيه ، فقد تنسب نجاحك إلى مجهودك الخاص أو إلى أسباب خارجية أخرى ، فتخسر إيمانياً بتجاهلك معونة الله التى كانت معك دون أن تدري .

ثانياً - معوقات الإيمان :

هناك ثلاثة معوقات أساسية تعوق الإيمان ونموه : الأخذ بالمعرفة الطبيعية وحدها ، والخوف ، ثم الشك .

أ - الأخذ بالمعرفة الطبيعية وحدها :

الأخذ بالمعرفة الطبيعية وحدها يعطل الإيمان ... هناك مثلاً قوانين في الطبيعة مثل عدم امكان المشي في الماء أو نقل الجبال أو انتهار الريح والأمواج لتهدأ أو اقامة الموتى بكلمة ... أما الإيمان فلا يخضع لمثل هذه القوانين الطبيعية . وتمسك الإنسان بها يعطل عمل الإيمان الذي يستطيع كل شيء ... « كل شيء مستطاع للمؤمن » (مر ٩ : ٢٣) .

والمعرفة الطبيعية بالاضافة إلى كونها لا تسلم بالمعجزات ، فهي تنشئ خوفاً في النفس ، والخوف لا يدع مجالاً للإيمان ...

في معجزة إقامة لعازر من الموت ، تقول مرثا للسيد المسيح حينما احسّت انه ينوى اقامته من القبر : « يا سيد قد انتن لأنه له أربعة أيام » ... أى لا فائدة . ربما لو اتيت عقب الوفاة مباشرة لكان هناك شبه احتمال لإقامته من الموت ... أما جواب المسيح عليها فكان : « ألم أقل لك إن آمنتِ ترين مجد الله » (يو ١١ : ٣٩ ، ٤٠) ... وبالفعل قام لعازر ...

وبطرس الرسول مشى على الماء ، وهذا البحر والريح بكلمة ...

معلوم أن الحيات والعقارب مؤذية جداً بل مميتة ، لكن الإيمان يبطل مفعول أذاها « ها أنا أعطيك سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو ولا يضركم شيء » (لو ١٠ : ١٩) ... العلم يقول إن السم مميت ، لكن الإيمان يبطل مفعوله « هذه الآيات تتبع المؤمنين ... يحملون حيات وان شربوا شيئاً مميتاً لا يضرهم » (مر ١٦ : ١٧ ، ١٨) . وكم من معجزات تجري حتى الآن وكل يوم بفعل الإيمان ... للعلم دائرة خاصة لها قوانينها . والإيمان له دائرة أخرى لا تخضع لمنطق العلم أو قوانينه ...

ب - الخوف :

الخوف يقف ضد الإيمان الذي يستند إلى قوة الله ذاته ومواعيده ... لقد قدم إبراهيم ابنه إسحق ذبيحة « إذ حسب ان الله قادر على الاقامة من الأموات » (عب ١١ : ١٩) ... والثلاثة فتية الذين القاهم نبوخذنصر في أتون النار ببايل ، ارتفعوا

فوق الخوف ، وقالوا للملك : « يا نبوخذ نصر لا يلزمنا أن نجيبك عن الأمر . هوذا يوجد إلها الذي نعبد يستطيع أن ينجينا من أتون النار المتقدة ، وأن يتقذنا من يدك أيها الملك » (دا ٣ : ١٦ ، ١٧) ... وهكذا دانيال الذي لم تؤذهِ الأسود في الجب بما هو خارج عن مألوف طبيعتها « فأصعد دانيال من الجب ، ولم يوجد به ضرر لأنه آمن بإلهه » (دا ٦ : ٢٣) ...

و يشير يوحنا في رؤياه إلى قائمة الذين لا تصيب لهم في مُلك المسيح الأبدى ، فيقول : « وأما الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدَةُ الأوثان وجميع الكذبة ، فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت الذي هو الموت الثاني » (رؤ ٢١ : ٨) ... ونلاحظ أن الخائفين وضعوا على رأس هذه القائمة قبل القتل والزناة والسحرة وعبدَةُ الأوثان !!

جـ - الشك :

هو عائق شديد ضد الإيمان ... انه خطية موجهة ضد الله مباشرة . لأنه - أي الشك - عدم تصديق لوعود الله ... فبطرس الذي مشى على الماء بكلمة المسيح ، لما رأى الريح شديدة اعتراه الخوف فابتدأ يفرق . فقال له السيد المسيح : « يا قليل الإيمان لماذا شككت » (مت ١٤ : ٢٨ - ٣١) ... ويجب أن نلاحظ هنا أن الخوف جاء نتيجة الشك ...

يقول يعقوب الرسول : « لكن ليطلب بإيمان غير مرتاب البتة ، لأن المرتاب يشبه موجاً من البحر ، تحبّطه الريح وتدفعه . فلا يظن ذلك الإنسان انه ينال شيئاً من عند الرب » (يع ١ : ٦ ، ٧) ...

ويقول رب المجد يسوع المسيح : « لأننى الحق أقول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ، ولا يشك في قلبه ، بل يؤمن أن ما يقوله يكون فمهما قال يكون له » (مر ١١ : ٢٣) .

الإيمان في معجزات السيد المسيح

- معنى المعجزة - اعتراضات ضد المعجزات .
- الشيطان والمعجزات .
- كيف نميز بين المعجزة والضلالة - السحر وتحضير الأرواح .
- المؤمنون والسحر والسحرة .
- الإيمان في معجزات السيد المسيح :
- + شفاء المفلوج .
- + شفاء نازفة الدم .
- + تفتيح عيني بارتيمائوس .
- + شفاء غلام قائد المائة .
- + شفاء ابنة الكنعانية .
- قصص عن معجزات معاصرة .

قبل أن نتناول بالكلام موضوع الإيمان في معجزات السيد المسيح ، نراه لازماً علينا أن نتوقف بعض الشيء لتتكلم عن المعجزة ما هي ، والفرق بين المعجزة الإلهية وضلالات الشياطين ، الأمر الذى يقودنا إلى الكلام عن السحر وتحضير الأرواح . ثم نناقش موضوعاً أكثر فيه الجدل عن المعجزات الإلهية وهل كانت قاصرة على الفترة المبكرة من تاريخ المسيحية وتوقفت بعد ذلك . وما الحكم في المعجزات التى تحدث الآن بشفاعات القديسين .

معنى المعجزة :

المعجزة هى الأعجوبة التى تثير الدهشة ، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الاتيان بمثلها ... وهناك ثلاث كلمات مترادف معنى المعجزات فى كتاب العهد الجديد وهى «العجائب والقوات والآيات» ... يقول الرسول بطرس وهو يتحدث عن برهان رسالة المسيح : « يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده » (أع ٢ : ٢٢) ... وفيما يتحدث القديس بولس الرسول عن قانونية رسوليته يقول : « إن علامات الرسول صنعت بينكم فى كل صبر بآيات وعجائب وقوات » (٢ كو ١٢ : ١٢) ... ونلاحظ أن الدهشة التى تثيرها المعجزة ليست هى المقصودة لذاتها ، بل المقصود انها العلامة التى تشهد عن حضور الله ووجوده ، وتدخله فى صنع المعجزة . وهى لا تتم إلا بالقوة الخارقة الإلهية ، القوة التى لا يمكن أن تكون من صنع البشر أو من حيلة الإنسان ... ونلخص هذا الكلام بالقول إن المعجزة هى ذلك الحادث الإلهى الذى يصنعه الله مباشرة ، أو عن طريق واحد من أنبيائه أو رسله أو قديسيه بكيفية تملو وترتفع وتسمو على كل نظام أو ترتيب أو مقدرة بشرية . وإن هذا الحادث لا يمكن أن يكون المقصود به الله أو إثارة الفضول ، لأن الله له حكمة سامية فى كل معجزة يجريها .

إذن فالمعجزة هى كل تدخل خارق للعادة ونادر وغير مألوف . وقد تستخدم فيه وسائل طبيعية . لكن هذه الوسائل ما كانت لتأتى بأى نتيجة باهرة لولا تدخل الله الفاعل . والقصد من المعجزة إما تثبيت وتقوية الشهادة للدين أو الإغاثة

والمساعدة والانفاذ التى تعزّ فيها الوسائل العادية الطبيعية ...

وكتاب العهد القديم يقدم لنا عينات من المعجزات الإلهية مثل معجزات الضربات العشر على يد موسى النبى فى مصر، وعبور البحر الأحمر، وإعالة الشعب مدة أربعين عاماً فى البرية، ووقوف الشمس والقمر بكلمة يشوع خليفة موسى وتلميذه، وإقامة ابن أرملة صرفة صيداء على يد إيليا النبى، وابن المرأة الشوثية على يد الإشع النبى، وضرب مائة وخمسة وثمانين ألفاً من جنود ملك آشور فى ليلة واحدة. وعدم احتراق الثلاثة فتية فى أتون نار بابل، وكذا عدم مساس الأسود لدانيال النبى فى الجب الذى القى فيه ... أما عن العهد الجديد فهو ملء بالمعجزات التى صنعها السيد المسيح ورسله وتلاميذه، وهو ما سنتحدث عن بعضها فيما بعد .

اعتراضات ضد المعجزات :

ومن الناس من لا يؤمن بالمعجزات على الإطلاق ، إما لعدم إيمانه أساساً بوجود إله وهؤلاء هم الملحدون ... والبعض لا يؤمنون لأنهم يعتقدون أن الله لا يمكن أن يغير نواമيه الطبيعية التى وضعها لسياسة الكون وخلائقه ، بل انه يحترمها لأنه مبدعها وواضعها، ولذا فهى تسير سيرها المحتوم على الدوام ... وهناك من يؤمن بالمعجزات كأمر حدثت فى الماضى ودونت فى الكتاب المقدس لإثبات تدخل الله وسيطرته على الكون وتأييد الحق الإلهى المعلن ، وانها انتهت بثبات هذا الحق ووضوحه ورسوخ المسيحية فى العالم . وهى بذلك لا يمكن أن تتكرر مادامت قد أدت غرضها وغايتها . ومعنى هذا الكلام أن عصر المعجزات قد ولّى وانتهى ... بينما يوجد من يؤكد أن المعجزات حق ، وانها مازال قائمة حتى الآن وان رسالتها فى الشهادة لله ووجوده وقوته لم تنته بعد ، وانه ليس فى الكتاب ما يقطع بأنها كانت هناك لفترة معينة أو زمن محدود .

ونعرض الآن للرد على هذه الآراء ...

أولاً - بالنسبة للملحدين ، فنحن لا نحتاج لإثبات وجود الله فى هذا البحث لأنه ليس موضوع دراستنا ، فضلاً عن ان اليقين بوجود الله اثبت وأقوى من أى زعم يتخيله أو يتوهم هؤلاء الملاحدة ...

ثانياً - أما عن الزعم بأنه لا يليق بالله أن يتدخل في النواميس الثابتة التي أبدعها ونظمها ، فهو زعم لا يليق . لأن معنى ذلك أن هذا الناموس قد غدا بمثابة إله آخر معادل لله ومستقل عنه ، لا يخضع لأى إشراف ويعلو عن كل رقابة ، ولا يجوز التدخل في سيره... كما أن هذا الزعم معناه أن الله وضع الناموس ليقف منه موقف المتفرج أو العاجز عن أن يصنع إزاءه أمراً أو شيئاً . ومثل ذلك كمثّل مهندس يصنع آلة ضخمة ، وبعد أن حركها ، وقف أمامها يتطلع إلى حركتها دون أن يملك القدرة على إيقافها أو حتى الإقلال من حركتها أو زيادتها ، لفرض معين !!

وثمة أمر آخر في غاية الأهمية ، وهو أن الناموس المادى هو أحد النواميس التي أبدعها الله ، وليس هو الناموس الوحيد... فمثلاً يوجد الناموس الأدبى ، الذى يختص بالأخلاقيات وسلوكيات البشر سواء في حياتهم الخاصة أو في التعامل بينهم وبين بعضهم . هذا الناموس الأدبى اسمى وأعظم عند الله من الناموس المادى ، بقدر ما تسمو الروحيات والأدبيات عن الماديات . وقد تدخل الله في شتى العصور والأجيال لإصلاح ما طرأ على هذا الناموس الأدبى ... وليس أدل على ذلك من قول المسيح لليهود بعد معجزة شفاء مريض بيت حسدا في يوم السبت : « أبى يعمل حتى الآن وأنا أعمل » (يو ٥ : ١٧) . وكانت كلماته هذه موجهة لليهود الذين اتهموه بكسر وصية حفظ السبت وهى إحدى وصايا الناموس الأدبى ...

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، ماذا يمكن أن يقال عن الاختراعات العلمية الجبارة التى وصل إليها العقل الحديث والتى تشبه المعجزات ... فمثلاً إرسال صواريخ إلى القمر خارج نطاق الجاذبية الأرضية ، ومشى الإنسان في منطقة انعدام الوزن ، ثم استعادة هذه الصواريخ في الوقت الذى أرادوه والمكان الذى حدوده ... هل يمكن أن يقال في هذه الحالات أن قانون أو ناموس الجاذبية الأرضية قد تحطم؟! ... وثمة مثل آخر نوضح به ما نقول ... إذا أمسكنا قطعة صغيرة من الحديد وتركناها من بين أصابعنا ، فإنها تسقط إلى أسفل بتأثير الجاذبية الأرضية . لكن لو قربنا من قطعة الحديد هذه مغناطيساً قوياً من أعلى لانجذبت إليه إلى أعلا بما يخالف الجاذبية الأرضية ...

فإذا كانت الإرادة البشرية بقدراتها تستطيع أن تملو على الناموس المادى الطبيعى، أفلا يملك الله بإرادته وقدرته الكاملة غير المحدودة أن تملو أو تسود على أى ناموس معروف أو غير معروف؟!... إن أية معجزة بالنسبة لله هى السيطرة البسيطة العادية على أى ناموس. والأمر كله يتعلق فى الفرق بين حكمة الإنسان وقدرته وحكمة الله وقدرته. إذ ما يعتبره الإنسان خارقاً إنما هو بالنسبة لمجال حكمته وقدرته، على العكس من الحكمة الإلهية وقدرتها بالنسبة لها هو يسير عادى وبسيط... والخلاصة انه ليس ثمة تناقض أو تحطيم للنواميس فى صنع المعجزات، بل هو علو عليها أو تسخيرها بيد من يملك أمرنا وأمرها...

ثالثاً - أما عن الاعتراض الثالث الذى يزعم أن عصر المعجزات كان قاصراً على الفترة المبكرة من تاريخ المسيحية من أجل اثباتها وانتشارها، نقول انه لا يوجد فى الكتاب المقدس وبخاصة العهد الجديد نص يحدد زمناً للمعجزات، بل على النقيض من ذلك يقول السيد المسيح لتلاميذه: «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها. من آمن واعتمد يخلص، ومن لم يؤمن يُدَنّ». وهذه الآيات تتبع المؤمنين، يخرجون الشياطين باسمى ويتكلمون بالسنة الجديدة. يحملون حيات، وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرهم. ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون» (مر ١٦ : ١٥ - ١٨) ... وتاريخ الكنيسة بعد عصر الرسل وحتى الآن حافل بالمعجزات التى أجراها الله على أيدي قديسيه وإبراره فى كل العصور... وعلى ذلك نقول إن المعجزات باقية ما بقى على الأرض إنسان أو مؤمن إذ انها من جانب الله لمعونة الإنسان وانقاذه من شدائد، وتقويته وتشجيعه، فضلاً عن انها تحمل الشهادة لله وانه مازال يعتنى بخليقته تحقيقاً لمواعيده... وستبقى المعجزات ما بقى الإنسان بحاجة إليها، وهو بالفعل كذلك...

من ذا الذى يتردد فى الاعتراف إن هناك معجزات لا تعد ولا تحصى تجرى كل يوم، كمعجزات الشفاء التى تحدث بعد أن يفشل الأطباء فى شفاء أمراض مستعصية تحقيقاً للوعد ان غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله... وليس معجزات الشفاء هى الوحيدة التى يتمجد الله بها، بل هناك معجزاته مع شعبه ككنيسة التى نلمسها حتى اليوم... إن هذا دليل لا يدع مجالاً للشك إن إله

المعجزات ما يزال يعمل إلى اليوم كما كان يعمل في العهد القديم وفي فجر المسيحية على حد سواء ، إذ هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد ... وما يقوله القديس بولس الرسول : « استطيع كل شيء في المسيح يسوع الذي يقويني » (في ٤ : ١٣) ، لا يختص ببولس وحده ، بل بكل من يؤمن لأنه كما قال المسيح : « كل شيء مستطاع للمؤمن » (مر ٩ : ٢٣) .

الشياطين والمعجزات :

من المهم في هذا الصدد أن نقول انه يخرج عن دائرة المعجزات كل ما يمكن أن يصنعه الإنسان عن طريق الحيلة أو الايجاء أو اساليب التنويم المغناطيسي أو تخضير الأرواح الأمور التي سنشير إليها فيما بعد . فأساس المعجزة يبدأ من حيث تتوقف كل قدرة بشرية على الاطلاق ... والسؤال الآن هل يستطيع الشيطان أن يصنع عجائب ومعجزات ؟

الشيطان باعتباره ملاك ساقط ، في قدرته أن يصنع عجائب . وقد حدث ذلك مراراً عديدة مقابل معجزات الله الحقيقية ، من أجل اظهار قوته ... لكن النصر في النهاية لله وقوته . ولدينا مثل واضح على صدق هذا الكلام في المعجزات التي أجراها الله على يد موسى في الضربات العشر . لكن السحرة المصريين فعلوا بسحرمهم على نحو ما فعل موسى وهارون . لكن ماذا كانت النتيجة في النهاية ؟ في الضربة الأولى ، طرح السحرة عصيهم فصارت ثعابين « لكن عصا هارون ابتلعت عصيهم » (خر ٧ : ١٢) وفي الضربة الثانية وهي تحويل الماء إلى دم « فعل عزافو مصر كذلك بسحرمهم » (خر ٧ : ٢٢) ... وفي الضربة الثالثة وهي ضربة الصفادع « فعل كذلك العرافون بسحرمهم واصعدوا الصفادع على أرض مصر » (خر ٨ : ٧) ... وفي الضربة الرابعة الخاصة بالبعوض توقف السحرة واعلنوا عجزهم وقالوا لفرعون : « هذا اصبع الله » (خر ٨ : ١٩) ... كانت هذه هي النتيجة ، عجز السحرة أمام قوة الله واعترافهم بذلك .

وما نود أن نوضحه هو أن الشيطان من حيث طبيعته ، في قدرته أن يصنع عجائب تدهش الناس ... هذا ما يقوله الرب بلسان موسى النبي لبني إسرائيل :

« إذا قام في وسطك نبي أو حالم حليماً واعطاك آية أو اعجوبة . ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلاً لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ، فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم لأن الرب إلهكم يتحننكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم » (تث ١٣ : ١ - ٣) .

كما قال السيد المسيح : « كثيرون يقولون لي في ذلك اليوم يارب يارب ليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا قوات كثيرة . فحينئذ اصرخ لهم اني لم أعرفكم قط . اذهبوا عني يا فاعلي الإثم » (مت ٧ : ٢٢ ، ٢٣) ... وقال : « لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ، ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً » (مت ٢٤ : ٢٤) .

ويتحدث القديس بولس الرسول عن إنسان الخطية « الذي مجيئه بعمل الشيطان بكل قوة وآيات وعجائب كاذبة » (٢ تس ٢ : ٩) ... ويتحدث يوحنا في سفر الرؤيا عن الوحش قائلاً : « ويصنع آيات عظيمة حتى انه يجعل نارا نازلاً تنزل من السماء على الأرض قدام الناس . ويضل الساكنين على الأرض بالآيات التي أعطى ان يصنعها » (رؤ ١٣ : ١٣ ، ١٤) . وعن النبي الكذاب يقول : « فقبض على الوحش والنبي الكذاب معه ، الصانع قدامه الآيات التي بها أضل الذين قبلوا سمة الوحش ، والذين سجدوا لصورته » (رؤ ١٩ : ٢٠) .

كيف نفرق بين المعجزة والضلالة ؟

إذا كانت هناك ضلالات وخداعات من الشيطان ، فكيف نفرق ونميز بين المعجزة والضلالة ؟ يجب دراسة الأمر الحارق الذي يحدث من ثلاثة جوانب : صانع الأعجوبة ، والوسيلة التي تمت بها ، ثم هدفها ...

من جهة صانع الأعجوبة يجب أن تكون حياته مقدسة وعيا حياة تقوية ، فإذا كان شريراً أليماً فهو كاذب وآلة في يد الشيطان ، وعمله لا يمكن أن يصدر بحال من الأحوال عن شخص الله القدوس ... هذا والوسيلة المستخدمة في اجراء هذه الأعجوبة تنبئ أيضاً وتكشف عن طبيعتها . فالسحر أو العرافة أو التعاويذ أو تحضير الأرواح وما إلى ذلك ليس إلا وسائل شيطانية ولا يمكن أن

تكون صادرة عن إرادة الله أو قداسته ... ولدينا الكتاب المقدس بهديه القديم والجديد، ولدينا سير القديسين والأبرار المعترف بقداستهم. ومنها نستطيع أن نميز كيف أجرى الله على أيديهم المعجزات والعجائب وهي لا تخرج عن الصلاة التي نعرفها جميعاً، أو بكلمة تخرج من فم القديس ... أخيراً فإن هدف الأعجوبة أو الغاية المقصودة منها تكشف إلى حد كبير هل هي من الله أم من الشيطان. فالمعجزات والعجائب والآيات لا يمكن أن يكون القصد منها إبهار الناس ولا شيء غير ذلك ... كل ما يبعد الإنسان عن الله أو الحياة المقدسة فلا يمكن أن يكون صادراً عنه. وكل ما يقود إلى الخرافات والضلالات والتسلبات لا يمكن أن يكون صادراً عن الله ... هل يمكن أن الله الحكيم يجرى معجزة أو أعجوبة بدون هدف مقدس ... قطعاً لا. المعجزة إما أن يجرىها الله من أجل تمجيد اسمه أو تشديد إيمان الناس أو رفع معاناتهم من الأمراض والمصائب وما إليها ... ما أكثر الضلالات التي ظهرت وتظهر في أيامنا هذه، وللأسف يصدقها لا بسطاء الناس والسُّدُج بل حتى المثقفون ... لذا أرى ككلمة للموضوع أن نتكلم باختصار عن السحر وتحضير الأرواح مع سرد قصص من التاريخ القديم وقصص معاصرة ...

السحر وتحضير الأرواح :

هل السحر شيء حقيقي وموجود ؟ الإجابة : نعم ... لكن بادىء ذي بدء يجب أن نفرق بين السحر والتَّجَلٍّ. فكثيرون من الدجالين يدعون أنهم سحرة. لكن هؤلاء الدجالين يعتمدون على الدهاء وينتهزون فرصة سداجة بعض الناس والضوائق التي يكابدونها ويوقعونها في حبالهم ... والسحر الحقيقي هو اتيان أعمال غير عادية تفوق طاقة البشر، ولا يستطيع الإنسان أن يعملها إلا بقوة الشيطان، وهذا هو السبب في أن السحر والالتجاء إلى السحرة خطية !!

ويذكر العهد الجديد سيمون الساحر في مدينة السامرة الذي كان « يستعمل السحر ويدهش شعب السامرة قائلاً أنه شيء عظيم . وكان الجميع يتبعونه من الصغير إلى الكبير قائلين هذا هو قوة الله العظيمة . وكانوا يتبعونه لكونهم قد اندهشوا زماناً طويلاً بسحره » (أع ٨ : ٩ - ١١) . ويذكر سفر أعمال الرسل أنه بسبب كرازة

القديس بولس الرسول النشيطة في مدينة أفسس « كان كثيرون من الذين يستعملون السحر يجمعون الكتب ويحرقونها أمام الجميع » (أع ١٩ : ١٩). ويذكر بولس الرسول السحر مقترناً بعبادة الأوثان ضمن أعمال الجسد (غل ٥ : ١٩ ، ٢٠) ... ويذكر يوحنا في رؤياه السحرة مقترنين بعبدة الأوثان في البحيرة المتقدمة بنار وكبريت (رؤ ٢١ : ٨) ، وانهم خارج أورشليم السماوية (رؤ ٢٢ : ١٥) ... وقد قاوم بولس الرسول غليم الساحر في مدينته بافوس بجزيرة قبرص . وامتلاً بولس من الروح القدس وقال له : « أيها المعتلىء كل غش وكل خسث يا ابن إبليس يا عدو كل برّ. الا تزال تفسد طرق الله المستقيمة . فالآن هوذا يد الرب عليك فتكون أعمى لا تبصر الشمس إلى حين . ففى الحال سقط عليه ضباب وظلمة ، فجعل يدور ملتسماً من يقوده بيده » (أع ١٣ : ٩ - ١١) .

وإذا كان هذا قد ورد في العهد الجديد ، فهناك نصوص كثيرة وردت في أسفار العهد القديم . يقول الله لموسى : « والنفس التى تلتفت إلى الجان والتوابع ... أجعل وجهى ضد تلك النفس واقطعها من شعبها » (لا ٢٠ : ٦) . وموقف الله وغضبه واضح وصریح فقد أمر موسى في سفر الخروج : « لا تدع ساحرة تعيش » (خر ٢٢ : ١٨) .

هذا عن السحر ، أما عن تحضير الأرواح فنقول إننا نؤمن بوجود الأرواح وبخلودها ونحن ننادى القديسين ونستغيث بهم ونسأل شفاعتهم فينا ومعاونتهم لنا وصلواتهم عنا ، لكن من دون أن نسأل ظهورهم لنا ليجيبوا على أسئلة لنا . فليست أرواح القديسين المنتقلين تحت سلطان الأحياء ، إنما هى أولاً وأخيراً تحت سلطان الله ولا تنتقل إلا تبعاً لإرادته المقدسة . إذن ليس مباحاً لنا أن نحضر أرواح المنتقلين بصلاة أو بزمور...

لقد ظهرت روح النبی صموئيل في العهد القديم لشاول الملك ، لا بناء على وسائل عرافة عين دور التى لجأ إليها شاول ، ولكن بناء على أمر الله وإرادته ليضبط شاول متلبساً بجرمة التجاؤه لعرافة ضداً لوصية الله (تث ١٨ : ١٠ ، ١ صم ١٥ : ٢٣) . حتى أن العرافة صرخت بشدة وبصوت عظيم (١ صم ٢٨ : ١٢) بما يدل على انها رأت روح صموئيل النبی بصورة مغايرة تماماً لسائر الأرواح الشريرة

التي كانت تحضرها بسلطان الشيطان أو الجان صاحبها .

نعود فنذكر انه إذا كان مباحاً لنا ان نتصل بأرواح القديسين فذلك عن طريق الصلوات وحدها . وهم قد يأتون إلينا ويكونون في نجدتنا بحسب إرادة الله التي تحكمهم لا بحسب إرادتنا نحن . لكن ليس لنا سلطان عليهم وليس في مقدور أحد أن يحضرهم متى شاء وبصرفهم متى شاء على نحو ما يدعى بعض الأديعاء .

ولقد أوضح مخلصنا له المجد هذه المسألة في مثل الغنى ولعازر (لو ١٦) . فحينما أبدى الغنى في موضع العذاب رغبته في أن يرسل إبراهيم لعازر من عالم الأرواح إلى عالم الأحياء لينذر أخوة الغنى حتى لا يذهبوا إلى العذاب . قال له إبراهيم : « عندهم موسى والأنبياء وليسمعوا منهم . أي عندهم كتابات موسى وسائر الأنبياء وهي كافية أن يتلقوا منها التعليم الصحيح .

وليس مباحاً للقديسين أن يتحدثوا بشيء عن العالم الآخر خارجاً عن الحدود المرسومة لهم من الله والمعلنة في الكتب المقدسة . وقد اتيح للقديس بولس الرسول أن يختطف بروحه إلى الفردوس ، لكنه لم يسمح لنفسه أن يتحدث عن العالم الذي رآه . واكتفى بالقول بأنه : « سمع كلمات لا ينطق بها ، ولا يسوغ للإنسان أن يتكلم بها » (٢ كو ١٢ : ٤) .

وفضلاً عن ذلك فقد حذرنا الوحي الإلهي من أن نتلقى من الأرواح تعليماً أو معرفة خارجاً عن التعاليم التي أعلنت لنا في الكتب المقدسة ، حرصاً على المؤمنين من الضلال ... يقول بولس الرسول : « إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم فليكن أناثيماً ... إن كان أحد يشرككم بغير ما قبلتم فليكن أناثيماً (محروماً) » (غل ١ : ٨ ، ٩) ... والمعنى أن الوحي الإلهي يمنع المؤمنين من أن يتلقوا المعرفة عن غير طريقها الطبيعي المرسوم من الله ، أو يصغوا إلى ملاك أو روح يعلمهم تعليماً يغاير التعليم الذي تسلموه من الكنيسة ...

ما أكثر الخداعات التي يقع فيها الإنسان لا سيما البسطاء منهم ... هذه الخداعات هي من الشيطان . والشيطان وجنوده أرواح نارية قوية تتمتع بالقدرة

والمعرفة وسرعة الحركة . لقد ظهر الشيطان لقديسين كثيرين أحياناً في صورة رجل أو امرأة أو طفل أو حيوان وأحياناً في صورة قديس أو ملاك طاهر . وإلى ذلك يشير بولس الرسول بقوله : « ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغيّر شكله إلى شبه ملاك نور » (٢ كو ١١ : ١٤) .

وعلى أى حال فلا يحلّ لأبناء الإيمان أن يستشيروا الأرواح لمعرفة أمر أو اجابة على سؤال حسبما أمر الله « لا يوجد فيك من يُجيز ابنه أو ابنته في النار . ولا من يقرّ عرافة ، ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر . ولا من يرقى رقية ، ولا من يسأل جاناً أو تابعة ، ولا من يستشير الموتى . لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب » (تث ١٨ : ١ - ١٢) ...

وانتقام الله رهيب لمن يلبأون إلى السحر والعرافة . ولدينا مثل رهيب في العهد القديم عما حدث لمنسى ملك يهوذا الذى « عرّنيه في النار في وادى ابن هنوم ، وعاف وتفاعل وسحر ، واستخدم جاناً وتابعه وأكثر عمل الشر في عينى الرب لإغاظته » (٢ أى ٣٣ : ٦) ... ماذا كان انتقام الله من منسى في هذا العالم ؟ لقد أخذ ملك آشور منسى بخزامة وقيده بسلاسل نحاس وذهبوا به أسيراً إلى بابل (٢ أى ٣٣ : ١١) !!

وثمة خداع آخر يقال في تبرير الالتجاء للسحرة ... يقولون هناك سحر للشر وهذا ممنوع ومرفوض ، وسحر يقصد به الخير (فلك عمل) ، أو إيجاد محبة بين اثنين ... أو ... إلخ . وهذا كله شر ومرفوض من الله . القاعدة انه لا يجب الالتجاء لغير الله والاستعانة بسواه ... وهذه وتلك من أعمال الشيطان .

وثمة سؤال هام نظرته ، هل للسحر سلطان على أولاد الله ؟ ... والجواب إذا كان السحر هو من عمل الشيطان ، فليس للشيطان سلطان على أولاد الله والمؤمنين . وإذا كان السيد المسيح قد أعطى المؤمنين سلطاناً أن يخرجوا الشياطين فهل من المعقول أن يكون لهم عليهم سلطان ؟! ... قال تلاميذ السيد المسيح له : « حتى الشياطين تخضع لنا باسمك » وقال هو لهم : « هذه الآيات تتبع المؤمنين ، يخرجون الشياطين باسمى ... يحملون حيات وان شربوا شيئاً مميتاً لا يضرهم » (مر ١٦ : ١٧ ، ١٨) .

المؤمنون والسحر والسحرة :

قلنا أنه لا سلطان للشيطان على المؤمنين « اعطيكم سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو ولا يضركم شيء » (لو ١٠ : ١٩) ... وطالما أن السحر يستند إلى قوة الشيطان ويتم بفعله ، فليس سلطان للسحرة على المؤمنين من أولاد الله ... ونقدم بعض قصص قديمة ومعاصرة عن أن الشيطان - وبالتالي السحرة - لا سلطان لهم على المؤمنين ...

أ - قصة كبريانوس الساحر ويوستينة :

كبريانوس هذا كان ساحراً بارعاً في علمه وسحره والتقى به في مدينة انطاكية شاب هام بحب فتاة مسيحية تدعى يوستينة . حاول الشاب أن يلفت نظر الفتاة إليه فلم يفلح . وكانت يوستينة فتاة مؤمنة . فلما فشل في بلوغ مرامه لجأ إلى كبريانوس الساحر ، فوعده بأنه سيحقق له مراده ... بدأ كبريانوس في أعمال سحره فلم يفلح على غير المألوف . فلما عجز قال لـ « شياطينه » : [إن لم تحضروا لي يوستينة اعتنقت المسيحية] ... وهنا حاول الشيطان أن يخدعه فظهر له في صورتها . ففرح كبريانوس وهم ليعلنها ، وحالما ذكر اسمها انحلت الشيطان المتشبه بها ، وفاحت رائحة نتنة ... كان هذا سبباً في أن يفكر كبريانوس في شياطينه التي لم تحتمل أن تثبت أمام ذكر اسم فتاة مسيحية . فأحرق كتب السحر وصار مسيحياً ... وتعبد الكنيسة بتذكاره في الحادى والعشرين من شهر توت .

ب - الأعجوبة التي تمت على يد القديس باسيليوس

الكبير :

هذه قصة واعجوبة حدثت بمدينة قيصرية كبادوكية على يد القديس باسيليوس الكبير ... حدث أن شاباً أجيراً هوى ابنة سيده والتهب قلبه بحبها ... ولما كان أمر زواجه منها أو تمكنه منها مستحيلاً لجأ إلى أحد السحرة ، فكتب له ورقة وأمره أن يذهب في منتصف الليل إلى قبور غير المؤمنين ويرفع يده بالورقة ... فعل ذلك وتناول الشيطان منه الورقة ، وطلب إليه أن يكفر بالمسيح ولا يرجع عن ذلك بعد نوال امنيته .

فلما وافقه الشاب أمره الشيطان أن يكتب له اقراراً بذلك على ورقة ... وبدأ الشيطان في عمله فألمب قلب الفتاة بمحبة ذلك الشاب ، وكاشفت أباها بذلك وهددته بأنه إما أن يزوجه إياه أو تقتل نفسها ... خضع والداها لرغبة الفتاة خوفاً على حياتها ، لكنهما كانا يكثران التصرع بدموع أمام الله أن يتأرف عليهما ويزيل حزنهما ... استجاب الله لهما وبدأ الله يزِيل الغشاوة عن عقل الفتاة وعينيها ، واتضح لها كأن ذلك الشاب غير مسيحي لأنه لا يمارس أى عبادة ، فبدأت تندم وتبكي على ما فعلته ، فأتحت الفتاة الشاب بما فى نفسها فأنكر فى بادىء الأمر لكنه عاد واعترف لها بكل ما فعله ... اسرعت الفتاة إلى أسقف مدينتها القديس باسيليوس وقصت عليه معتها وطلبت منه نجاتها . فاستحضر القديس ذلك الشاب وسأله إن كان مشتاقاً أن يرجع إلى المسيح ... ثم استمع إلى قصته ... صلى عليه واستبقاه عنده ورسم له صلاة يصلحها لمدة ثلاثة أيام . بعدها افتقده فأعلمه أن الشياطين يهدونه بالصك الذى كتبه على نفسه . شجعه واعاده إلى مكانه ... وفى كمال الأربعين يوماً ذهب ليفتقده وسأله عن حاله فأعلمه الشاب انه رآه فى تلك الليلة يقاتل عنه الشيطان وقد غلبه ... دعا باسيليوس الرهبان والكهنة وصلوا عليه تلك الليلة كلها . وفى الغد أحضره إلى الكنيسة واحضر شعب المدينة . وطلب إلى الجميع أن يصرخوا إلى الله كيريا ليسون - يارب ارحم . واستمروا فى صراخهم وفوجئوا بورقة تسقط من فوق ، وإذا بها الصك الذى اخذه الشيطان على ذلك الشاب . قرأه على الشعب وبارك على الشاب وناوله من الأسرار المقدسة ، وأعاده إلى زوجته وبارك عليهما ... وتعيد الكنيسة بتذكار هذه الأعجوبة فى الثالث عشر من شهر توت .

جـ - قصة أثناسيوس الساحر ومار جرجس :

اذهل احتمال الشهداء والمعترفين المسيحيين معذبهم ، ونسوا احتمالهم لقوة السحر . وفى قصة استشهاد البطل مار جرجس كلفوا ساحراً ماهراً يدعى أثناسيوس بأن يُعد سماً قوياً ليشر به مار جرجس وبذلك يقضون عليه ... قدموا لمار جرجس كأس السم فرشم عليها بعلامة الصليب فلم يتلَّهُ أذى ، فنسبوا ذلك إلى العلامة السحرية ، يقصدون علامة الصليب !! ولكى يمنعه من رشم هذه العلامة السحرية ربطوا يديه

وقدموا له كأساً من السم أقوى من الأول . ولإيمانه بقوة علامة الصليب ، حينما قدموا له كأس السم قال لهم مشيراً برأسه : أتريدونى أن أشربها من هنا أم من هنا أم من هنا ... وبحركة رأسه هذه رشم علامة الصليب على كأس السم ، وشربها فلم يتله أذى ... وبالإضافة إلى موضوع شرب السم ، أقام مار جرجس ميتاً توفى منذ وقت قصير- كان ذلك كله سبباً فى إيمان الساحر اثناسيوس بل واستشهاده على يد دقلديانوس .

د - فى هذا القرن مرضت سيدة من عائلة بذار فى مدينة نقادة ، وطال مرضها ... ولما يشت من الشفاء سمعت وهى على فراش مرضها أحد المغاربة ينادى (كان هذا يعنى أحد المشتغلين بالسحر) . فقالت لمن فى البيت : [نادوا الراجل ده ، أنا خلاص تعبت] ... دخل الرجل الذى يشتغل بالسحر حجرة المريضة ، فقال لهم : [الأودة دى مضلمة (مظلمة) لا تصلح للشغل] . قالوا له نفتح الشبايك . قال لهم برضه ما تنفمش . ولما ألحوا عليه لمعرفة السبب . قال لهم : [بصراحة واحد راجل طيب نام فى الأودة دى] ... وكان المنتيج الأنبا مرقس مطران الأقصر واسنا وأسوان - وجلس على الكرسي ٥٦ سنة وكان من القديسين - قد بات فى هذه الحجرة قبل ذلك بعشرين سنة . وطبعاً صلى فيها صلواته ومزاميره ...

هـ - حدثت هذه القصة سنة ١٩٦٩ على يد المنتيج القمص بيشوى كامل كاهن كنيسة مار جرجس باسبورتنج بالاسكندرية ... كانت إحدى بناته فى الاعتراف وتدعى فوزية وكانت طالبة بمعهد القطن بالاسكندرية . وكانت فى البكالوريوس ومعقدة من الدراسة ويائسة من النجاح ... وفى إحدى الأيام وهى ذاهبة إلى المعهد - وكان يقع فى شارع ضيق - قابلتها فى أول هذا الشارع سيدة سوداء اللون . وقالت لها بلكنة كأنها لكنة أجنبية : [انت مالك زعلان - اتكل على ربنا - اتكل على ربنا] ... وأخذت تسرد لها بعض أخبار اسرتها وتاريخها هى . ثم قالت لها ان تذهب للمعهد وستجد الأستاذ فلان معتذرا عن الحضور . كما اخبرتها ببعض أمور أخرى ... وقالت لها : [ماتخافيش أنا راح اجيب لك الامتحانات آخر السنة] ... تعجبت الفتاة وحينما عادت إلى منزلها قصت على امها ما حدث ففرحت الأم لما سمعت بأخبار امتحانات آخر السنة . كانت الفتاة مرتبطة بالمنتيج القمص بيشوى كامل ... قصدت

منزله في نفس هذا اليوم وظلت تنتظره لكنه تأخر. فقال لها مدام أبونا يشوى ناصحة إياها: [هذا شيطان... لما تقابليها مرة ثانية قولى لها باسم يسوع المسيح تقولى أنتِ مين]... وفي اليوم التالى قابلتها نفس السيدة السوداء في نفس المكان الأول، وبادرتها الفتاة بقولها: [باسم يسوع قولى لى أنتِ مين]... فأحدثت أصوات عالية من فمها وقالت لها: [أنا روح هايم هايم هايم]. ثم اخرجت عقداً من صدرها وحركته نحو وجه الفتاة حتى تخيفها. لكن الفتاة رسمت بعلامة الصليب على الست السوداء وعلى العقد، فسقط العقد من يدها... ذهبت إلى المعهد في ذلك اليوم مرتجة. وقصدت منزل أبونا يشوى في نفس هذا اليوم... فقال لها أبونا يشوى بطريقته الوديدة: [اعترفى أولاً وتناولى من الأسرار المقدسة وسأعمل لك قنديل]... وفي اليوم التالى أثناء ذهابها للمعهد قابلتها نفس السيدة وقالت لها: [انت حتخلى أبوكم يشوى يعمل قنديل. لو عمل قنديل راح اهذ الحيطه عليكم. وامك عماله تمنجل في كل ركن في البيت] (يبدو أن أم الفتاة كانت تصل في البيت). لكن الفتاة اجابتها بشجاعة: [مش حتقدرى تهذى الحيطه أو تعملى شىء إلا إذا أخذت إذن من المسيح]... وذهبت إلى معهدا وقصدت أبونا يشوى وحدد لها ميعاد لعمل قنديل في الصباح قبل ذهابها للمعهد.. وفي أثناء عمل القنديل وضعت صورة للسيدة العذراء لحضور صلاة القنديل. وبعد انتهاء صلاة القنديل رش ابونا الماء في الشقة. وذهبت الفتاة لمعهدا فنظرت الست السوداء جالسة على الأرض مكتحة وقالت لها: [كدة خلّيتى أبوكم يشوى يعمل لكم القنديل ونور أم النور عمى عيني ما بقتش (لم أعُد) أشوفك إلا في الحمام. وكان الحمام هو المكان الوحيد الذى لم يرشه أبونا يشوى بالماء. فلما اعلمته بما قالته الست السوداء صلت على كوب ماء وأمرها أن ترشه في الحمام... كما قالت لها في نفس هذا اللقاء الأخير: [وحرام عليك شوفى أنا اتكسحت إزى]... !!

الايان في معجزات السيد المسيح :

سبق أن قلنا إن الإيمان قرين المعجزات « كل شىء مستطاع للمؤمن » (مر ٩ : ٢٣)... وفي كتاب العهد الجديد معجزات كثيرة عملها الرب يسوع من خلال إيمان من حملت معهم هذه المعجزات... وفيها نلمس صورا ودرجات للإيمان من

خلال تصرفاتهم ... وصدق القديس يعقوب حينما قال : « وأنا أريك بأعمالي إيماني »
(يع : ٢ : ١٨) ... وكأمثلة على ذلك نتكلم عن خمس معجزات للسيد المسيح تمت
من خلال الإيمان ، وفيها تلمس تدرج الإيمان ونوعياته . هذه المعجزات هي :
شفاء المفلوج الذي حمله أربعة رجال - شفاء نازفة الدم - تفتيح عيني بارثيمائوس
الأعمى - شفاء ابنة الكتناينة - شفاء غلام قائد المائة .

١ - شفاء المفلوج الذي حمله أربعة :

(مت : ٩ : ٢ - ١٨ : ٢٨ : ١٢ : ١٧ : ٢٦) .

حدثت هذه المعجزة في مدينة كفر ناحوم ... إنسان مفلوج تماماً بمرض الفالج حمله
أربعة على فراشه وجاءوا به إلى حيث الرب يسوع . وكان البيت الذي فيه قد امتلأ
بالناس ووقف الناس خارجه ... وإذ لم يجد حاملو المفلوج وسيلة للدخول إلى حيث
الرب يسوع ، وإذ كانوا مصرّين ألا تغلت منهم هذه الفرصة ، صعدوا إلى سقف البيت
وكشفوه ، وبعدما نقبوه « دَلُّوا السرير الذي كان المفلوج مضطجماً عليه ، فلما رأى
يسوع إيمانهم قال للمفلوج يا بُنَيَّ مغفورة لك خطاياك » ... ودارت مناقشة بين جماعة
من الكتبة وبين المسيح بخصوص سلطانه في مغفرة الخطايا ... وإذ أراد أن يقدم لهم
برهاناً عملياً على سلطانه الإلهي في مغفرة الخطايا قال للمفلوج : « لك أقول قم واحمل
سريرك واذهب إلى بيتك » فقام المفلوج في الحال وحمل فراشه وخرج قدام الجميع
« فُبِهَتْ الجميع ومجدوا الله قائلين ما رأينا مثل هذا قط » .

وجمع المفسرون وعلى رأسهم القديس يوحنا ذهبي الفم أمير شراح الكتاب
المقدس ان كلمة إيمانهم في عبارة « فلما رأى يسوع إيمانهم » ، لا تشير إلى إيمان
الأربعة الذين حملوا المفلوج فقط ، بل ومعهم إيمان المفلوج أيضاً ...

نحن في هذه المعجزة أمام إيمان يتخطى الصعاب حتى يظفر بما يريد ... كان
من السهل أن يعود هؤلاء الأربعة ادراجهم لما وجدوا انفسهم غير قادرين على الدخول
حيث الرب يسوع لكنهم فكروا - مدفوعين بإيمان قوى - كيف يصلون إلى الرب يسوع ،
ويقدمون مريضهم المفلوج إلى الطبيب الأعظم ، فصعدوا إلى السقف ودلوا المريض من
بين الآجر ، فكانت المعجزة ..

٢ - شفاء نازفة الدم :

(مت ٩ : ٢٠ - ٢٢ ؛ مر ٥ : ٢٥ - ٣٤ ؛ لو ٩ : ٤٣ - ٤٨) .

كانت تعاني من نزيف مدة اثنتا عشرة سنة . وكانت هذه المرأة ومن في حالتها بحسب شريعة العهد القديم تعتبر في حالة نجاسة دائمة . كل من يمسها يتنجس ، وكل ما تخط على عليه يصبح نجساً . وكل ما تجلس عليه يتنجس أيضاً ، وهكذا كل من يمس فراشها (لا ١٥ : ١٩ - ٣٢) . وتبعاً لذلك فإنها بسبب نجاستها كانت ممنوعة من الاشتراك في العبادة . وافق معلمو الشريعة اليهودية بتطبيق مثل هذه المرأة من زوجها ... وبسهولة نستطيع أن ندرك مدى بؤس هذه المرأة ، لأنها عاشت معزولة عن المجتمع ...

سمعت هذه المرأة بالرب يسوع ومعجزاته العظيمة وقدرته الشافية ، وكانت « قد تألمت كثيراً من أطباء كثيرين ، وانفقت كل ما عندها » . أى أن الأطباء كانوا سبب زيادة ألمها بدلاً من أن يكونوا وسيلة شفاؤها !! والعجيب أنه رغم استعانتها بوسائل الطب هذه السنين كلها « لم تنتفع شيئاً بل صارت إلى حال أردأ » ... قالت هذه المرأة في نفسها : « إن مسست ولو ثيابه شفيت » .

وبالفعل استجمعت هذه المرأة البائسة قواها النفسية المهلهلة ، واندست وسط جمع كان يحيط به ، وجاءت من ورائه ومسست ثوبه « فللوقت جفت ينبوع دمها ، وعلمت في جسمها انها قد برئت من الداء » ... أى أنها شفيت في الحال واحست هي بذلك .

التفت الرب يسوع حوله وقال : « من لمس ثيابي » ... هذه الكلمات اعلن بها الرب يسوع أن شخصاً تعلق به في إيمان وطيد !! وأنه وجد صدى لهذا الإيمان في القوة الشافية التي خرجت منه ... وليس كما قال له تلاميذه : « أنت تنظر الجمع يزحمكم وتقول من لمسني » !!

إن سؤال الرب يسوع « من لمسني » بوضح ان هالك فرقاً بين دفع الجموع وزحامهم ، وبين لمس النفس المؤمنة المحتاجة !!

ثم ماذا ؟ جاءت المرأة « وهى خائفة ومرتعدة عالمة بما حصل لها ، فخرت وقالت له الحق كله » ... لم يكتف السيد المسيح بذلك ولم تنته القصة عند هذا الحد ، لكنه

يكشف عن علة شفاء المرأة: «يا ابنة إيمانك قد شفاكِ. اذهبي بسلام وكوني صحيحة من دألك» ... هذه هي المناسبة الوحيدة في الإنجيل التي استخدم فيها الرب يسوع كلمة «يا ابنة» ... إن قصة هذه المرأة توضح الثقة الكاملة في الرب يسوع ...

٣ - تفتيح عيني بارتيمائوس :

(مر ١٠ : ٤٦ - ٥٢) .

هذه قصة إنسان أعمى كان يجلس يستعطي على الطريق في مدينة أريحا ، والتقى بالسيد المسيح وهو خارج من المدينة ... وفيما هو جالس كمعاقبة سمع ضجة السائرين وتساءل عن الأمر فعلم أن الرب يسوع يمر من ذلك المكان . وما أن علم بذلك حتى أخذ يصرخ ويقول : «يا يسوع ابن داود ارحمني» ...

كان السيد المسيح متجهاً من أريحا إلى أورشليم والتي بعدها ستحدث أحداث الصليب . ورغم أن كثيرين انتهبوه ليسكت ويكف عن صراخه ، لكنه كان يصرخ أكثر : «يا ابن داود ارحمني» ... فتوقف الرب يسوع عن المسير وأمر أن ينادوه ... نادى الناس بارتيمائوس الضرب وقالوا له : «ثق . قم . هوذا يناديك» . فطرح رداءه وقام وجاء إلى الرب يسوع . فسأله : «ماذا تريد أن أفعل بك» . أجابه : «يا سيدي أن أبصر» . فقال له الرب يسوع : «إذهب . إيمانك قد شفاك» . فللوقت أبصر وتبع يسوع في الطريق . ولعله آخر من تبعه !!

إن بارتيمائوس الأعمى يمثل حاجة الإيمان الذي لا يدع الفرصة تفلت منه .

٤ - شفاء ابنة الكتعانية :

(مت ١٥ : ٢١ - ٢٨ ؛ مر ٧ : ٢٤ - ٣٠) .

تمت هذه المعجزة في نواحي صور وصيدا . وإذا امرأة كتعانية (فينيقية سورية) . كانت هذه المرأة أمية وثنية وليست يهودية . صرخت إليه قائلة : « ارحمني يا سيد يا ابن داود . ابنتي مجنونة جداً» ... لم يُجبها رب المجد بكلمة ... كان تصرفاً غريباً وغير

مألوف من جانب المسيح الذى عهدته الناس لطيفاً رحيماً !! ولقد صنع معجزات مع كثيرين دون أن يطلبوا منه . وهذه المرأة تستغيث به متوسلة ، وهو لا يجيبها بكلمة !!

ازدادت المرأة صراخاً مكررة نفس طلبها الأول . ولما رأى التلاميذ سيدهم معرضاً عنها ، طلبوا إليه أن يصرفها لأنها تصيح وراءهم ... فقال لهم : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » ... ماذا فعلت تلك المرأة بعد سماعها بقرار السيد ... لم تيأس ، بل : « أنت وسجدت له قائلة يا سيد أعنى » ... وأيضاً كانت اجابته فى هذه المرة غير متوقعة ، أجابها : « ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب » ... ورغم القسوة الظاهرية فى كلمات السيد ، قالت له فى انضاع : « نعم يا سيد . والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها » ...

لم يكن قصد المسيح هو إهانة تلك المرأة فليست هذه من صفاته وهو الكامل القدوس . لكنه كان يقصد إلى إظهار إيمان هذه المرأة الأعمى الوثنية ... لقد أظهرت إنسحاقاً عجباً . ووقعت عند رجلية ساجدة له . وأظهرت بتشبهها به وطلبها عظم ثقتها فيه ، واصرارها على ان تنال مطلوبها ... ما كان يشغلها سوى أن تظهر بما تريد معرضة عن أى كلام أو تشبيه .

كيف انتهت قصة هذا اللقاء ... إن إيمان تلك المرأة - من خلال الخطوات السابقة - كشف عن أصالته ، وبلغ أوجه وكماله ... وحينئذ قال لها المسيح : « يا امرأة عظيم إيمانك . ليكن لك كما تريد » . فشفت ابنتها من تلك الساعة ... حين يصل الإيمان إلى هذه الدرجة يأخذ ما يريد « ليكن لك ما تريد » ... إن قصة المرأة الكنعانية هى قصة كمال الإيمان الذى تحلى بالصبر والإنسحاق وعدم اليأس .

٥ - شفاء غلام قائد المائة :

(مت ٨ : ٥ - ١٣ ؛ لوقا ٧ : ٢ - ١٠) .

حدثت هذه المعجزة فى مدينة كفر ناحوم العاصية ، التى قال عنه رب المجد : « وأنت يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء ستهبطين إلى الهاوية . لأنه لو صُنعت فى

سدوم القوات المصنوعة فيك لبقيت إلى اليوم . ولكن أقول لكم إن أرض سدوم تكون لها حالة أكثر احتمالاً يوم الدين مما لك » (مت ١١ : ٢٣ ، ٢٤) .

كانت مدينة كفر ناحوم مدينة كل سكانها من اليهود ، ومع ذلك وجد فيها إنسان وثني شهد عنه الرب : « لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا » ... كان قائد مائة روماني وثني . لكنه كان شخصية عجيبة . فمع أنه كان يمثل المستعمر لكنه أحب الشعب اليهودي واحبوه هم أيضاً حتى انهم توسلوا للسيد المسيح أن يشفى غلامه قائلين عنه : « انه مستحق أن يفعل له هذا . لأنه يحب امتنا وهو بنى لنا المجمع » .. كما انه تميّز بالإنسانية فقد أحب غلامه أى عبده وأخذ يسعى لشفائه .

تدور القصة حول عبد ذلك القائد الذي كان مريضاً جداً ومشرفاً على الموت . وفي انسحاق نفس عجيب أحسّ ذلك القائد انه غير مستحق أن يتقابل مع السيد المسيح رغم حاجته إليه لشفاء غلامه وعبده ، فوسط شيخ اليهود ليسألوا المسيح . واستجاب الرب لطلبهم وقال : « أنا آتى وأشمي » . وبالفعل ذهب يسوع معهم متجهاً نحو بيت ذلك القائد ... وعلى مقربة من البيت أرسل إليه قائد المائة أصدقاء برسالة يقول فيها : « يا سيد لا تتعب . لأنى لست مستحقاً أن تدخل تحت سقفى . لذلك لم أحسب نفسى أهلاً أن آتى إليك . لكن قل كلمة فيبراً غلامى » ... وكأنه يقول : « أنا فى موقى أستطيع أن انفذ ما أريده بكلمة ، وأنت فى مجالك تستطيع بكلمة أن تنفذ إرادتك » ...

تعجب الرب يسوع من إيمان ذلك القائد الوثني ، وقال لمن حوله : « الحق أقول لكم لم أجد ولا فى إسرائيل إيماناً بمقدار هذا » ... ثم قال لقائد المائة : « اذهب وكما آمنت ليكن لك » . فشفى غلامه فى تلك الساعة ... انه الإيمان العميق الواعى المنسحق الذى فاق إيمان المؤمنين بإله إسرائيل ، حتى أن المسيح ويخ اليهود بقوله : « إن كثيرين سيأتون من المشرق والمغرب ويتكثرون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب فى ملكوت السموات . وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان » .

قصص عن معجزات معاصرة :

١ - والدة نيافة الأنبا غريغوريوس كانت سيدة تقية وتحب السيدة العذراء جداً ،
ودائماً تطلب شفاعتها ، وكانت العذراء تحيب طلباتها وتظهر لها . في إحدى المرات
حدث احتقان وتورم بكل وجهها مع صديد بكل الوجه تحت الجلد . وكانت لا تحب
عرض نفسها على الأطباء . لكنها استخدمت كل الوسائل البلدية دون جدوى ، ولم
يظهر أثر لخراج أو خلافة ... وفي أحد الأيام صتم أفراد الأسرة أن تذهب إلى طبيب .
ولما كانت تكره عرض نفسها على الأطباء ، فطلبت منهم أن يملوها تلك الليلة وإذا لم
يتم شيء تتوجه للطبيب . في تلك الليلة طلبت العذراء بشدة . وفي الليل انتهت في حلم
وإذا بها قد يديها إلى وجهها كتمن يمصر الصديد ويجمعه بأسفل الذقن . وفي الصباح
وجدوا الصديد كله تجمع في خراج أسفل الذقن ، ففتحوه وهكذا شفيت ... وفي المرة
التي مرضت فيها مرض الموت سألت العذراء أن تشفيها ، فظهرت لها وقالت لها :
« أنا سألت ابني ، لكن الأمر خرج من يدي » . فعلمت أنها ستفارق العالم . وهذا ما
تم بالفعل .

٢ - حدثت هذه المعجزة مع سيدة شابة تدعى إيفون سليم رزقي الله كانت
في ذلك الوقت في طنطا ولكنها الآن في بنى سويف ... وفي فجر يوم ٥ مايو
١٩٤٦ م استيقظت على ألم شديد في رجلها اليمنى ، وكان ذلك بعد أن وضعت
ابنتها البكر بalthy عشر يوماً . أحضروا الأطباء وقرروا أن الألم نتيجة جلطة في الرجل
اليمنى ... لم تتحسن على العلاج واخبر الأطباء والدها بعد اسبوعين من العلاج انهم
فعلوا ما في استطاعتهم ، والأمل في شفائها واحد في الألف . وإذا تحقق هذا الأمل
ستمشى بمكازر . وكانت في الحجرة التي ترقد فيها صورة كبيرة للعذراء وعلى رجلها
المسيح بعد ما انزلوه عن الصليب . وكانت كلما اشتد الألم بها تقول : [لازم اكسر
صورة العذراء دى علشان ليه سيانى كده] ... وفي أحد الأيام انقطع الأمل وانصرف
الأطباء (دكتور رمسيس جرجس ودكتور إبراهيم فرج ودكتور أمين غالى) ، وأبلغوا
أحد أقاربها ان حالتها سيئة ، ولن تمضى ساعتان إلا وتحدث الوفاة !! بعد ذلك شعرت
بهبوط وفقدت قدرتها على الرؤية والسمع ... وفي تلك اللحظة نظرت وإذا بصورة العذراء
التي في الحجرة تكبر وتكبر حتى صارت في الحجم الطبيعي ووقفت العذراء ووضعت

السيد المسيح على الكرسي الذي كانت تجلس عليه . وامتلات الحجر من نور قوى جداً
اشبه بنور القمر . وبدأت العذراء تكلمها وهي مكشرة وقالت لها : « انتِ عاوزه إيه .
عاوزه منى إيه ؟ » قالت لها المريضة : [واني مكشرة ليه ، أنا عاوزه أخف وانزل
امشى ورجلي ترجع زى ما كانت] . قالت العذراء لها : « كل ده عاوزاه » ،
أجابتها : [أيوه عاوزاه دلوقت] ... فضحكت العذراء ، وكانت صورتها جميلة جداً
جداً ... قالت لها العذراء : « خذى قرص ونص برشام واني نخفي » ... وكان في يدها
البرشام في حجم العشرة قروش وكأنه حجر . قالت للعذراء : [فيه كباية ميه قريه
منى هاتيها ، وخلي البرشامة تبوش شوية وأنا آخذها] . فذهبت العذراء واحضرت
الكباية ووضعت فيها البرشامة حتى باشت ثم شربتها . ثم قالت العذراء لها :
« خذى بقى النص قرص اللي فاضل » . قالت لها : [خليه يبوش شوية وأنا آخذه
علشان انزل دلوقتي امشى] . فكسرت نص البرشامة إلى ربعين . وادابت ربع
وشربته . أما الربع الثاني فأعطته لها في كفها . وقالت لها : « أنا بؤشته لك ، لكن
خليه معاك علشان تفتكريني » . قالت لها المريضة : [لكن أنا مش باعرق أبداً
والدكاترة يقولوا لو عرقت يمكن أخف] . قالت لها : « حترقي كثير » . وكان بجوار
سرير المريضة فؤاطة ، فاحضرت العذراء فؤطة من عليها ووضعتها على رأس المريضة
وقالت لها : « نشفي عرقك في الفؤطة » . ثم اخذت العذراء تتراجع بظهرها إلى
الصورة ، وهي تبسم ابتسامة هادئة جميلة حتى وصلت للصورة ، وأخذت السيد المسيح
ووضعت على رجلها كما كانت ، ثم أخذت الصورة تصغر وارسمت الدموع على وجه
العذراء وانطفأ النور . فقالت المريضة [النور انطفى ليه ؟ انا عاوزة مية علشان آخذ
ربع البرشامة ، علشان أمشي دلوقتي] . سمعها والدها وقال لها : [فين البرشامة يا
بنتي] . قالت له : [في ايدي بس عاوزه مية علشان امشى دلوقتي] . ففتحت يدها
ولم تجد البرشامة . فقالت : [عاوزه أنام الألم راح] . فنامت نوماً هادئاً وعرقت كثيراً
جداً . وفي الصباح كانت درجة حرارتها طبيعية . ذهب والدها ليخبر الطبيب الدكتور
إبراهيم فرج . فحينما رآه قال له : « البقية في حياتك » . لقد ظن أنه حضر ليأخذ منه
شهادة لتقدمها لاستخراج شهادة الدفنة . فقال له الوالد دى عايشة وكويسة خالص .
قال له سأذهب معك لأراها لأن هذا غير معقول إلا إذا كان ربنا عمل معها معجزة .
وحينما رآها الطبيب اندهش جداً . ونزلت من الفراش ومشت طبيعية في اليوم التالي .

٣ - قصة عن معجزة للأنبا مرقس مطران الأقصر واسنا وأصوان وكان ابن خالة الأنبا كيرلس الخامس البطريك وجلس على كرسي الاييارشية ٥٦ سنة، وكان مشهوداً لقداسته من جميع أهالى ايارشيته... كانت هناك فتاة اسمها أيتا خليل من الأقصر (وقد روى لى هذه القصة شقيقها غطاس خليل وكان زميلاً لى). مرضت مرضاً شديداً جداً حوالى سنة ١٩٣٤ أو سنة ١٩٣٥، وبلغت حد الموت، وأرسلوا لكل الأقارب من بلدها أرمنت لكى يودعوها الوداع الأخير. وجلسوا فى المنزل منتظرين خروج السرّ الإلهى. وكان والدها جالساً فى حجرة مجاورة، وكان له دالة كبيرة مع الأنبا مرقس (وكان قد تنجح منذ وقت قليل). لكن قد حدث بينهما زعل نتيجة وشاية من أحد الناس فى أواخر حياة الأنبا مرقس... وكان فى تلك الحجرة صورة للأنبا مرقس. فنظر والد المريضة للصورة وقال: أنا مش قلت لك يا أنبا مرقس انت لسه زعلان منى. ولولا كده كنت تيجى وتشفى انتا؟ ثم اخذته اغفائة نوم وإذا به يرى أنبا مرقس ويقول له أنا مش قلت لك مفيش زعل خلاص. طيب روح ضع الشال بتاعى على انتا (وكان عنده شال للأنبا مرقس محتفظ به كبركة)، وأنا راح ادخل ارشمها. وكان بالمنزل زوج خالتها ويدعى توما رأى أنبا مرقس عياناً خارج من حجرة انتا... ثم قال توما لوالدها أنتا: يا خواجه مش تمسك فى سيدنا أنبا مرقس. قال له فىن. قال له أهو عند السلم... ودخلوا عند المريضة فإذا بها قد عادت صحيحة.

٤ - كان الخواجة دربعة من أعيان الأقصر مريضاً بالسل من الدرجة الثالثة، ووصل إلى حالة سيئة وخطيرة جداً. وكان فى ذلك الوقت منذ أكثر من خمسين سنة ينظر إلى مرض السل انه من الأمراض الخطيرة قبل اكتشاف العلاجات الحديثة... ترك الأقصر إلى القاهرة ثم إلى الاسكندرية بحثاً عن مهرة الأطباء دون جدوى. وأخيراً نُصح بالسفر إلى سويسرا للاستشفاء. أرسل المريض خطاباً من الاسكندرية لأصدقائه بالأقصر يخبرهم بسفره إلى سويسرا. فسافر إليه من الأقصر بعض أصدقائه لوداعه وتشجيعه ومنهم شخص يدعى خليل والد زميل لى هو الذى روى لى هذه القصة... وفى الاسكندرية علموا أن مطرانهم أنبا مرقس موجود فى البطريكية (وهو ابن خالة أنبا كيرلس الخامس البطريك) - فتوجهوا للسلام عليه. وكان موجوداً بالبطريكية معه

أنبا يوانس مطران البحيرة ووكيل الكرازة المرقسية (الذى صار بطريركاً فيما بعد) . فقال خليل للأنبا مرقس : [أنتم (أى المطارنة) ماعدش منكم فائدة] . قال له : [ليه] . قال : [واحد زى الخواجة دريقة يروح سويسرا ليه وانتم بتعملوا إيه ؟] ... تدخل أنبا يوانس فى الكلام وقال له يا أنبا مرقس : لهم حق فى الكلام ده . أنا عارف روح الله تخلى عنا ليه ؟ فقال له تعال نطلع لسيدنا البطريك أنبا كيرلس . وكان موجوداً بالاسكندرية . ونطلب منه أن يصلى عليه . وقبل الأنبا كيرلس . وتقدم المريض وركع أمامه . وظل مدة ساعة كاملة يصلى عليه . وأخيراً شعر المريض بحرارة تسرى فى جسده . فأقامه وقال له ربنا يشفيك . وفعلاً قام معافى وليس به أدنى شئ من المرض . وشعر بجوع شديد فقصده مطعم وأكل . ولما توجه للفندق الذى كان نازلاً فيه القى من نافذة الحجرة قفة مملوءة من الأدوية ... لقد شفى .

الرجاء

- المسيح هو موضوع رجائنا .
- + المسيح رجاء الوثنيين .
- + رجاء اليهود قبل مجيئه .
- + المسيح رجاء اليهود والوثنيين حال وجوده بالجسد .
- + المسيح رجاء جميع المؤمنين بعد ارتفاعه إلى السماء .
- الرجاء والمسيح في الأناجيل .
- ارتباط الرجاء بالفضائل الأخرى .
- لماذا نترجى الله .
- مما يقوى فينا الرجاء .
- المسيح رجاء المتعبين .
- أمثلة لأشخاص تعلقوا بالرجاء .

الرجاء هو إحدى الفضائل الكبرى - الإيمان والرجاء والمحبة (١ كز ١٣ :

١٣) ... الإيمان يلد الرجاء . ومن يكون له رجاء في الله يحبه ، وهكذا يصل إلى قمة العلاقة بالله بالمحبة ... وهكذا نرى الارتباط الوثيق بين هذه الفضائل الثلاث الكبرى . لا يمكن الفصل بينها وإن كان يمكن تمييزها عن بعضها ... المحبة تعتمد على الإيمان والرجاء . والإيمان يعتمد على الرجاء والمحبة ، والرجاء يعتمد على الإيمان والمحبة ...

وتبدو أهمية الرجاء أن من يفقده يمكن أن يفقد معه كل شيء ، حتى الحياة ذاتها ، حينما ينقطع رجاءه ، أى يقع في اليأس والتخبط ... والرجاء هو الذى يدفع الإنسان إلى الجهاد والتعب ، سواء في حياته الجسدية أو الروحية . لأنه إذا تملك الإنسان شعور بأنه لا أمل ولا فائدة من التعب والجهاد ، فسوف يتوقف تماماً عن العمل والجهاد ... إذن فالرجاء والحال هذه قوة دافعة في حياة الإنسان ...

وكما يرتبط الرجاء بالإيمان والمحبة ، فإنه يرتبط أيضاً بالفرح ... قد يسهل الإنسان في خطية ما ، لكن الرجاء يبعث فيه أملاً ، فنزول كآبته ويحل الفرح محلها .

والرجاء عطية مجانية من الله ... يقول الرسول بولس : « وربنا نفسه يسوع المسيح ، والله أبونا الذى أحبنا وأعطانا عزاءاً أبدياً ، ورجاءاً صالحاً بالنعمة ، يعزى قلوبكم ويشبثكم في كل كلام وعمل صالح » (٢ تس ٢ : ١٦ ، ١٧) ..

ولأن عكس الرجاء هو اليأس أو قطع الرجاء ، فإن خلاصنا هو بالرجاء ... وإذا كان الرجاء عطية مجانية من الله ، فإنه يرتبط بخلاص الإنسان المجانى ... يقول القديس بولس : « لأننا بالرجاء تخلصنا . ولكن الرجاء المنظور ليس رجاءاً . لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضاً . ولكن إن كنا نرجو ما لسا ننتظره ، فإننا نتوقمه بالصبر » (رو ٨ : ٢٤ ، ٢٥) .

في هذا الموضوع نحن نعالج فضيلة الرجاء وأثره وأهميته في حياة الإنسان على المستوى الشخصى . لكن هذا الرجاء الشخصى يرتبط بالرجاء في المسيح قبل كل شيء لأنه هو رجائنا (١ تي ١ : ١) . ولأننا بدوننا لا نقدر أن نفعل شيئاً (يو ١٥ : ٥) ... المسيح الذى به كان كل شيء ، وبغيره لم يكن شيء مما كان (يو ١ :

(٣) ... المسيح الذى عرفه القديس بولس وقال : «أستطيع كل شيء فى المسيح الذى يهوبنى» (فى ٤ : ١٣) ... المسيح الذى هو رجائنا - ليس فى هذه الحياة الحاضرة فقط بل وفى الدهر الآتى - ولأننا صرنا أشقى جميع الناس (١ كور ١٥ : ١٩) ... ونظراً لهذا الارتباط الوثيق ، نراه لزماً علينا أن نتحدث أولاً عن السيد المسيح كموضوع رجائنا ...

المسيح هو موضوع رجائنا :

فى رسالته إلى أهل كولوسى يكشف بولس الرسول عن « السر المكتوم منذ الدهور ومنذ الأجيال » ، وأنه ليس شيء آخر سوى « المسيح رجاء المجد » (كو ١ : ٢٦ ، ٢٧) ... وفى رسالته الأولى إلى تلميذه الأسقف تيموثاوس يتكلم عن : « يسوع المسيح رجائنا » (١ تى ١ : ١) ...

يسوع المسيح ربنا هو رجاء كل العالم : قبل أن يأتى فى الجسد ، وحينما كان فى الجسد وعلى الأرض ، ومازال هو رجاء الملايين من البشر بعد أن اتم الخلاص وارتفع إلى السماء ... ونلاحظ أن الله منذ البدء أعطى الإنسان رجاء بعد سقوطه فى الوعد أن نسل المرأة يسحق رأس الحية .

رجاء الوثنيين :

لم يكن أبرار العهد القديم من شعب الله هم وحدهم الذين عبروا عن رجائهم فى مجىء المخلص ، بل حتى الوثنيين عبروا عن ذلك أيضاً !!

نقرأ عن بولس الرسول انه بينما كان فى مدينة ترواس ، رأى ليلاً فى رؤيا رجلاً مقدونياً وثنياً يقول له : « اعبر إلى مقدونية واعنا » (أع ١٦ : ٩) ... لم تكن كلمات هذا الرجل المقدونى الوثنى سوى صراخ البشرية من الأميين ، تستنجد عن وعى أو بدون وعى منها بالمخلص المجهول ليحطم قيودها ويمتقها ، الأمر الذى جعل سمعان الشيخ يقول بروح النبوة عن المسيح : « نور اعلان للأمم » (لو ٢ : ٣٢) .

لقد وجد الباحثون فى تراث البشرية القديم ، ما يدل على أن الشعوب الوثنية

كانت تَوَاقَة إلى منقذ ومحرر ومخلص ... فمثلاً وجد هذا في غالبا (فرنسا الحالية) ...
كان سكان غالبا يقيمون تماثلاً ومذبحاً للعدراء الزمعة أن تهبهم مولوداً يحرقهم !!
كيف هذا ؟ ولئلا يختلط الأمر في اذهان البعض ، فيظنون أن المسيحية استمدت
بعض عقائدها من الوثنية ، نقول إن روح الله في بداية خلقة العالم كان يرف على
المياه ، على الرغم من أن الأرض كانت خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة !!
نظن أن الله يتعامل مع أولاده ولا يتعامل مع الشعوب الوثنية . إن الله يفتقد
هؤلاء الوثنيين بأسلوبه الخاص ... هذا فضلاً عن أن الشعوب المختلفة انحدر
إليهم تقليد واحد من أب البشرية الأول آدم الذي أخذ وعداً من الله بمجيء
مخلص ...

ووجد شيئاً شبيهاً بذلك في المكسيك ... كان المكسيكيون ينحتون في الصخر
وعلى الأبنية العامة تماثلاً للإله الذى سوف يسحق التين ... ووجد ما يعبر عن ذلك
عند الصينيين والهندوس والفرس واليونان والرومان والمصريين القدماء ... لقد
انتظر الفيلسوف أفلاطون مثل هذا الشخص فقال : [متى يأتي هذا الشخص الذى
يعلمنا كل شيء . إننى بغاية الشوق إلى معرفته] .

وبتهلل الشاعر الرومانى فرجيل لذكرى مجيء ذلك المنقذ فيقول : [لقد حانت
الأيام الموعودة ... طفل صغير مرسل من السماء إلينا . وعلى عهده ستمحى آثار
جريمتنا . والأرض لن تعرف الخوف فيما بعد . وسوف يتخذ له مقراً مع الآلهة ،
ويحكم العالم الهادى بقوة فضائل أبيه . فهلّم أيها الابن العزيز ، يا ابن جوبتر أنظر
إلى المسكونة ، فهى خاشعة باحترام أمامك ، تسلم عليك . وانظر فكل إنسان قد سرَّ
وابتهج بقدوم هذا العهد الجديد] .

وهكذا فإن العالم القديم على مختلف شعوبه واديانه - بالرغم من شططهم
واخطائهم ، كانوا ينتظرون ويترجون - وإن كان في شكل مُبْتَهَم - مجيء ذلك
المنقذ الذى سترسله السماء يوماً ليحررهم ... وليس الابن الأصغر في مثل الابن
الضال (لو ١٥) إلا رمزاً للأمم الوثنية التى كانت تن من حالتها السيئة ، وكان لها
رجاء في قبول الله لها ممثلاً في ذلك الأب .

يقول القديس أناسيوس الرسولي عن موت المسيح والطريقة التي مات بها :
 [صارت الدعوة لجميع الأمم ... لأنه لا يمكن أن يموت إنسان وهو باسط ذراعيه
 إلا على الصليب . لهذا لاقى بالرب أن يحتمل هذا الموت ويسط يدبه ، حتى
 باليد الواحدة يجتذب الشعب القديم ، وبالأخرى يجتذب الذين هم من الأمم ،
 ويتحد الإثنين في شخصه . هذا هو ما قاله بنفسه ، مشيراً إلى آية ميتة كان
 مزعماً أن يفدى بها الجميع : «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلىَّ
 الجميع» (يو ١٢ : ٣٢) .]

أ - المسيح رجاء اليهود قبل مجيئه :

كان الشعب اليهودي في رجائه في مجيء المسيح المخلص يتجه دوماً نحوه ،
 معبراً عن هذا الرجاء العظيم ، إن قام للصلاة أو وقف في الهيكل ليقدم ذبيحته
 أو يقرب قربانه . ذلك لأن الديانة اليهودية كانت رجاءً وضعفاً ، استغاثة وانتظاراً في
 آن معاً ، واتجهاً مستمراً نحو المستقبل ... فعل الصخرة العالية المبنية عليها مدينة
 أورشليم ، كان يقوم بناء الهيكل الضخم ، الذي يرمز بوحدته إلى ذبيحة الصليب
 الواحدة . بينما الذبائح المتعددة والمحرقات المتجددة كل يوم ، كانت تعلن عن عجز
 الإنسان في جهاده ، وتدعو إلى ذبيحة الصليب الكاملة ، وترمز إلى القوة التي ستظهر
 يوماً من ذبيحة الإله المتجسد .

ما أكثر ما قاله رجال الله الأبرار في العهد القديم تعبيراً عن رجائهم في
 مجيء المسيح المخلص الذي ظلوا ينتظرون مجيئه منذ آدم ... قال المثل : «يا
 جالساً على الكروبيم اشرق قدام افرام وبنيامين ومنسى . ايقظ جبروتك وهلم
 لخلاصاً» (مز ٨٠ : ١ ، ٢) ... ويقول إشعيا النبي : «في طريق احكامك يارب
 انتظرناك . إلى اسمك وإلى ذكرك شهوة النفس» (إش ٢٦ : ٨ ، ٩) ... ويستبد
 الشوق باشعيا لمجيء المخلص ويعبر عن رجائه فيقول مناجياً إياه : «ليتك
 تشق السموات وتنزل» (إش ٦٤ : ١) . ويعبر عن كل ذلك السيد المسيح حينما
 يقول : «فإني الحق أقول لكم إن أنبياء وأبراراً كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم
 ترون ولم يروا ، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا» (مت ١٣ : ١٧) .

وهناك بعض رجال الله القديسين في العهد القديم تحقق رجاؤهم في مجيء المخلص ، ورأوه رؤيا العين . منهم سمعان الشيخ الذي عمر طويلاً جداً . ولما حمل الرب يسوع طفلاً على يديه في الهيكل قال : « الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام لأن عيني قد أبصرنا خلاصك الذي أعدته قدام وجه جميع الشعوب » (لو ٢ : ٢٩ : ٣٠) ... ولم يكن سمعان الشيخ وحده هو الذي سعد بإتمام هذا الرجاء ، بل كانت هناك أرملة هي حنة بنت فنوئيل لازمت الهيكل أربعاً وثمانين سنة عابدة بأصوام وطلبات ليلاً ونهاراً « وقفت تسبح الرب وتكلمت عنه مع جميع المنتظرين فداءً في اورشليم » (لو ٢ : ٣٨) .

ب - المسيح رجاء اليهود والوثنيين حال وجوده في الجسد :

المسيح رجاء العالم ، حينما كان بالجسد على الأرض كان « يطوف المدن كلها والقرى يُطَلِّم في مجامعها ، ويكرز ببشارة الملكوت ، ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب . ولما رأى الجموع تحن عليهم ، إذ كانوا منزعين ومتطرحين : كفتح لا راعي لها » (مت ٩ : ٣٥ ، ٣٦) . هذه العبارة التي دونها القديس متى الإنجيلي هي عبارة جامعة ، تصف عمل المخلص وخدمته بين الناس ... سعى هو نحو الناس ، وسعى بعض الناس إليه ...

سعى إلى السامرية ، وفيما يتحدث إليها قالت له : « أنا اعلم أن مسيحاً الذي يقال له المسيح يأتي . فمتى جاء ذاك يجبرنا بكل شيء » ... أما ردّ المسيح على هذه الكلمات فكان : « أنا الذي أكلتك هو » (يو ٤ : ٢٥ ، ٢٦) ... كانت المرأة سامرية . وكانت عبادة السامريين عبادة يهودية مختلطة بالوثنية . هؤلاء أيضاً كانوا ينتظرون « مسيحاً الذي يقال له المسيح » . وسعى إلى زكا رئيس العشارين اليهودي (لو ١٩) ... وسعى إلى لاوي العشار وهو جالس عن مكان الجباية ودعاه أن يكون تلميذاً له (مت ٩ : ٩) ... وسعى إلى مريض بيت حسدا (يو ٥) ... وسعى نحو المولود أعمى (يو ٩) ... وسعى إلى كثيرين غيرهم . وكانت دعوته للجميع : « تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيل الأحمال وأنا أريحكم » (مت ١١ : ٢٨) .

وسعى إليه اليهود جماعات حتى أثار عليه ذلك حسد الكهنة ورؤسائهم

وطوائف اليهود الدينية، حتى قال بعضهم لبعض: «انظروا: انكم لا تفهمون شيئاً. هوذا العالم قد ذهب وراءه» (يو ١٢ : ١٩) ... وعلى سبيل المثال في معجزة شفاء المفلوج الذى حمله أربعة، يقول مرقس الإنجيلي: «دخل كفر ناحوم ... فسمع انه في بيت. ولوقت اجتمع كثيرون حتى لم يعد يسع ولا ما حول الباب». لذا اضطر الأربعة أن يصعدوا إلى سقف البيت وينقبوه ويدلوا المفلوج حتى لا تفلت الفرصة منهم (مر ٢ : ١، ٢) ... وفي معجزة شفاء حماة سمعان بطرس - بعد أن خرج خبره في كل الكورة المحيطة بالجليل - «كانت المدينة كلها مجتمعة على الباب» (مر ١ : ٣٣) .. وبعد أن بُهرت المرأة السامرية من كلامه إذ كشف لها خفايا حياتها، وذهبت تخبر أهل مدينتها، خرجوا من المدينة وأتوا إليه «وسألوه أن يمكث عندهم، فمكث هناك يومين» (يو ٤ : ٣٠، ٤٠). ويقدم مرقس الإنجيلي صورة رائعة لاقبال الناس عليه فيقول عن الناس انهم: «ابتدأوا يحملون المرضى على أسرة إلى حيث سمعوا انه هناك. وحيثما دخل إلى قرى أو مدن أو ضياع وضعوا المرضى في الأسواق وطلبوا إليه أن يلمسوا ولو هذب ثوبه. وكل من لمسه شُفى» (مر ٦ : ٥٥، ٥٦). وحين دخل أورشليم يوم أحد الشعانين «ارتحمت المدينة كلها قائلة من هذا» (مت ٢١ : ١٠) ... هذا عن سعى جماعات اليهود إليه، أما عن سعيهم كأفراد، فالإنجيل المقدس مليئة بذكر من قصدوه وشفاهم واراوحهم من اتباعهم ...

وسعى إليه أفراد من الأمم، منهم المرأة الكنعانية التى كشفت ل حاجتها عن إيمان عجيب، فاستحقت أن يقول لها المسيح: «يا امرأة عظيم إيمانك» (مت ١٥ : ٢٨). ومنهم قائد المائة الذى كان غلامه مريضاً، فاستحق من المسيح أن يشهد عنه قائلاً: «لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا» (مت ٨ : ١٠).

جـ - المسيح رجاء جميع المؤمنين بعد ارتفاعه إلى السماء :

في الاصحاح الأول من سفر أعمال الرسل، يسجل القديس لوقا خبر صعود السيد المسيح إلى السماء في اليوم الأربعين لقيامته من بين الأموات. فبعد أن ذكر كلمات

المسيح الأخيرة لرسله يقول: «ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون. وأخذته سحابة عن أعينهم»... أما هم فظلوا يشخصون إلى السماء إلى أن ظهر لهم ملاكان، أخبراهم أن السيد المسيح في مجيئه الثاني سيأتي من السماء هكذا على مثال صعوده. وحينئذ انصرفوا إلى اورشليم (أع ١: ٩-١٢).

هذا المنظر العجيب - منظر شخص رسل المسيح إليه وهو صاعد إلى السماء - إنما يصوّر رجاء المسيحيين في المسيح الذي صعد إلى السماء... أنهم مازالوا يشخصون بالمفهوم الروحي لذلك الذي قال عنه بولس: «المسيح رجاء المجد» (كو ١: ٢٧)، والذي قال: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلى الجميع» (يو ١٢: ٣٢)... هذا هو الكنز المخفي الذي حينما يجده الإنسان يمضي ويبيع كل شيء لكي يكتنيه (مت ١٣: ٤٤)... وإذا كان المسيح هو الكنز المخفي، فإن هذا يذكرنا بمقوله: «حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً» (لو ١٢: ٣٤).

ونلمس هذا الرجاء في المسيح والحنين إليه فيما كتبه الرسول بولس إلى أهل فيلبى: «لئلا اشتاء أن انطلق وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جداً» (ف ١: ٢٣). ونلمسه فيما قاله الرسول يوحنا: «أيها الأحباء الآن نحن أولاد الله ولم يُظَهَرْ بعد ماذا سنكون. ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا ستره كما هو. وكل من عنده هذا الرجاء، به يظهر نفسه كما هو ظاهر» (١ يو ٣: ٢، ٣)... ونفس هذا الرسول يوحنا يعبر عن ذلك أيضاً فيما كتبه كخاتمة لرؤياه، بل لكتاب العهد الجديد كله «آمين تعال أيها الرب يسوع» (رؤ ٢٢: ٢٠)...

والحق أن المسيحيين في عصر الرسل عاشوا على رجاء مجيء الرب يسوع الثاني القريب. وفهموا بطريقة حرفية كلمات الرسول بولس: «الرب قريب» (ف ٤: ٥). وبنفس الطريقة فهموا ما كتبه يوحنا في رؤياه: «لأن الوقت قريب» (رؤ ٢٢: ١٠)... «ها أنا آتى سريعاً» (رؤ ٣: ١١؛ ٢٢: ٧، ١٢، ٢٠)... وقد انعكس هذا المفهوم على حياة بعض المسيحيين في ذلك العصر، فتوقفوا عن ممارسة أعمالهم ليتفرغوا للعبادة انتظاراً لمجيء الرب القريب!! مثل هذا المفهوم وأسلوب الحياة دعا القديس بولس أن يكتب مصححاً هذا المفهوم... فكتب إلى أهل

تسالونيكي يقول: «ثم نسألكم أيها الأخوة من جهة مجيء ربنا يسوع المسيح واجتماعنا إليه، أن لا تتزعزعا سريعا عن ذهنكم، ولا ترنعاوا لا بروح ولا بكلمة ولا برسالة كانها منا، أى أن يوم المسيح قد حضر. لا يخدعنكم أحد على طريقة ما. لأن لا يأتى إن لم يأت الارتداد أولاً، ويستملن إنسان الخطية ابن الهلاك» (٢ تس ٢: ١-٣).

لم يتوقف هذا الاحساس، وهذا الرجاء في مجيء المسيح ... إن رجاء المؤمنين جميعاً واشواقهم متجهة نحو شخصه ... وهذا ما تعبر عنه الكنيسة المقدسة في كل قداس حينما تحتفل بالافخارستيا وتقديس الخبز والخمر ... «فيما نحن أيضاً نصنع ذكرى آلامه المقدسة وقيامته من بين الأموات وصعوده إلى السموات وجلوسه عن يمينك أيها الآب، وظهوره الثانى الآتى من السموات، المخوف المملوء مجداً. نقرب لك قربانك مما لك على كل حال ومن أجل كل حال وفى كل حال».

الرجاء والمسيح فى الأناجيل :

لم ترد كلمة الرجاء (هلبس) بتاتاً فى الأناجيل بالمعنى اللاهوتى الروحى كفضيلة. وقد وردت الكلمة بمعنى آخر خمس مرات فى الأناجيل (مت ١٢ : ٤٢ : ٦ : ٣٤ : ٢٣ : ٨ : ٢٤ : ٢١ : ٥ : ٤٥) ...

إن غياب هذه الكلمة من الأناجيل وتعليم المسيح أمر يلفت النظر جداً، خصوصاً حينما نتذكر - ليس فقط أن اليهودية التى ينتمى إليها المسيح بالجسد وتلاميذه، كانت ديانة رجاء، بل إن نتيجة تعليم رب المجد يسوع كانت تعميق وتوسيع هذا الرجاء، بما أضفاه عليه من غنى الإيمان المسيحى ... كان الرجاء الدينى عظيماً كما نرى ذلك واضحاً فى العهد القديم، لكنه يتضاءل إذا ما قورن « بالرجاء الأفضل » (عب ٧ : ١٩)، الذى يستند إلى كهنوت المسيح الملكى غير المتغير.

لا شك أن التلاميذ كانوا مأخوذين جداً فى حاضريهم بإحساسهم بعمق توقعات المستقبل. كانوا شبه مأسورين بمظلمة شخصية المسيح وعمق محبته، وتحققوا أن فيه رجاء إسرائيل. وإذا كان سمعان الشيخ حينما حمل الطفل يسوع على ذراعيه،

أحسن أن رجاءه قد تحقق، فإن التلاميذ، إذ وجدوا المسيح كانوا بلا شك مأخوذين به، وكانوا لا يفكرون في أى اشتياقات أو تطلعات تتعلق بالمستقبل.

لكن لماذا صمت المسيح الذى علم بضرورة الإيمان (مر ١١ : ٢٢ ؛ يو ٣ : ١٦)، وبضرورة المحبة (مت ٢٢ : ٣٧ - ٤٠)، صمت إزاء الرجاء... السبب أن المسيح فيما كان يدرّب أتباعه، كانت الضرورة الأولى أن يركزوا انتباههم على شخصه المبارك، كالشئ الذى فى حوزتهم، ولو أنه علمهم وبوضوح عما ينتظرهم من مجد فى آخر الزمان. إذاً فمعنى الرجاء موجود ضمناً فى تعليم المسيح، وإن كانت كلمة «الرجاء» كفضيلة روحية لم ترد بالمعنى الحرفى.

إرتباط الرجاء بالفضائل الأخرى :

يرتبط الرجاء بفضائل أخرى ... يرتبط بمحبتنا لله ، ويرتبط بالإيمان به ، ويرتبط بالتوبة ، ويرتبط بالفرح ، ويرتبط بالتعزية ...

أ - المحسبة :

الرجاء دافع وحافز نحو المحبة - محبتنا لله ... انه بمثابة انتظار الفجر ونور الصباح ... لكن علينا أن ننسب إلى نقطة هامة وهى اننا لن ندرك هذا دفعة واحدة... وثمة فارق هام ، وهو انه هناك فارق بين طريقة حسابنا فى حساب الزمن وطريقة الله ... ذلك ... نحن نبدأ حسابنا بالصباح ، بهجة شروق الشمس ، ثم يتقدم بنا النهار نحو الظلام والحزن ومأساة الليل ... لكن الاصحاح الأول من سفر التكوين يرينا الله خالق الأيام الستة ، وكيف انه يبدأ حساباته بالمساء «وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً» ... انه يبدأ حساباته بالمساء ثم يتقدم نحو الصباح ، ثم يصل إلى أوج الظهيرة ...

حرى بنا أن تشتمل حياتنا على هذا التدرج : من الآمال المحدودة ، ومن الحب المحدود ، الذى يشبه ضياء الصباح ، إلى وهج الظهيرة الذى يمثل الحب غير المحدود ... نحن ندخل إلى الحب غير المحدود عن طريق «باب الرجاء» ، الذى يتكلم عنه الله فى سفر هوشع (٢ : ١٥) ... هذا الدخول يعتبر بداية الامتلاك ،

إلا أنه ليس هو الامتلاك الكامل . (مع ملاحظة أن الحب غير المحدود هو الذى يستطيع أن يمتلكنا ، بينما لا نستطيع نحن أن نمتلكه) .

لنتذكر كلمات المسيح لملك كنيسة فيلادلفيا : « هنذا قد جعلت أمامك باباً مفتوحاً ولا يستطيع أحد أن يغلقة » (رؤ ٣ : ٨) ... هذا الباب المفتوح الذى لا يستطيع أحد أن يغلقة هو باب الرجاء وهو عينه الذى أشار إليه الله فى سفر هوشع ... إنه الباب الذى يقودنا إلى ملكوت الحب !!

وفى مجال عيبتنا لله لا شك أننا أضعنا فرصاً كثيرة ... لكن الرجاء يتدخل فلا يجعلنا نحزن ، ويُسِّر فى آذاننا قائلاً : إن هذه الفرص التى ضاعت لا تقارن بالفرص الجديدة التى سوف يقدمها لنا الله ... حتى لو أعطانى الله قبل انتقالى من العالم فرصة واحدة ، فإنه يمكننى أن استخدمها من أجل خلاص نفسى (اللص اليمين على الصليب) . ولو استخدمتها حسناً فسوف تعوضنى عما سبق وأضعته من فرص سابقة ... فى كل يوم ، وفى كل لحظة يفتح أمامنا باب الرجاء ...

ب - الإيمان :

الرجاء هو الفضيلة التى تتوسط بين الإيمان والمحبة . الإيمان يُظهر بنونتنا لله . والبنوة بحكم طبيعتها هى علاقة ثقة واتكال . هذه العلاقة - كما فى حياتنا الأرضية - تقوى بالرجاء . وكنتيجة لذلك تأتى المحبة كشيء محتوم . ومعنى ذلك أن الإيمان يَمُرُّ من خلال الرجاء إلى المحبة . يقول بولس الرسول : « فلنصُحْ لابسين درع الإيمان والمحبة وخوذة هى رجاء الخلاص لأن الله لم يجعلنا للغضب ، بل لاقتناء الخلاص ببرنا يسوع المسيح الذى مات لأجلنا » (١ تس ٥ : ٨ - ١٠) .

يقول القديس أغسطينوس عن علاقة الرجاء بالإيمان :

« الرجاء رفيق الإيمان . وهو ضرورى طالما أنك لا ترى ما تؤمن به ، خوفاً من أن تياس بما لا ترى فتفقد الإيمان ، انت تحزن لأنك لا ترى ، ولكن تمرّ لأنك ترجو أن ترى . فليكن الرجاء معك رفيقاً للإيمان ... فى الزمان الحاضر ضيق ، وفى المستقبل رجاء . فإذا لم تجد عزاءً فى رجاء المستقبل عن ضيق حادث لك الآن ،

هلكت لا محالة... في الحاضر تؤمن، وفي المستقبل ترى. طالما أنت تؤمن فالرجاء قائم في هذا الزمان... طالما أنت في هذا الجسد فأنت بعيد عن المسيح. أنت مسافر تتقدم بالإيمان وليس بالمشاهدة... خلاصك الآن قائم على الرجاء وليس على الحقيقة، لأنك لم تكن حتى الآن ما وعدت به بل ترجوه... المسيح يقول لك: رجاء الكفرة في الحاضر، ورجاؤك للمستقبل. رجاؤهم زائل ورجاؤك مضمون. رجاؤهم كاذب ورجاؤك حق... شيء الرجاء في قلبك واطرد منه عدم الإيمان... المؤمن لسان حاله يقول: أنا واثق يارب من مواعيدك. الماضية آمنت بها، والحاضرة عرفتھا، والمستقبله أرجوها... ها هنا أنت يا الله رجائي، وفي أرض الأحياء نصيبي.]

جـ- التوبة :

في بداية طريق التوبة، يحارب عدو الخير الإنسان باليأس. فيصعب أمامه طريق التوبة من ناحية، ومن ناحية أخرى يكشف أمامه ماضيه بكل ما فيه من خطايا بشعة. انه يحاول جهده أن يدخل اليأس إلى نفسه، لكي ما يعود إلى الخطية وهو في بداية طريق التوبة... والرجاء نافع جداً للإنسان في هذه المرحلة... الشيطان يجذبه بشدة للخلف، والرجاء يعطيه دفعات قوية للأمام... لقد أخطأ كل من يهوذا الاسخريوطي وسمعان بطرس خطيئة شنيعة. فالأول باع معلمه واسلمه مقابل ثلاثين من الفضة، والثاني أنكر المسيح وجذف عليه وشنمه أمام جارية حقيرة وليس أمام وال أو حاكم أو ملك... لكن سمعان بطرس أحس بخطأه وتندم ندماً شديداً وبكى بكاء مرأ، فقبله المسيح وردّه إلى رتبته الرسولية ثانية بقوله له: «ارفع غنمي، ارفع خرافي»... أما يهوذا ففقد رجاءه وذهب وانتحر. ولو تاب يهوذا وتندم لقبلة المسيح على نحو ما قبل بطرس وكل الخطاة... وقد عبر بطرس عن رجائه في رسالته الأولى بقوله: «القوا رجاءكم بالتعام على النعمة التي يؤتي بها إليكم» (١ بط ١: ١٣)... «قدسوا الرب الإله في قلوبكم مستعدين دائماً لمجاوبة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم بدعاة وخوف» (١ بط ٣: ١٥).

وأورد كتاب بستان الرهبان قصة أخ كان ساكناً في دير. وانه من شدة حرب

الشهوة كان يسقط في الزنى مراراً كثيرة. فظل يُكره نفسه ويصبر كيلا يترك طريق الرهينة. ومن أجل ذلك كان حريصاً على إقام قانون عبادته من مزامير وأصوام ومطانيات. وكان يقول في صلاته: [يارب أنت ترى شدة حالي وشدة حزني فانتشلني يارب إن شئت أنا أم لم أشأ، لأنني مثل الطين اشتاق إلى الخطية واحبها. ولكن أنت الإله القوى الجبار اجعلني أكفّ عن هذه النجاسة، لأنك إن كنت ترحم القديسين وحدهم فليس هذا بمجيب، وإن كنت تتخلص الأطهار فقط فما الحاجة، لأن أولئك مستحقون. ولكن اظهر فيّ أنا الغير مستحق عمل رحمتك العجيبة، لأنني إليك أسلمت نفسي] ... هذه الصلاة كان يرددها كل يوم سواء أخطأ أو لم يخطئ. وفي ذات يوم وهو يردد هذه الصلاة حدث أن «ضجر الشيطان من حُسن رجائه ووقاحته المحمودة، فظهر له وجهاً لوجه وهو يرتل مزاميره» وقال له: [أما تحزني أن تقف بين يدي الله بالجملة وتسمى اسمه بفمك النجس؟]. قال له الأخ: [ألست أنت تضرب مرزبة وأنا أضرب مرزبة؟ أنت توقعني في الخطية وأنا أطلب من الله الرحوم أن يتحنن عليّ، فأنا اضاربك على هذا الصراع حتى يدركني الموت، ولا اقطع رجائي من إلهي. ولا أكف من الاستعداد لك. وسنتظر من يقلب أنت أم رحمة الله]. فلما سمع الشيطان كلامه قال له: [من الآن لا أعود إلى قتالك، لكلا سبب لك أكاليل نتيجة رجائك في إهلك]. وتنحى عنه الشيطان منذ ذلك اليوم... ورجع ذلك الأخ إلى نفسه وأخذ ينوح ويبكي على خطاياها السالفة. وكان إذا حارب بأفكار العظيمة كان يتذكر خطاياها التي عملها. وإذا حارب بأفكار اليأس كان يترجى الله ويتذكر محبته للخطاة.

يقول القديس أغسطينوس: [إن لم تكن الخطية قد انتزعت منك، فيجب ألا يُنتزع منك الرجاء في الغفران... مازالت أمواج البحر تتقاذفنا، غير أننا القينا مرساتنا في أرض الرجاء].

د - الفرح والتعزية :

الرجاء يُنشئ في القلب سلاماً وفرحاً، على نحو ما يقول الرسول بولس إلى أهل رومية: «فرحين في الرجاء» (رو ١٢: ١٢) ... فعدم الإيمان يُسبب قلقاً، والخطية

تنزع السلام من النفس، أما الرجاء فيهدئ القلب ويسكنه ويحل الفرح على القلب والحزن. كما يملأ الرجاء قلب الإنسان بالتعزية... يقول القديس أغسطينوس: [الرجاء ضروري لك أيها المسافر، وعزاء لك في الطريق. حين تتعب في سفرك تحمل اتعبك على أمل الوصول. انزع عنك الأمل في الوصول، تفقد للحال القدرة على السير... أنت تعمل الآن ما يُرجى منه ثمر، ثم تذوق ثمرة عملك. ومع انك تأكل أتعاب أعمالك فأنت سعيد. وكم تكون سعيداً أوان الحصاد؟ إن كان للرجاء هذا القدر من العذوبة، فما أعذب الحقيقة؟].

إن موضوع قيامة السيد المسيح من بين الأموات يقدم فكرة عظيمة عن الرجاء... هذه الفكرة هي انه مهما ساد الموقف الظلام، وتعقدت الأمور، واشتدت الضيقات، وكثر الأعداء، وقالوا: «ليس له خلاص بإلهه» (مز ٣)، فهناك - رغم ذلك كله - لنا رجاء في المسيح المخلص. إن الفرح يجتمع مع الرجاء. لقد بذل المسيح حزن تلاميذه إلى فرح، وطمان الخائفين الذين كانوا يحكمون اغلاق أبواب نوافذ وأبواب العلية، فإذا بالمسيح يقف في وسطهم ويقول لهم: «سلام لكم». لقد ذهبت مريم المجدلية ومعها الحنوط إلى قبر المسيح فجر الأحد «والظلام باقٍ»... ولما رأت القبر فارغاً، أسرعت واخبرت بطرس ويوحنا. وبعد أن عاينا انصرفا، «أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجاً تبكي» لم تنصرف بسرعة كان لها رجاء في رؤية سيدها وحبيبها. ومن أجل رجائها رأت ملاكين في القبر، ثم بعدها رأت الرب يسوع نفسه وكلمها، وكانت أول من رآته، وكانت أول من بشر التلاميذ بالقيامة المجيدة (يو ٢٠).

لماذا نترجى الله ؟

نحن نترجى الله بالنظر إلى بعض صفاته ووعوده للإنسان ...

أ - قدرة الله :

من صفات الله أنه كلى القدرة أو قادر على كل شيء ... ولذا فنحن نرجوه من هذه الوجهة ... وطبعاً ان الإنسان لا يرجو شيئاً أو أمراً من إنسان ضعيف

لا يملك القدرة ... هكذا اختبر رجال الله قدرة الله وتغنوا بها والتمسوها ...

يقول المرتل : « اطلبوا الرب وقدرته . التمسوا وجهه دائماً » (مز ١٠٥ : ٤) ...
ويقول داود النبي : « يباركك اتقياؤك . بمجد مُلكك يتطقون وبجبروتك يتكلمون .
ليعرفوا بنى آدم قدرتك ومجد جلال مُلكك » (مز ١٤٥ : ١٠ - ١٢) ... إن الله في
سفر إشعياء يتساءل في دهشة : « هل قَصَرَتْ يدي عن الفداء . وهل ليس فيَّ قدرة
للتناقص » (إش ٥٠ : ٢) ... ويصلي القديس بولس من أجل أهل أفسس لتستنير
عيون أذهانهم ليعلموا « ما هو رجاء دعوته ، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين . وما
هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين ، حسب عمل شدة قوته » (أف ١ :
١٦ - ١٩) ... وحينما يتكلم بطرس الرسول عن الله يشير إلى أن « قدرته الإلهية قد
وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى بمعرفة الذي دعانا بالمجد والفضيلة » (٢ بط
١ : ٣) .

حينما يحس الإنسان أنه يضع رجاءه في أمر من الأمور في الله القادر على كل
شيء ، حينئذ تهدأ نفسه ويستريح ، عالماً وموقناً أن أموره هي بين يدي إله قادر
على كل شيء ... وكون الله قادر على كل شيء ، فهو قادر على حفظنا من الأشرار
ومؤامراتهم ومن الشيطان وكل فخاخه ، وهو بالجملة قادر أن يدبّر كل أمورنا
حسب كلمته .

ب - محبة الله :

إن إيماننا بمحبة الله للبشر عامة ، وللخطاة خاصة ، يجعلنا نتقدم إليه في رجاء .
نؤمن بمحبة الله لنا ، من أجل ذلك نرجوه ... إن كلمات السيد المسيح إلى ملاك
كنيسة فيلادلفيا تشجعنا وتملأ قلوبنا رجاءً ، وتكشف عن المحبة الإلهية التي تُريد
وتقوّي رجاءنا فيه ... « هذا يقوله القدوس الذي ... يفتح ولا أحد يغلق ، ويغلق ولا
أحد يفتح . أنا أعرف أعمالك . هذا قد جعلت أمامك باباً مفتوحاً ولا يستطيع أحد
أن يُغلقه ... لأنك حفظت كلمة صبري ، أنا أيضاً سأحفظك من ساعة التجربة »
(رؤ ٣ : ٧ - ١٠) .

جـ - مواعيد الله :

ما أكثر وعود الله لنا . إن الكتاب المقدس بهديه ملء بوعود الله ، التي يصفها القديس بطرس بأنها «عظمى وثمينة» (٢ بط ١ : ٤) ... والله صادق في مواعيده لأنه «ليس إنسان فيكذب ولا ابن إنسان فيندم» (عدد ٢٣ : ١٩) ... وهو لا يتباطأ عن وعده (٢ بط ٣ : ٩) ... إن كل مواعيد الله الطيبة هي لك إن أنت أحببته «فكل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله ، الذين هم مدعوون حسب قصده» (رو ٨ : ٢٨) . لذلك يقول بولس الرسول : «لنتمسك بإقرار الرجاء واسخاً لأن الذي وعد هو أمين» (عب ١٠ : ٢٣) ... نعم إن الله صادق في كل ما أعطانا من مواعيد ... وصدق سليمان في صلاة تدشين الهيكل الذي بناه حينما قال : «مبارك الرب الذي أعطى راحة لشعبه ... ولم تسقط كلمة واحدة من كل كلامه الصالح» (١ مل ٨ : ٥٦) ... وصدق يشوع فيما قاله لشيخ إسرائيل في كلامه الوداعي حينما شاخ : «وها أنا اليوم ذاهب في طريق الأرض كلها وتعلمون بكل قلوبكم وكل أنفسكم أنه لم تسقط كلمة واحدة من جميع الكلام الصالح الذي تكلم به الرب ... لم تسقط منه كلمة واحدة» (يش ٢٣ : ١٤) .

د - عناية الله :

ونحن نترجى الله من أجل عنايته بنا ... فلقد قال : «لا املك ولا أتركك ، حتى اثنا نقول واثقين الرب معيناً لي فلا أخاف ماذا يصنع بى إنسان» (عب ١٣ : ٥ ، ٦) .. لقد اختار له اسماً في التجسد يعبر عن انه معنا دائماً «ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا» (مت ١ : ٢٣) ... ما أحلى وعود الرب التي بها يعبر عن عنايته بأولاده . يقول بقم إشعياء النبي : «هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها . حتى هؤلاء ينسبون وأنا لا أنساك . هوذا على كفى نقشتك» (إش ٤٩ : ١٥ ، ١٦) . ويقول بلسان زكريا النبي : «من بمسكم بمس حذقة عينه» (زك ٢ : ٨) ... إن آخر وعد أعطاه الرب يسوع لنا في شخص تلاميذه : «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨ : ٢٠) ... ويقول المرتل : «الاتكال على الرب خير من الاتكال على البشر . والرجاء بالرب خير من الرجاء بالرؤساء» (مز ١١٨ : ٨ ، ٩) .

لقد وعد السيد المسيح ان أبواب الجحيم لن تقوى على الكنيسة (مت ١٦ : ١٨) ... وقال عن المؤمنين به : « لا يخطفها أحد من يدي . أبى الذى أعطانى إياها هو أعظم من الكل ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبى » (يو ١٠ : ٢٨ ، ٢٩) ... لقد رآه يوحنا فى الرؤيا « شبه ابن الإنسان فى وسط السبع المناير ومعه فى يده اليمنى سبعة كركب ... نعم إن الرب يسوع المسيح مازال وسط كنيسته ، ومازال يمسك بخدام الكتائس وبأولاده (رؤ ١) .

لما يُقَوِّى فِينا الرجاء :

الرجاء شأنه شأن بقية الفضائل ينمو ... يقول بولس الرسول إلى أهل رومية : « ولئلاكم إله الرجاء كل سرور وسلام فى الإيمان لتزدادوا فى الرجاء بقوة الروح القدس » (رو ١٥ : ١٣) ... وإذا كان الرجاء ينمو فما الذى ينميّه فِينا ؟

أ - الوقوف على صفات الله والتفكر فيها لا سيما محبته ورحمته وعنايته بأولاده . وقد اشرنا إلى ذلك فى النقطة السابقة .

ب - القراءة فى الكتب المقدسة ... يقول الرسول بولس : « لأن كل ما سبق فُكِّبَ كتب لأجل تعليمنا ، حتى بالصبر والتعزية بما فى الكتب يكون لنا رجاء » (رو ١٥ : ٤) .

ج - الضيقات والصبر ... وهذه من شأنها أن تقوّى رجاءنا فى الله ... يقول الرسول بولس : « عالمين أن الضيق يُنشِئ صبراً ، والصبر تزكية ، والتزكية رجاء ، والرجاء لا يخزى » (رو ٥ : ٣ - ٥) ...

حدث انه فى السنة الرابعة عشرة للملك حَزَقِيَّا صعد سنحاريب ملك آشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها . وأرسل حزقيا إلى ملك آشور يقول : « قد أخطأت أرجع عني ومهما جعلت علىّ حملته » ، ففرض عليه غرامة باهظة ، حتى أن حزقيا دفع جميع الفضة الموجودة فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك ، وقُشِّر الذهب عن أبواب هيكل الرب والدعائم التى كان قد غشاها ودفع الجميع إلى ملك آشور ... ورغم ذلك أرسل سنحاريب ملك آشور جيشاً عظيماً إلى اورشليم ... وقال قائد جيش سنحاريب

لرجال حزقيا: «قولوا لحزقيا هكذا يقول الملك العظيم ملك آشور، على من اتكلت حتى عصيت على» ... وعبر الله الحى !!

فلما سمع الملك حزقيا ذلك الكلام مزق ثيابه وتغطى بمسح ودخل بيت الرب، وأرسل بعض ماشيته رسل شيوخ الكهنة متغطين بمسح^{١١} إشعياء النبي يسألونه أن يرفع الله عن البلاد هذه الغمة ... وعاد أيضاً قائد^{١٢} سنحاريب يهدد حزقيا قائلاً: «لا ينجذك إلهك الذى أنت مرسى^{١٣} يه ...». فأخذ حزقيا الرسائل من أيدى الرسل وقرأها ثم صعد إلى بيت الرب، ونشرها حزقيا أمام الرب وصلى للرب قائلاً: «امل يارب اذنك واسمع. افتح يارب عينيك وانظر واسمع كلام سنحاريب الذى أرسله ليعبر الله الحى ... والآن أيها الرب إلهنا خلصنا من يده فتعلم ممالك الأرض كلها أنك أنت الرب الإله وحدك» ... فأرسل إشعياء إلى حزقيا قائلاً: «هكذا قال الرب إله إسرائيل الذى صليت إليه من جهة سنحاريب ملك آشور. قد سمعت» ...

وحدث فى تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش آشور مئة وخمسة وثمانين ألفاً. ولا بكرؤا صباحاً إذا هم جميعاً جثث ميتة. فانصرف سنحاريب ملك آشور وعاد راجعاً إلى نينوى. وفيما هو ساجد فى بيت إلهه نسرؤخ ضربه ابناءه بالسيف ومات (٢ مل ١٨، ١٩) ...

هكذا نرى كيف أن الضيقة العظمى التى وقع فيها حزقيا كانت سبباً فى تقوية رجائه فدخل إلى بيت الرب ونشر أمامه رسائل سنحاريب، ولسان حاله يقول للرب: «إلى من أذهب أنت معين من ليس له معين ورجاء من ليس له رجاء».

د - قراءة الكتب الروحية ، لا سيما سير رجال الله ومعاملاته معهم ... هؤلاء القديسون الذين - رغم شدة الحروب والتجارب التى واجهوها ، لم ينقطع الرجاء من قلوبهم فى الله ، دون أن يشكؤا لحظة فى عبه وعنايته ، ووثقوا أن الله إنما يجربهم لخيرهم ، ولأجل المنفعة لكى يشتركوا فى قداسته (عب ١٢ : ١٠) ... وظلوا فى انتظارهم لله حتى رفع عنهم التجارب أو أعطاهم سؤل قلوبهم : «نفسى تنتظر الرب أكثر من أنظار الحراس للصبح والساهرين للفجر» (مز ١٣٠) ... «انتظر الرب ليتشدد وليتشجع قلبك وانتظر الرب» (مز ٢٧).

المسيح رجاء المتعبين :

أ - رجاء المرضى :

ما أكثر المرضى الذين لم يَحْتِيبَ المسيح رجاءهم فيه وشفاهم من أمراضهم ... لكننا نقدم ثلاثة أمثلة : مريض بيت حسدا ، المرأة الكنعانية ، المرأة نازفة الدم ...

● **مريض بيت حسدا :** هذا المريض عانى من المرض طويلاً . مكث ٣٨ سنة . ويبدو أنه إلى جانب آلام الجسد ، كان يعانى من آلام نفسية ... لقد كشف المسيح سر هذا المرض بعد شفائه . كان سبب مرض ذلك الرجل هو الخطية . لقد قال له المسيح ذلك صراحة : « ها أنت قد برئت ، فلا تخطئ أيضاً ثلثاً يكون لك أشر » (يو ٥ : ١٤) ... ولقد كان اليهود لا يتعاملون مع الخطاة ، خاصة من يظنون أنفسهم أبراراً ، ولذلك كانوا يأخذون على المسيح أنه يجالس الخطاة ويأكل ويشرب معهم . ولذا فالمرجح أن هذا الإنسان - كخاطيء - في نظر بنى جنسه كان معزولاً . يعيش وحده . حتى انه حينما مثل من المسيح : « أتريد أن تبرأ » ، كان جوابه على الفور : « يا سيد ليس لى إنسان » . ويبدو ان الناس من طول المرض الذى عانى منه ، انفضوا من حوله . فالمدّة طويلة جداً ، ثمان وثلاثون سنة !! لقد تخلّى الناس عن ذلك المريض ، وكان المسيح وحده هو رجاؤه . كانت كل آمال ذلك المريض أن يلقيه أحد في ماء البركة بعد أن يحركها الملاك . لكن إله الملائكة علم بمعاناته وأتاه دون أن يطلبه . وبكلمة واحدة أبرأه « قم احمل سريرك وامش » .

● **إنّة الكنعانية :** والمرأة الكنعانية كانت أمية وثنية . وكانت ابنتها بها روح نجس أصابها بالجنون الشديد ... هذه المرأة تعلقّت بالمسيح برجاء عجيب من أجل شفاء ابنتها ... والحديث الذى دار بينها وبين المسيح - على ظاهره - لم يكن حديثاً ودياً مشبعاً بالمطف على عكس عهدنا بالمسيح في معاملاته مع الآخرين ... حتى حينما شبهها المسيح بالكلاب لم تفقد رجاءها ، وظلّت على لجأتها ، حتى ظفرت في النهاية بما أرادت : « يا امرأة عظيم إيمانك . ليكن لك كما تريد » فشفيت ابنتها من تلك الساعة !! (انظر مت ١٥ : ٢١-٢٨ ؛ مر ٧ : ٢٤-٣٠) .

● نازفة الدم : وهذه هي الأخرى عانت من المرض الجسدى والألم النفسى ... فقد ظلت تنزف مدة اثنتى عشرة سنة ، وأنفقت كل ما تملك على الأطباء ، وللأسف كانت حالتها تزداد سوءاً ! هذا فضلاً عن معاناتها من عزلتها عن المجتمع . فقد كانت معتبرة حسب الشريعة نجسة ، وتُنجس كل ما تنام عليه أو تجلس عليه ، بل إن كل من كان يمس فراشها يتنجس (لا ١٥ : ١٩ - ٣٢) . وعلى الأرجح - إذا كانت متزوجة - طلقت من زوجها حسب تعليم معلمى الشريعة اليهودية ... هذه المرأة فى بؤسها صارت بلا رجاء ... سمعت عن يسوع وقالت فى نفسها : إن مسست ثوبه فقط شُفيتُ ... هذه لم تجد فى نفسها الجرأة والشجاعة أن تتقدم للمسيح تطلب منه الشفاء ، فهى المرأة النجسة ، المنبوذة من مجتمعها ... لذا لم يكن أمامها سوى أن تدس وسط الجموع المزدحة حوله لتلمس هذب ثوبه ... لقد ظنت فى نفسها أن المسيح لن يمس بها ... بل إن التلاميذ أنفسهم حينما قال المسيح : « من لمس ثيابي » ، ردّ عليه تلاميذه مستنكرين : « أنت تنظر الجمع الذى يزحك وتقول من لمسنى » . لكن المسيح أحسّ بلمسة إيمان قد تعلّقت به ... كان المسيح رجاء هذه المرأة البائسة لقد شفاها من علتها بكلمة : « يا ابنة إيمانكِ قد شفاكِ . إذهبي بسلام ، وكوني صحيحة من دالكِ » (انظر مت ٩ : ٢٠ - ٢٢ مر ٥ : ٢٥ - ٣٤ ؛ لو ٩ : ٤٣ - ٤٨) .

٢ - رجاء الخطاة :

وهل نعو ما كان المسيح له المجد رجاءً للمرضى ، فقد كان رجاء للخطاة ... وغير مثل يقدمه لنا الإنجيل المقدس ، هو لقاء المرأة الخطاة بالمسيح فى بيت سمعان القريسي ، والذى دونه لنا القديس لوقا فى بشارته (لو ٧ : ٣٦ - ٥٠) ... يقول عنها لوقا : « امرأة فى المدينة كانت خاطئة » . هذه المرأة علمت أن الرب يسوع متكئ فى بيت سمعان القريسي ، « فجاءت بقارورة طيب ، ووقفت من ورائه باكية ، وابتدأت تبلّ قدميه بالدموع ، وكانت تمسحهما بشعر رأسها وتقبّل قدميه ، وتدهنهما بالطيب » ...

هذه المرأة لم يكن لها أدنى رجاء فى حياة مقدسة ... لقد كانت حياتها مكشوفة لكل أهل مدينتها . لقد ضاعف من ثقل خطاياها نظرة الناس إليها .

ليس من يمد يده ليتشغل نفساً تردت في هاوية الرذيلة ... جاءت إلى بيت الفريسي ...
ومعلوم ماذا تكون نظرة ذلك الفريسي وحكمه عليها . وهذا ما تكشفه القصة . فلما
رأى الفريسي تصرفات المرأة الخاطئة نحو المسيح ، وهو لا ينفر منها ولا ينتهرها ، بدأ
يقول في نفسه : « لو كان هذا نبياً لعلم من هذه المرأة التي تلمسه وما هي . إنها
خاطئة » ...

كانت أفكار الفريسي غير المقدسة وشحّه في المسيح ، سبباً في أن يكشف محبة تلك
المرأة الخاطئة للتوبة ، ولشخصه ، الذي يقدر أن يريح نفسها ويهبها الغفران ، إزاء محبة
ذلك الفريسي الضعيفة للرب !! ...

كانت تلك المرأة الخاطئة تحسّ بآثامها الكثيرة ، وجاءت إلى السيد المسيح في
خزي عظيم ، لذا وقفت من ورائه حياءً وخجلاً ... لكن المسيح الذي جاء ليخلص
الخطاة ، وهو فاحص القلوب ، الذي علم أن تلك المرأة وضعت كل رجائها
فيه ، بعد أن نبذها المجتمع ، لم يجتنب رجاءها فيه ... بل كشف عن محبتها
وعظم ندمها وتوبتها وغفر لها خطاياها ، وأضاف قائلاً للمرأة : « إيمانك قد
خلصك . إذهبي بسلام !! »

٣ - رجاء المتألمين :

ونقدم مثلين على ذلك ... إقامة المسيح له المجد للشباب ابن أرملة نايين (لو
١١ : ١٧) ومشاعره تجاه مرثا ومريم أختي لعازر الذي مات (يو ١١) .

• لم يكن تحرك السيد المسيح عشوائياً ، بل كان تحركه بهدف . ومن أمثلة
ذلك ذهابه من مدينة كفرناحوم إلى مدينة نايين ... أحسّ أن هناك امرأة تُكلّي
فقدت وحيدها الشاب . ولنا أن نحسّ بمدى الحزن الذي كان يعتصر قلب تلك
الأم ... إنه شاب ثم انه وحيدها ... هل يستطيع المعزّون أن يدخلوا العزاء إلى قلبها ... لا
أعتقد . فكثيراً ما يكون كلام المعزين متعباً وملهباً للمشاعر . وصدق أيوب حينما قال
لأصحابه الذين جاءوا إليه يعزونه في محنته : « معزّون متعبون كلكم » (أي ١٦ : ٢) .
لقد أدرك الشاب عمولاً في النعش وهم في طريقهم إلى المقابر ، قبل أن يواروه
التراب ... يقول القديس لوقا : « فلما رآها الرب تحنن عليها ، وقال لها لا تبكي . ثم

تقدم ولمس النمش فوقف الحاملون. فقال أيها الشاب لك أقول قم. فجلس الميت وابتدأ يتكلم، فدفعه إلى أمه.»

لا أظن أن تلك الأم الثكلى كان يراودها أى أمل فى أن يعود إليها الشاب إلى الحياة. وماذا يُجدى البكاء والدموع... لكن المسيح، الذى هو رجاء من ليس له رجاء، نحن على المرأة وطلب إليها ألا تبكى وأقام ابنها ودفعه إليها حياً..

• ومن أمثلة المسيح رجاء المتألمين، مرثا ومريم أختا لعازر اللتان كانتا منذ اللحظة الأولى لمرض أخيهما متعلقتين بالمسيح. فحينما مرض لعازر: أرسلت الأختان إليه قائلتين: يا سيد هوذا الذى تحبه مريض (يو ١١: ٣). لكن المسيح تباطأ فى الذهاب لكى يتمجد بإقامة لعازر من القبر. ذهب المسيح إلى بيت عنيا، وكان لعازر قد مات. وحالما لاقته مرثا قالت له: «يا سيد لو كنت ههنا لم يميت أخى. لكنى الآن أيضاً أعلم أن كل ما تطلبه من الله يعطيك الله إياه»... وحينما لاقى مرثا الرب يسوع قالت له نفس كلام أختها: «يا سيد لو كنت ههنا لم يميت أخى»... إن هذا الكلام يوضح مدى الرجاء الذى كان فى هاتين الأختين فى شخص الرب يسوع. إنه رجاء لم يقف عند حد إمكان شفاء المسيح للعازر وهو بعد مريض، بل امتد إلى ما بعد الوفاة... ونحن نعلم ماذا فعل الرجاء فى النهاية. لقد قام لعازر بكلمة المسيح الآمرة «لعازر هلم خارجاً».

٤ - رجاء المنبوذين :

إن كنا قد تكلمنا عن المرأة الخاطئة فى بيت سمعان الفريسي تحت عنوان «المسيح رجاء الخاطئة»، لكننا فى نفس الوقت مثال للمسيح رجاء المنبوذين... فالمرأة كانت خطيئتها علنية ومعلومة لأهل مدينتها. وبالتأكيد كانت منبوذة من مجتمعتها. ورأينا كيف قبلها المسيح، وردّها إلى طريق الصلاح...

• وهناك قصة المولود أعمى بعد المعجزة العظيمة التى صنعها معه السيد المسيح بأن خلق له عينين من الطين وأسكن فيهما النور بكلمته... لقد تمت هذه

المعجزة في يوم سبت . وثارت مجادلات ومناقشات بين الفريسيين من ناحية وبين المولود أعمى ووالديه من ناحية أخرى . لأن المسيح في نظر الفريسيين « ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت » ... وكان موقف الوالدين مزرياً حينما تنصلاً من الكلام في المعجزة خوفاً من اليهود الذين تكتلوا وقرروا انه إن اعترف أحد بأن يسوع هو المسيح يخرجونه من المجمع ... وكان موقف المولود أعمى عظيماً ، اعترف فيه بكل ما صنعه المسيح معه ودافع عن صلاحه « منذ الدهر لم يُسمع أن أحداً فتح عينى مولود أعمى . لو لم يكن هذا من الله لم يقدر أن يفعل شيئاً » . فأخرجوه خارج المجمع ... والطرده من المجمع عقاب شديد عند اليهود ...

ماذا فعل المسيح « سمع يسوع أنهم أخرجوه خارجاً فوجده وقال له أتؤمن بابن الله . أجاب ذاك وقال من هو يا سيد لأؤمن به . فقال له يسوع قد رأيت والذى يتكلم معك هو هو . فقال أؤمن يا سيد وسجد له » (يو ٩) ... نعم لقد كان المسيح رجاء ذاك الذى نبذه اليهود وطرده من مجملهم . إنه عقاب أشبه بالحرمان الآن ...

● وهناك قصة المرأة التى أمسكت فى ذات فعل الزنا ، وأحضرتها له الكتبة والفريسيون ليسمعوا حكمه عليها ... كانت الشريعة تقضى بأن تُرجم مثل تلك المرأة ... لكن ماذا فعل المسيح معها ومعهم ... أما المشتكون عليها فقد لقتهم درساً أن يبحثوا عن خلاص أنفسهم حينما كشف لهم خطاياهم وقال لهم : « من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر » ... لقد انصرف الجميع وانسحبوا فى خزى حينما كشف المسيح خطاياهم المخبوءة ، وبقيت المرأة بمفردها مع المسيح ، فقال لها : « يا امرأة أين هم أولئك المشتكون عليك . أما دانك أحد . فقالت لا أحد يا سيد . فقال لها يسوع ولا أنا أدينك . إذهبي ولا تحفظي أيضاً » (لو ٨ : ٣ - ١١) .

لقد افلكت هذه المرأة من الموت بأعجوبة . حينما وقعت فى أبدى أولئك الفريسيين ، كانت لا محالة ستواجه عقوبة الموت رجماً بالحجارة ... وكان المسيح لها هو الرجاء الذى انقذها من موت الجسد ومن موت الخطية .

أمثلة لأشخاص تعلقوا بالرجاء :

١ - البارة مونيكا :

هى أم القديس أغسطينوس الذى وصل إلى أعماق سحيقة فى الخطية ، ثم تاب وبلغ سمو الفضيلة ... لقد افتقد الله هذه النفس من أجل صلوات أمه البارة ولجأحتها ... ولكن ما يهمنا أن نتكلم عنه فى هذا المقام هو رجاؤها فى توبة ابنها والذى تحقق بصلواتها وسعيها الدائب من أجله ...

لم يكن ابنها وحده هو الذى تعلقت من جهته برجاء عجيب فى الله ، بل ان هذا الرجاء بدأ يظهر ثماره أولاً فى زوجها ، ثم نالق فى ابنها أغسطينوس ... تزوجت من زوج وثنى شرير ، وكانت أمه على شاكلته وحتى الخدم أيضاً ... لكنها اعتبرت ذلك صليبيها الذى يجب عليها أن تحمله فى شكر ، ووضعت رجاها فى الله الذى يستطيع كل شيء . وبالفعل استطاعت أن تكسبه وصار مسيحياً ... بل صارت فى رجائها فى الله وعجته لخلاص الخطاة تشدد وتشجع النساء الأخريات اللاتى كان هنّ أزواج على شاكله زوجها .

وبعد وفاة زوجها انحرف اغسطينوس ابنها انحرافاً شديداً ... طلبت إلى أسقف مدينتها أن ينصحه لكى يردّه ، لكنه اعتذر لأنه كان يعلم أنه لا جدوى من النقاش مع إنسان يعتد بعقله وذكائه . ترك مسقط رأسه بشمال أفريقيا وذهب إلى روما حيث الشهرة ، ولم تُجِدْ توسلاتها إليه فى أن يبقى إلى جوارها ، ولم تكن هناك بارقة أمل فى توبته بعد أن تردى فى هاوية الرذيلة إلى أعماق أعماقها !!

ظلت مونيكا متعلقة برجائها مدة عشرين سنة تصل بدموع وتركض وراة - وهو الابن الضال - من بلد إلى بلد ، وتسأله أن يترك طريق الشر بلا تدمير أو بأس ... أخيراً تحقق رجاؤها وأتت الصلوات والدموع بثمارها ، حين قبل ابنها الإيمان ، وتعهد على يد أسقف ميلانو العظيم امبروسىوس . وسافرت هى إلى ميلانو وحضرت عماد ابنها ، وكانت فرحتها حينئذ لا توصف ... عاد الابن إلى أفريقيا ، وعادت هى معه ... وكانت شهوة قلبها أن تنطلق من هذا العالم .

وبالفعل حقق الله شهوتها وانطلقت نفسها إلى المجد بعد أيام ، وكان لها من العمر ست وخمسين سنة...

يقول عنها أغسطينوس بعد توبته مناجياً الله : [أمى التقية قد تكلمت . وصوتها على ما أرى كان صدى صوتك . فإنها كانت تلج على بشدة لاعتزل الغواني وكل أنواع الفجور . وأما أنا فما كنت أعيرها أذنأ صاغية ، ولا أكثرث بأقوالها ، لأنها أقوال امرأة ، بينما هى صادرة من لذلك . فكان امتهانى لها امتهاناً لك . وعدم اعتبارى لها ، عدم اعتبار لأقوالك ... باتت أمى تبكى على بكاء فاق بكاء الأمهات على فقد أولادهن بالموت الجسدى . وأنت يا مولاي قد استمعت لها . ولم تزل تلك الدموع التى كانت تذرقتها فى صلواتها بين يديك ، حتى كانت تبلل وجه الأرض من مدامعها] .

٢ - المرحوم جندى قام :

كان يعتبر المرحوم جندى قام من الأبرار المعاصرين . كان يعمل ناظر محطة بالسكة الحديد ، وقد نتج منذ نحو خمس عشرة سنة ... ربطتنى به محبة قوية رغم فارق السن . تعلقت بمحبته من أجل تقواه واستقامته وطيبته ... كنت أشكو من الهضم والمعدة . فقال لى : [منذ مدة كنت أعانى من آلام فى معدتى ، حتى شرب الماء كانت معدتى لا تحتمله . لكن بعدما حظ أبو جريس (يقصد مار جرجس) يده فى داخلى حتى انتهت كل تلك الآلام بالتبعية] ... سألته عن قصة أبو جريس فروى لى قصة المعجزة الآتية ...

مرض بالكبد - وكان فى ذلك الوقت معانواً بمحطة سكة حديد السَّقْطَة قرب دشنا بالوجه القبلى - وحدث ذلك منذ نحو ستين عاماً ... واتضح انه يعانى من خراج فى الكبد ... وعرض نفسه على أطباء كثيرين ، وأجمع الجميع على وجوب عمل عملية جراحية فى الكبد . وكانت نتيجة هذه العملية فى ذلك الوقت - قبل ظهور المضادات الحيوية - هى واحد فى الألف ... وناء على ضعف الأمل فى نجاح العملية رفض الفكرة .

في صباح يوم أحد ، أحس بتعب شديد جداً ، فلم يقوَ على الذهاب إلى الكنيسة ، وكان عليه أن يلتقي عظة القدامس ... فمن شدة التعب القى بنفسه على الفراش وقال : [أنا لا رايح كنيسة ولا حاجة] ... نام ، وفي نومه رأى حلماء ... رأى إنساناً يلبس ثياباً بيضاء كالأطباء الذين يجرون عمليات جراحية ... وقال له : [قم . فيه حد ينام يوم الأحد ولا يذهب إلى الكنيسة] ... أجابه عم جندى : [أنا تعبان ومش قادر أروح] . أجابه ذلك الرجل : [والتعبان مش يروح للدكتور علشان يخف وما يحرش نفسه من الذهاب للكنيسة ؟] . قال له المرحوم عم جندى : [أنا رحيت للدكاترة وقالوا لازم من عملية جراحية] . قال له : [طب مش تعمل العملية علشان تخف] . أجاب المرحوم جندى : [لغاية كده ومش راح أعمل عمليات . إذا كان الله يعجزانه يعمل لي العملية ، أروح للدكاترة . لكن إذا كان ربنا مش عاجز ، فأنا يستحيل أعمل عملية . وراح أفضل كده] . قال له الرجل : [هل أنت مصمم على كده ؟] أجابه : [نعم أنا مصمم] .

قال لي المرحوم جندى ، مَد ذلك الرجل - الذى فى صورة الطبيب - يده إلى بطنى من جهة اليمين ، ناحية الكبد وعمل بيده وكأنه يفتح سوسته . وأخرج الكبد واستأصل الخراج . وبعد أن انتهى من ذلك ، عمل بيده على بطنى وكأنه يقفل سوسته . وفى هذه اللحظة الأخيرة استيقظت بدون أى ألم ... بل كان عم جندى يعانى من تعب فى المعدة ، شفى منه ضمناً ... وهذا معنى عبارته [من ساعة أبو جريس ما حظ ايدى فى بطنى وكل حاجة بقت تمام] ... ولم يكن أبو جريس هذا إلا الشهيد البطل مار جرجس الذى أجرى له العملية الجراحية واستأصل الخراج بطريقة معجزة ...

حياة السلام

- المسيحية والسلام .
- السلام والإيمان المسيحي .
- المسيحي والسلام .
- اختبار السلام في حياة رجال الله .
- ومع السلام يأتي الفرح .

« السلام والسلام الكامل » ... يا لها من كلمات لها نغم جميل وموسيقى شجية !! إن مجرد ذكرها يملأ القلب بالأشواق التي تريد الشيع والارتواء... قد ننجح أحياناً في إسكات هذه الرغبات الداخلية ، على نحو ما تسكت أم طفلها الهائج بطريقة مؤقتة... لكن هذه الرغبات سرعان ما تعاود الظهور وهي أكثر ما تكون تشوقاً وتعطشاً .

نستطيع أن نرى سلاماً في الطبيعة ولو إلى حد ما ... فهناك سلام في زرق السماء الصافية . وهناك السلام الذي يغمر البحيرة الهادئة التي يكتنفها الجبل ، فتكون في حى من الرياح العاصفة . بل إننا نلحظ السلام في الحقول المتسعة ، بعد أن يكون الربيع قد خلع عليها حلة سندسية خضراء... إلى غير ذلك من مظاهر الطبيعة التي تنطق بالسلام .

حمداً لله أنه يوجد سلام للبشرية ... كان يعقوب أب الآباء طريح الفراش في مصر أرض الغربة ، وظهرت على وجهه علامات دنو الموت منه . وفي نفس الوقت بدت على عيائه أنوار العالم السماوى الذى كان منطلقاً إليه... وفي رقاده تنبأ عن «شيلون» رئيس السلام ، وعن قدومه إلى العالم ليعطى سلاماً للناس...

ومضت أجيال يعقبها أجيال ، ولم يأت شيلون بعد ... وأخيراً ظهر بين الناس إنسان كانت حياته مليئة بالحزن والتعب «رجل أوجاع ومخبر الحزن» . ولكن وجهه الهادىء دلّ على السلام الكامل الذى غمر قلبه . هو الذى تواترت عنه مواعيد الأنبياء بأنه الواهب السلام للناس... كان قلبه زاخراً بالسلام فاستطاع أن يقول : «سلامى» . كانت له القدرة على إعطاء السلام للآخرين لأنه قال : «سلامى أعطيك»...

المسيحية والسلام :

هل المسيحية دعوة إلى الضيق والحزن كما يتوهم البعض « بضيقات كثيرة ينبغي أن تدخلوا ملكوت السموات»... وهل طريقها هو وادى الدموع «الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج»... ألا يوجد بها غير ذلك؟ ثم ما الذى يدعونا إلى هذا الطريق الكرب ، وما الذى يشجعنا على السير فيه !؟

ليست المسيحية دعوة إلى حياة الضيق والحزن . بل هي على عكس ذلك رسالة التحرر والفرح « ليس ملكوت الله أكلاً وشرباً ، بل هو برّ وسلام وفرح في الروح القدس » (رو ١٤ : ١٧) . وملكوت الله هذا ليس هو الملكوت المنتظر في الدهر الآتى فحسب ، بل انه الملكوت الذى نحيا فيه من الآن ونأخذ عربونه « ها ملكوت الله داخلكم » (لو ١٧ : ٢١) .

نعم إن المسيحية هي رسالة الفرح « يسوع المسيح الذى وإن لم تروه تحبونه . ذلك وإن كنتم لا ترونه الآن لكن تؤمنون به ، فتبتهجون بفرح لا يُنطق به ومجيد » (١ بط ١ : ٧ ، ٨) . إن الرسالة التى كتبها بولس الرسول من أسره الأول بروما إلى فيلبس ، هي أكثر رسائله التى تنضح فرحاً . فيها يقول : « افرحوا في الرب كل حين وأقول أيضاً افرحوا » (فى ٤ : ٤) ...

وحتى الدموع التى يذرفها الإنسان المؤمن - الذى يحيا لله وفى الله - ليست دموع حزن ، بل دموع فرح ، لأنه من خلالها يرى الله فيمتلئ قلبه فرحاً ... يقول مار إسحق : [طوبى للباكين من أجل الحق ، لأنه من خلال دموعهم يرون باستمرار وجه الله] .

ويصاحب الفرح سلام الله الداخلى الذى يملأ قلب الإنسان ... « ملكوت الله ... سلام وفرح في الروح القدس » (رو ١٤ : ١٧) . فما هو هذا السلام الداخلى الذى تنعم به كل نفس تحب الله ؟

ليس من السهل أن نتكلم عن سلام الله . وهوذا القديس بولس الرسول الذى صعد إلى السماء الثالثة ، ورأى أموراً لا يُنطق بها ، لم يستطع أن يقدم تعريفاً وافياً عنه ... كل ما استطاع أن يصفه به انه « يفوق كل عقل » (فى ٤ : ٧) ... وإذا كان يفوق كل عقل فكيف نستطيع أن نتحدث عنه . انه شيء يفوق إدراكنا !!

ما هو السلام إذن ؟

كل ما نستطيع قوله إن السلام هو حالة تصاحب حلول الله في القلب ... إنها حالة الفرح القلبى . وأين يوجد السلام والفرح إلا حيث يوجد الرب

نفسه ... «ها ملكوت الله داخلكم» ... «المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة» ... وعلى كان على الأرض سلام إلا حينما وُلد الرب يسوع ابن الإنسان، فأثنى بالمسرة إلى البشر... والخلاصة ان السلام هو الراحة القلبية والهدوء الداخلى نتيجة حلول الله في هيكنا الضعيف...

السلام والإيمان المسيحى :

السلام هو ثمرة الإيمان الأولى ... « فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح » (رو ٥ : ١) . إنه ثمرة الإيمان الأولى لأن أساسه دم الفادى والمخلص «صانعاً سلاماً بدم صليبه» (كو ١ : ٢٠) ... ويعتبر السلام من أعظم عطايا الله لبنى البشر فى شخص المسيح ... فالسلام الذى فقدناه بالمعصية ، نستعيده بالإيمان من قبل تجسد الابن الكلمة .

ليس أدل على ذلك من الشعار الذى اتخذته المسيح فى تحيته لتلاميذه تعبيراً عن رسالته «سلام لكم» ... وقد أوصاهم باستعمالها ، حين أرسلهم أمامه فى إرساليات تدريبيه « وأى بيت دخلتموه فقولوا أولاً سلاماً لهذا البيت » (لو ١٠ : ٥) ...

والواقع أن هاتين الكلمتين « سلام لكم » ، ليستا تحية بقدر ما هما نعمة وقوة يهبهما المسيح «رئيس السلام» لكل المؤمنين باسمه ... إن هذا هو اللقب الذى تنبأ به إشعياء النبى قديماً عن المسيح : «لأنه يولد لنا ولد، ونُعطي ابناً وتكون الرئاسة على كتفه . ويدعى اسمه عجبياً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً رئيس السلام» (إش ٩ : ٦) .

قلنا إن عبارة : « سلام لكم » ليست تحية بقدر ما هى نعمة وقوة يهبها المسيح للمؤمنين به ، بدليل قول السيد المسيح لتلاميذه : «سلاماً أترك لكم . سلامى أعطيكم . ليس كما يعطى العالم أعطيكم أنا» (يو ١٤ : ٢٧) ... إذن فالسلام عطية روحية ، وتركه مقدسة لكل البنين . وتعبير السلام هو تحية رئيس الملائكة جبرائيل إلى العذراء مريم «سلام لك أيتها الممتلئة نعمة» (لو ١ : ٢٨) .

نعم إن تعبير « سلام لكم » ليس مجرد كلمات ، لكنها قوة صيغت فى حروف بشرية . فتعبير السلام الذى استعمله الرب بعد قيامته المجيدة - حينما كان يحل فى

وسط تلاميذه.. كان يملأ قلوبهم سلاماً وفرحاً وطمأنينة...

إن السلام هو عطية مباركة يهبها الله لأولاده... قال المرتل قديماً : «الرب يُعطى شعبه قوة. الرب يبارك شعبه بالسلام» (مز ٢٩ : ١١) ... «أنى اسمع ما يتكلم به الرب الإله. لأنه يتكلم بالسلام لشعبه وقديسيه، وللذين رجعوا إليه بكل قلوبهم» (مز ٨٥ : ٨ ، ٩) ... وفي العهد الجديد يقول معلمنا بولس الرسول : «فكل الذين يسلكون بحسب هذا القانون عليهم سلاماً ورحمة» (غل ٦ : ١٦).

المسيحي والسلام :

قلنا إن السلام هو الثمرة الأولى لحياة الإيمان بالمسيح ، وانه العطية الروحية والثركة المقدسة التى تركها لنا السيد المسيح «سلامى أترك لكم»... والواقع ان حياة السلام هى الدليل الحقيقى على اننا فى شركة مقدسة معه .

وان كان السلام من ثمار الإيمان الحق ، ففقدان السلام ، أى القلق ، من ثمار الخطية ، التى حينما تنضج تؤدى بالإنسان إلى اليأس وقطع الرجاء وربما إلى التخلص من الحياة كلية . ماذا يقول الكتاب المقدس عن الأشرار والسلام ؟ يقول الوحى الإلهى بضم إشعياء النبى : «أما الأشرار فكالبحر المضطرب ، لأنه لا يستطيع أن يهدأ . وتنفذ مياهه حمأة وطيناً . ليس سلام قال إلهى للأشرار» (إش ٥٧ : ٢٠ ، ٢١) ... ويقول داود النبى بعد أن أخطأ : «ليست فى عظامى سلامة من جهة خطيئى» (مز ٣٨ : ٣) .

ولعل كلمات فايين التى قافها الله بعد أن قتل أخاه هابيل توضح لنا ذلك بأجلى بيان : «ذنبى أعظم . إنك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض . ومن وجهك اختفى وأكون تائهاً وهارباً فى الأرض . فيكون كل من وجدنى يقتلنى» (تك ٤ : ١٣ ، ١٤) ... إن الشهوات الجائعة والميول المنحرفة تأتى على سلام القلب ، على نحو ما تأتى النار على الخشب ، وكما يُتلف العث الصوف...

لن يكون للإنسان سلام وراحة فى شهوات العالم ، بل قلق واضطراب . وهذا يتفق مع طبيعة العالم المتغيرة والمتقلبة . أما سلام الله الحقيقى فيدوم معنا لأنه من الله الذى «ليس عنده تغيير ولا ظل دوران» (يع ١ : ١٧) ... ما أشبه من يطلب

سلاماً من العالم ، بطائر يرفرف فوق أمواج البحر، ليس لتقديمه مستقر. ويظل هكذا حتى يُعييه الطيران والتحليق !!

ما أشبه السلام الذى يتمتع به الإنسان المسيحي بالحكم فى مباراة كرة قدم !! فالحكم أثناء المباراة حينما يطلق صفارته ، يكون ذلك دليلاً على أن هناك خطأً حدث أثناء اللعب. فيوقف اللعب ويُصحح الخطأ... هكذا حينما نفتقد السلام داخلنا ولا نجدده، كان ذلك بمثابة صفارة الحكم الذى وضعه الله داخلنا، ليعلن أن خطأ قد صدر عنا !! ماذا يجب علينا أن نفعله حينئذ. علينا أن نتوقف - ولو من داخلنا - لنصحح الخطأ الذى ارتكبناه، ونرفع قلبنا بالتوبة إلى الله لأننا أخطأنا. أما إذا لم نتعرف على هذا الخطأ، فعلينا أن نتخشى أمام الله طالبين منه أن يُعلن لنا سرّ هذا النذير الذى دوى فى أعماقنا... نعم «لا سلام للأشرار ومع الخطية». وبعد أن نصحح خطأنا، سيعود إلينا سلامنا ثانية...

ألم تحبب فى حياتك هذا الاختبار ؟ ... احسب أنك بالتأكيد قد اختبرته ... لا سلام مع الخطية... بعض الناس ممن نعرف أنهم يسلكون طريق الخطية ، ويعيشون فى الدنس ، يبدون أمام الآخرين ضاحكين متهللين... لكنه خداع... فلو كاشفك هؤلاء عما تنطوى عليه نفوسهم من كآبة ومرارة، لأدركت أن ضحكاتهم ونهرجهم ليس سوى ستاراً يخفون به مرارة نفوسهم !! وفى كثير من الأحيان يلجأ هؤلاء إلى وسائل تدخل إلى نفوسهم البهجة والسرور... لكن هذا هرب من النفس. وهذه الوسائل هى بمثابة المسكنات الوقية. لكن ليس لها القدرة على إزالة ما بنفوسهم من ضيق وقلق...

والسلام يأتى مع النقاوة الداخلية . فالإنسان الذى لم يُخضع جسده لسلطان الروح، وفيه «الجسد يشتهى ضد الروح، والروح ضد الجسد»، ويقاوم كلاهما الآخر، مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يتمتع وينعم بالسلام، بل يعاني من إنقسام الداخل... أما إذا وصل إلى درجة النقاوة التى يتوقف فيها شغب الجسد وتبطل حركاته السميكة، وصارت للروح القيادة على الجسد، حينئذ يملك السلام على هذا الإنسان، إذ خضع الجسد لسلطان الروح، وصار هذا الإنسان واحداً بعد أن كان اثنين متعاركين. مثل هذا هو السلام الداخلى الناتج عن النقاوة...

اختبار السلام في حياة رجال الله :

ولعل عمق اختبار السلام الداخلى نلمسه في حياة القديسين ورجال الله الأبرار الذين ملك السيد الرب على قلوبهم ، وسكنت فيهم كلمته بغنى ...

فداود النبي العظيم تكشف لنا مزاميره عما يتمتع به من سلام عميق ... يقول : « الرب نورى وخلصى مَن أخاف . الرب حصن حياتى مَن أرتعب . عندما اقترب إلى الأشرار ليأكلوا لحمى ، مضايقتى وأعدائى عشروا وسقطوا . إن نزل على جيش لا يخاف قلبى . إن قامت على حرب ففى ذلك أنا مطمئن » (مز ٢٧ : ١ - ٣) ... وفى مزمور آخر يقول : « إلهنا ملجأنا وقوتنا . ومعيننا فى شدائدنا التى أصابتنا جداً . لذلك لا نخشى إذا تزعزعت الأرض وانقلبت الجبال إلى قلب البحار . تتعج المياه وتغيش . وتزعزع الجبال بعزته . مجارى الأنهار تفرح مدينة الله . لقد قدس العلى مسكنه . والله وسطها فلن تزعزع » (مز ٤٦ : ١ - ٥) .

إن اختبار داود للسلام ليس قاصراً على أوقات الراحة ، بل أيضاً فى وسط الأخطار والضيق كما هو واضح من كلامه ... وإن أنت سألت داود لماذا لا يخشى إذا تزعزعت الأرض ، وانقلبت الجبال إلى قلب البحار ، وحينما تتعج المياه وتغيش وتزعزع الجبال ، يجيبك بقوله : « لأن مجارى الأنهار تفرح مدينة الله ، ولأن العلى قد قدس مسكنه ، وهو فى وسطها فلن تزعزع » ... إن مدينة الله ليست سوى قلب الإنسان المؤمن الذى يسكنه العلى . ومجارى الأنهار ليست سوى رمز للروح القدس وعمله فى الإنسان ... ألم يقل السيد المسيح : « إن عطش أحد فليقبل إلى ويشرب . من آمن بى كما قال الكتاب ، تجرى من بطنه أنهار ماء حى . قال هذا عن الروح القدس الذى كان المؤمنون به مزعمين أن يقبلوه » (يو ٧ : ٣٧ - ٣٩) .

إن سلام المسيح كالنهر دى المياه الصافية ، يظل يتدفق ويعمق مجراه فى هدوء وسكون ، ممتداً إلى الأمام حتى يصب فى البحر اللانهائى ... « ليتك أصغيت لوصاياى ، فكان كنهر سلامك ، وبرك كلجج البحر » (إش ٤٨ : ١٨) ... وعلى نحو ما يعمق النهر مجراه بعامل الزمن هكذا سلام الله يزداد عمقاً وتدفقاً على مرّ الأيام ... « وأجعل ... كل بنيتك تلاميذ الرب ، وسلام بنيك كثيراً » (إش ٥٤ : ١٣) ... قد

تزول الجبال، وتترزع الآكام، أما سلام الرب فيظل ثابتاً ...

إن موسيقى السلام الإلهي أعلى من هياج العاصفة ... انه اختبار تقدمه لنا بحيرة الجليل. فسلام الرب يسوع، الذى يعطى من فيضه لخاصته، يستطيع أن يُسكت أشد العواصف عنفاً، وأكثر الرياح هياجاً. لأنه حينما نهض السيد وانتهر الريح وقال للبحر « اسكت. ابكم»، سكنت الرياح وصار هدوءاً عظيماً « سلام جزيل للذين يحبون اسمك. وليس لهم شك» (مز ١١٩ : ١٦٥).

ومع السلام يأتى الفرع :

يصاحب السلام القلبى دائماً فرع عميق، وصفه الرسول بطرس بأنه «لا ينطق به ومجيد» (١ بط ١ : ٨). انه فرع لا يُنطق به لأنه داخل فى أعماق النفس لا يظهر بوسائل تافهة ورخيصة وهو لا يطفو على السطح (أى يظهر خارجاً) لأن النقايات هى التى تطفو على السطح. انه فرع عميق متأصل فى القلب، يقول عنه رب المجد: «لا ينزع أحد فرحك منكم» (يو ١٦ : ٢٢) ... وهو فرع لا يُنطق به لأنه لا يَمِرُّ عنه ... انه وصف يشبه إلى حد كبير وصف معلمنا بولس الذى وصف به السلام انه «يفوق كل عقل» ...

وفى الوقت الذى كان الملائكة ينشدون الأنشودة الخالدة : «وعلى الأرض السلام»، كان ملاك آخر يبشر الرعاة قائلاً : «ها أنا أبشركم بفرح عظيم» ... بولد المسيح نرى الفرع قرين السلام الذى لنا منه وفيه ...

ونلمس تقريباً نفس الشئ فى بيت زكريا الكاهن. زارت العذراء القديسة مريم نسيبتها اليصابات وأعطتها مريم السلام. وللوقت قالت اليصابات : «هوذا حين صار صوت سلامك فى اذنى، ارتكض الجنين بابتهاج (بفرح) فى بطنى» (لو ١ : ٤٤).

وقد يقول قائل كيف يكون السلام وما يصاحبه من فرح من نصيب الإنسان المؤمن، وهوذا ربنا قد سبق وأنبا من يريد أن يتبعه بالضيقات وأمره بحمل الصليب رمز الأكم ...

لا تناقض فى هذا ... الضيق الذى تحدث عنه رب المجد ضيق من الخارج

لا يتسرب إلى النفس المؤمنة التى صارت هيكلًا للرب . أما السلام ومعه الفرح
الجزيل فهو تصوير لحالة الإنسان من الداخل . لذا قال الرسول بولس :
« كحزانى ونحن دائماً فرحون » (٢ كو ٦ : ١٠) . لاحظ كاف التشبيه فى كلمة
« كحزانى » . أى أن من يرانا يظن أننا حزاني ، ولكن فى واقع الأمر نحن فرحون !!
فالعالم له مقاييسه الخاصة بالفرح ... أما الإنسان المؤمن ففرحه فى الداخل ...

إن الإنسان المسيحى من هذه الوجهة يشبه العليقة الخضرى التى تراهى
السيد الرب منها لموسى النبى ... كانت النار ممسكة بأغصان العليقة وأوراقها ، لكنها
لم تأت عليها ، ولم تذهب نضرتها أو تلتشى خضرتها ... هكذا المؤمن الضيقات التى
تشبه النار تحيط به من الخارج ، لكنها لا تقدر ولا تقوى على أن تفقده سلامه وفرحه
الداخل !!

ألا تعلم يا أختى أن السائر إلى جبل الزيتون (جبل الصعود) ، يمرّ لا محالة
ببستان جشيمانى ، ثم يرتفع بمشقة إلى اكمة الجلجثة ، ثم يهبط إلى بستان القبر ؟!
لكن فى هذه جميعاً نستطيع أن نحفظ بسلامنا متشبهين بسيدنا الذى فى وقت آلامه
المريّة كان محتفظاً بسلامه الكامل وبهدوئه ، حتى أنه عمل معجزة شفاء فى الوقت
الذى تألب عليه أعداؤه من كل ناحية . لقد شفى أدن عبد رئيس الكهنة التى قطعها
بطرس بسيفه فى تهوّر (لو ٢٢ : ٥٠ ، ٥١ : يو ١٨ : ١٠ ، ١١) .

لقد عاش القديسون حياة السلام والفرح الداخلى ، ولذا فقد استهانوا بكل
شئ ، وازدروا بكل شئ ... وعاشوا على الأرض بأجسادهم ، وكأن لا أجساد
لهم . كان اهتمامهم بما فى الداخل وليس بما فى الخارج ... عاشوا حياة السلام
والفرح . ولم تسعفهم قدراتهم اللفظية والبلاغية عن وصفها ...

حاول يوحنا سابا (الشيخ الروحانى) أن يصف حالة سلام وفرح ولذة
وسعادة وبهجة القديسين التى انعكست عليهم نتيجة حياتهم مع المسيح ، فلم
يستطع وبأن عجزه . وجاءت عباراته أقرب إلى التصوّر منها إلى القدرة على
الافصاح والبيان ... قال :

[كنت أود أن أكتب ولكنى لم أقدر ... ولما تحكمت بطرق كثيرة ، وحاولت أن
أصوّرها لم استطع ، تلك التى الكل ممتلئ منها ، أردت أن أصورها على الورق لغذاء

أبناء شعبي فلم أتمكن ... في العالم الخارجي لا يوجد لها شبيه، وفي العالم الداخلي من يعلم بها. أشباه عالمنا لا يوجد لها. ومن عالم الروحانيين من يقدر أن يأتي لها بمثال. لا أعرف كيف أهدى حرقه قلبي الذي يحترق ويغلي. بالكلام لا يُنطق بها، وبالإشارة لا تُرى، وبالصورة لا تُصوّر، وبحركات الضمير لا تسمع. قُهرتُ منها قهراً .. غلبت منها مثل من لم يعرفها. سكت عنها مثل من لم يحس بها. غفدت .. مثل من لا توصف. سكت عنها مثل من ليس هو كفاء لها. كم أنا حزين جداً، إذ لم أعرف كيف أصورها أو أشبهها. وإن كانت لا تُشبهه اطلبوها يا اخوتي اطلبوها. اطلبوها لتمتزج بكم. طوب نعيمها أرفع من كل التطويبات. ليس للذتها مثيل. هذا هو تفسيرها. ذلك الذي قيل أنت يا أبى فى وأنا فيك. وأيضاً ليكونوا فينا واحداً. طوبى لمن ذاق هذه الطوبى. طوبى لمن صارت نفسه مع لحمه وعظامه في هذه اللذة التي لا تفسر.

والآن يا أخانا، قد عرفت ان المسيح له المجد قد أعطاك عطية السلام الذى يفوق كل عقل ... هل تشعر فى داخلك بهذا السلام، وهل تنعم بهذه العطية المقدسة؟ اعلم يا أخانا أن الأمر الوحيد الذى ينزع السلام والفرح من قلب الإنسان هو الخطيئة. فإن كنت حتى الآن تعاني من القلق والضيق، فاجلس مع ذاتك وفتشها جيداً. وكن صريحاً مع نفسك ... وإن عجزت عن الوصول إلى أسباب فقدان السلام، فارفع قلبك بالصلاة إلى الله أن يرشدك إلى نقائصك، ويكشف لك عيوبك وخطاياك، ويظهر لك ضعفاتك، فسيجعل الله بحبته وسيمنحك أيضاً سلاماً يفوق كل عقل حسب كل وعوده المباركة الأمانة ...

حياة التسليم

- حياة التسليم هي أعظم التقدمات المقبولة .
- أمور تسبق حياة التسليم .
- مظاهر حياة التسليم .
- بركات حياة التسليم .
- أمور تساعد الإنسان على حياة التسليم .

العطاء في المسيحية أمر واجب وممدوح ، وهو وصية الرب يسوع نفسه ... قال القديس بولس إلى قسوس مدينة أفسس : « في كل شيء اريثكم أنه هكذا ينبغي أنكم تتعبون وتعبدون الضعفاء ، متذكّرين كلمات الرب يسوع أنه قال مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ » (أع ٢٠ : ٣٥) ... ونلاحظ أن كلمات الرب يسوع التي يشير إليها بولس هنا لم ترد في الأناجيل الأربعة ، لكنها كانت شائعة بين المؤمنين ، بدليل أن الرسول يذكرهم بها : « متذكّرين كلمات الرب يسوع » ... وشيوعها بين المؤمنين يؤكد أنها كانت مبدء مسيحياً متفقاً عليه ...

جميل أن نقدم للرب عطايًا وتقديمات مادية ، وأجل منه أن نقدم عطايًا وتقديمات روحية ، وأجل من كليهما أن يقدم الإنسان ذاته للرب ... ولا أقصد بهذه التقديمة الأخيرة حياة التكريس . لكنني أعني بها تقديمة تفوق جميع التقديمات ، هي إخضاع المشيئة لله ، وتسليم الحياة بجمليتها له ... وليس أدل على أفضلية هذه التقديمة عما سواها ، أننا في التقديمات الأخرى نقدم لله شيئاً مما لنا . أما في إخضاع مشيئتنا لمشيئة الله نكون قد أمتنا إرادتنا وميولنا الخاصة . وبالجمله نكون قد قدمنا ذاتنا فعلاً قرباناً حياً لله على مذبح التسليم .

فقد أعطى صدقة لإنسان ، أو مالاً للكنيسة ، لكنني في هذه الحالة أكون قد قدمت جزءاً من مالي لا مالي كله ... وقد أخدم الرب بأمانة ، وفي هذه الحالة أيضاً أكون قد قدمت لله جزءاً من وقتي لا وقتي كله ... وقد أتعب لأجل أمر من الأمور المقدسة ، ومع هذا تكون تقدمتي جزءاً من جهدي لا جهدي كله .

حياة التسليم ، والحال هذه ، هي عبارة عن تسليم الحياة كلها لله ، بحيث تكون كل أفعال الإنسان وتصرفاته وأفكاره وأقواله مطابقة لمشيئة الله ، أو بحسب تعبير القديس بولس : « فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا في » (غل ٢ : ٢٠) .

وهذا الأمر واضح كل الوضوح في حياة السيد المسيح له المجد ، الذي قدم لنا صورة للإنسان الكامل ... قال : « نزلت من السماء ، لا لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني » (يو ٦ : ٣٨) . وفي صلاته في بستان جثسيماني ليلة آلامه قال مخاطباً الآب : « إن شئت أن تعبرني هذه الكأس ، ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك أنت » (مت ٢٦ : ٣٩) ... قال رب المجد هذا على الرغم من أنه ليس له

سوى مشيئة واحدة مع الآب ... لكنه أراد أن يقدم لنا تعليماً في هذا الوقت ... وحينما طلب إليه تلاميذه أن يعلمهم كيف يصلّون ، أعطاهم صلاة مثالية ، اهتم أن يبرز فيها هذه الفضيلة ... قال لهم : « صلّوا أنتم هكذا أبانا الذى فى السموات ... لتكون مشيئتكم كما فى السماء كذلك على الأرض » ... ونلاحظ هنا أنه علمنا أن نطلب إلى الآب السماوى أن تكون مشيئته نافذة فى حياتنا كما هى نافذة فى السماء ... ففى السماء ليس من يعطّل إتمام مشيئة الله ، لكن الإنسان على الأرض ، بسبب حرية إرادته التى ميّزه الله بها ، يستطيع أن يخالف الله . وهذا للأسف الشديد !! ... والقديس بطرس الرسول يبرز هذه الفضيلة فى حياة السيد المسيح بقوله : « الذى إذ شتم ، لم يكن يشتم عوضاً . وإذ نال لم يكن يهتد ، بل كان يسلم لمن يقضى بعدل » (١ بط ٢ : ٢٣) .

أمر تسبق حياة التسليم :

يجب أن نقرر بادئ ذي بدء ، أن الأمر فيما يختص بحياة التسليم ، ليس سهلاً هيناً ، فهناك مصاعب فى طريق حياة التسليم ، منها الرغبات الخاصة ، والشعور بالذات ، والعقل ... ولذا يجب أن يسبق التسليم ثلاثة أمور :

١ - التجرد من الرغبات :

الإنسان غير المتجرّد له رغبات يريد أن يحققها . ومن ثم لا يستطيع أن يسلم حياته لله ، لأنه سبق وسلم حياته لهذه الرغبات ... وحتى لو سلم حياته لله يشترط عليه شروطاً . وبذا لا يكون تسليمه كاملاً . يلزم لمن يريد أن يسلم حياته لله أن يتجرّد من كل رغبة ومن كل شهوة ، حتى فى الأمور الروحية . فالرغبات الروحية يجب أن يكون لها غرض واحد هو الاتحاد بالله . أما تفاصيل هذا الاتحاد وطريقة الوصول إليه فينبغى أن يسلمها الإنسان لله ، ولا يكون له فيها غرض معين .

٢ - الاتضاع :

لا يمكن السلوك فى حياة التسليم إلا بالاتضاع ... لأن الإنسان الواثق بذاته ،

المعتد بفكره، المعتمد عليه في تدبير حياته، لا يستطيع أن يسلم حياته لله في بساطة الإيمان. لأنه غالباً ما يجعل معاملات الله معه، تحت رقابة هذا الفكر المعتز بذاته. فيقبل من هذه المعاملات ما يمكن أن يقبله فكره منها، ويرفض ما عداها مستعيناً في ذلك بالمجادلة والمناقشة في كل تصرفات ومعاملات الله...

وقد يخطئ هذا الإنسان ويظن الشر حيث أراد الله به خيراً... وقد ينسب بعض هذا للناس الأشرار، وبعضه للشياطين. وقد يقاوم، ويصوّر له فكره أموراً يرى أنها سليمة، لأنه حكيم في عيني نفسه. لا نستطيع كبرياء فكره اقناعه بتسليم حياته لله تسليماً كلياً وكاملاً...

٣ - الإيمان :

لا يستطيع إنسان أن يسلم حياته لله إلا إذا كان واثقاً بهذا الإله، كإله يهتم به ويدبر كل أموره. ويؤمن أن كل ما يعمل الله إنما يعمل به حكمه، ولا يحتاج إلى تدخل منه... أما إذا شك الإنسان في رعاية الله ومحبه واهتمامه، فكيف يستطيع مثل هذا الإنسان أن يحيا حياة التسليم؟... وإذا كان الإيمان بالله هو الثقة به، فبدیهى أن الإنسان لا يمكن أن يسلم لمن لا يثق به. وقد أشرنا إلى ذلك في موضوع الإيمان.

مظاهر حياة التسليم :

التسليم وإن كان حياة في الداخل، لكن له مظاهر يمكن أن نلمسها...

أ - تسليم المشيئة بحيث لا تصبح للإنسان مشيئة أخرى تُغايِر مشيئة الله... وبعبارة أخرى يصبح هذا الإنسان كالشمع اللين الذى يقبل الصورة التى تنطبع عليه... إنه لا يحيا منقسماً على ذاته، تارة يسلم حياته لله، وتارة أخرى يتوق إلى إتمام مشيئته الخاصة... نحن نلمس ذلك فيما قاله شاول الطرسوسى (بولس الرسول قبل اهتدائه) حينما تراءى له الرب عند مشارف دمشق: «يا رب ماذا تريد أن أفعل» (أع ٩ : ٦)... إن هذه الكلمات التى تعبر عن التسليم الكامل، كانت هى نقطة التحول في حياة ذلك الرسول العظيم، الذى عاش متقاداً بالروح بعد

ذلك ... ونحن نلمس ذلك في أقواله : « مع المسيح ضلّبت فأحيا لا أنا ، بل المسيح يحيا فيّ . فما أحياء الآن في الجسد فإنما أحياء في الإيمان ، إيمان ابن الله الذي احبني وأسلم نفسه لأجل » (غل ٢ : ٢٠) ... ولنتنظر إلى ما قاله لقسوس كنيسة أفسس ... « والآن ها أنا أذهب إلى اورشليم مقيداً بالروح لا أعلم ماذا يصادفني هناك . غير أن الروح القدس يشهد في كل مدينة قائلاً إن وثقاً وشدائد تنتظرني . ولكنني لست أحتسب لشيء ، ولا نفسي ثمينة عندي ، حتى اتم بفرح مسعى والخدمة التي أخذتها من الرب يسوع لأشهد ببشارة نعمة الله » (أع ٢٠ : ٢٢ - ٢٤) ... إنه يحيا في طاعة كاملاً للروح القدس روح الله . وعلى الرغم من أنه يعرف أن وثقاً وشدائد تنتظره ، لكنه لا يتخلّى عن طاعته للروح ، وحياة التسليم الكاملة التي نذر نفسه لها ...

ب - والفكر أيضاً يصبح فكر الله ... إن بولس الرسول الذي عاش حياة التسليم وخبرها يقول : « أما نحن فلنا فكر المسيح » (١ كو ٢ : ١٦) . وهذه نتيجة طبيعية لحياة التسليم . فإن سلّم إنسان حياته تسليماً كاملاً لله ، فهو الذي سيقود أفكاره ... قال المرتل : « وأنا بليد ولا أعرف ... أمسكت بيدي اليمنى ، برأيك تهديني ... » (مز ٧٣ : ٢٢ - ٢٤) .

ج - وبالجملّة فإن كل ما يصدر عن الإنسان من تصرفات سيكون موافقاً لإرادة الله . قال الوحي الإلهي عن داود النبي والملك : « وجدت داود بن يسي رجلاً حسب قلبي ، الذي سبصنع كل مشيئتي » (أع ١٣ : ٢٢) ... وقد استحق داود هذه الشهادة العظيمة لأنه كان يحيا حياة التسليم ، وكان يهتف دائماً : « مستعد قلبي يا الله مستعد قلبي » (مز ٥٧ : ٧) . وما ذلك إلا اظهاراً لاستعداداته لطاعة الله طاعة كاملة ، وتسليم مشيئته له تسليماً كلياً .

د - وثمة مظهر آخر من مظاهر حياة التسليم ، هو هدوء الأعصاب إزاء الأحداث المختلفة ... فالإنفعال إزاء أمر من الأمور يدل على أننا صدمنا نتيجة رغبة خاصة لنا لم تتحقق ، وظهر أثر ذلك في فقدان أعصابنا ... أما الإنسان الذي عرف كيف يسلم حياته لله ، فإنه لا يكتئب ولا يتفعل . فحينما يحدث أمر من الأمور يتقبله برضى وشكر ، عالماً أنه لخيره ، سواء كان من جهة مظهره خيراً أو شراً .

بركات حياة التسليم :

ماذا يستفيد الإنسان من تسليم حياته لله ، وما هي البركات التي يجنيها ؟

١ - فرح دائم لا يعكر صفوه كآبة أو انزعاج ... وسلام جزيل لا يشوبه قلق أو خوف نتيجة الشعور بإتمام إرادة الله ... قال المرتل : « ان افعل مشيئتك يا إلهي سررت » (مز ٤٠ : ٨) ... « ليفرح جميع المتكلمين عليك إلى الأبد يُسرون وتحل فيهم . ويعتخر بك كل الذين يحبون اسمك . لأنك أنت تبارك الصديق يارب ، وتكتنفه برضاك مثل الترس » (مز ٥ : ١١) ... فالفرح من ثمر الروح (غل ٥ : ٢٢) ، والحزن من ثمر الخطيئة .

إن مبعث فرح الإنسان وما يصاحبه من سلام هو نتيجة إتمام إرادة الله ، وما يستتبع ذلك من الإيمان أن « كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله » (رو ٨ : ٢٨) ... وقد عبرَ عن ذلك الحكيم بقوله : « مهما يصيب الصديق لا يحزنه » (أم ١٢ : ٢١) .

وليس معنى الفرح والسلام اللذين يصاحبان تسليم المشيئة لله أن الإنسان الذي يتمتع بهما لا تعرف الضيقات إلى قلبه سبيلاً ، بل ربما كان الأمر على العكس من ذلك ، فكثيرة هي أحزان الصديقين . لكن من جميعها ينجيهم الرب (مز ٣٤ : ١٩) ... مثل هذا الإنسان يشبه في حالته - إلى حد كبير - حالة الثلاثة عتية في ثون النار ببابل . فقد كانوا يُرون وسط نار الأتون يتمشون متهللين كمن هم في نزهة . ولم تقوَ النار على حرق ثيابهم ولا حتى شعرة من رؤوسهم . كل ما فعلته أنها أحرقت قيودهم فحررتهم ، وبذا استطاعوا أن يمشوا وسط الأتون !! والسرّ في كل ذلك أنه شوهد معهم رابع شبيه بابن الآلهة (دا ٣) ... هذا هو الهنا الذي قيل عنه : « في كل ضيقهم تضابق وملاك حضرته خلّصهم » (إش ٦٣ : ٩) .

٢ - هدوء جزيل ... فالإنسان الذي عرف كيف يُخضع مشيئته لمشيئة الله يكون هادئاً لا يزعجه شيء . فقد سَلِمَ حياته كلها لله القدير الذي : « منه وبه وله كل الأشياء » (رو ١١ : ٣٦) ... هو يشعر دائماً أن حياته هي في يد الله الذي يحبه ويعتنى به ، والذي يستطيع أن ينقذه من الشدائد والضيقات . ومزامير داود مليئة

بهذه المشاعر التي كانت تملأ قلب ذلك النبي ... « إن سلكت في وسط ظلال الموت ، فلا أخاف شراً لأنك معي . عصاك وعكازك هما يعزيانني » (مز ٢٣ : ٤) ... « الرب نورى وخلصى مَن أخاف . الرب حصن حياتى مَن أرتعب ... مضايقي وأعدائي عثروا وسقطوا . وإن حاربنى جيش فلا يخاف قلبى . وإن قام علىّ قتال ففى هذا أطمئن » (مز ٢٧) ... « إلهنا ملجأنا وقوتنا ومعيننا فى شدائدنا التى أصابتنا جداً . لذلك لا نخشى إذا تزعزعت الأرض وانقلبت الجبال إلى قلب البحار ... » (مز ٤٦) .

وبعث هدوء الإنسان الذى يحيا حياة التسليم أيضاً ، شعوره بأن الله الذى سلّم حياته له لا يأتيه إلا بما هو صالح وخير ، على نحو ما يقول القديس بولس : « كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله » (رو ٨ : ٢٨) ... وحتى لو فوجيء بأمر لا يتوقعه ، فإنه يشعر لوقته أن الله لا بد وأنه يقصد من ورائه نفعه .

روى عن أحد الآباء القديسين الذين سلكوا فى تدريب حياة التسليم ، انه نزل إلى مدينة الاسكندرية . فاجتمع حوله هناك بعض الوثنيين ، وأخذوا يشتمونه ويضربونه ويهينونه . وكان هو فى كل ذلك محتفظاً بهدوئه بلا ضجر ولا تملل . وفيما هم على هذه الحال ، سأله واحد منهم : [ما هى المجائب والمعجزات التى صنعها ذلك الناصرى الذى تؤمنون به ؟] . فخرج عن صمته وقال : [إن إحدى معجزاته أنكم تضربوننى وتهينوننى وأنا فرح مسروراً] .

وروى عن راهب قديس كان يصنع عجائب ومعجزات ، أن رئيس دير - رغم المعجزات التى كانت تتم على يديه - كان يلاحظ عليه أن جهاده لا يميزه عن أى راهب آخر فى الدير . فتعجب من أمره فسأله عن أحواله ، فأجابه بأنه لا يصلح ولا يسهر ولا يصوم أكثر من باقى الرهبان ، ولكنه كان لا يضجر من شىء على الإطلاق . فسأله رئيس الدير : [ألم تتضايق يوم هجم أعداؤنا على ديرنا وحرقوا مخزن الحنطة ؟] . أجابه الراهب : [لقد تعودت أن أقبل كل شىء بشكر مستمراً الأمر لله ... فتحقق رئيس الدير أن سرّ هدوئه وعجائبه هما فى تسليم حياته كلها لمشيئة الله] .

٣ - قلنا فيما سبق أن الاتضاع يسبق حياة التسليم . ونضيف هنا أن حياة التسليم تُنمى فينا بعد ذلك فضيلة الاتضاع ، الذى هو الأساس المتين الذى يرتفع فوقه بناء حياتنا الروحية ...

٤ - من بركات حياة التسليم الاطمئنان من جهة دينونة الله الأخيرة ...
فمعنى أنى سلّمت حياتى لله انى سوف لا أذّان ... إذ كيف أذّان على إتمام
مشيئته؟! إن كل جهاد الإنسان روحياً هو من أجل الوصول إلى هذه النقطة - إننا لا
ندان في اليوم الأخير... فإذا كانت حياة التسليم توصلنى إلى ذلك لكفى...

٥ - ومن بركات حياة التسليم أننا نلزم الله بالعناية بنا . فبقدر ما نسلّم
ذواتنا له بقدر ما نلزمه أن يعتنى بنا ... يقول المرتل : «لأنه علىّ اتكل فأنجيه ،
استره لأنه عرف اسمى . يدعونى فاستجب له . معه أنا في الشدة أنقذه وأمجدّه . طول
الأيام أشبعه واريه خلاصى» (مز ٩١) ... إن التدريب الأول في تعلّم السباحة أن
يسلّم الإنسان ذاته للماء دون خوف . وبقدر ما يفعل ذلك بقدر ما يحمله الماء ...

٦ - إن حياة التسليم تنقّى فينا الحب الإلهى . فالمحبة لا تعتبر كاملة إلا إذا
اتفقت إرادتنا مع إرادة من نحبّه ... والدليل العمل على حبنا لله هو تسليم حياتنا
له ، وإتمام إرادته فينا «إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى» (يو ١٤ : ١٥) .

٧ - والتسليم يعطينا فرصة لاكتساب فضائل روحية أخرى كالطاعة والصبر
والاحتمال فإن تدخل إرادتى تحول بينى وبين إكتساب هذه الفضائل . فالإنسان
الذى لا يسلم لله ، لا يمكن أن يكون مطيعاً ، لأن الطاعة هى في التسليم . وتسليم
حياتى واقتبال أمر من الأمور - حتى لو بدا أمامى في غير صالحى - يدربنى على فضيلة
الصبر . والصبر ينشئ تركية لحياتى (رو ٥ : ٤) . والصبر يوصلنى إلى فضيلة
الاحتمال ...

٨ - وحياة التسليم تهىء لى فرصة لخبرات مقدسة في الحياة مع الله . فالله
خلق الإنسان حراً ... والإنسان بكامل حريته يحرم نفسه نعماً كثيرة ، وذلك عندما
تتعارض إرادته الخاصة مع إرادة الله الخيرة ... يقول رب المجد يسوع لسكان أورشليم :
«كم مرة أردت أن أجمع بنيك .. وأنتم لم تريدوا . هوذا بيتكم يُترك لكم خراباً»
(مت ٢٣ : ٣٧ ، ٣٨) ... فإن سلّمت إرادتى لإرادة الله أرى أعمالاً عجيبة ...
يضاف إلى ذلك أن الإنسان بهذا سيأخذ من الله نعماً كثيرة نتيجة عدم عرقلة عمل
روح الله فيه ...

أمور تساعد الإنسان على حياة التسليم :

١ - ليقنع الإنسان ذاته انه لا يمكن أن يحدث له شيء في حياته، بل في العالم بأسره إلا من قبل الله، سواء بإرادته أو بسماع منه ... قال السيد المسيح لبطرس ليلة آلامه، حينما استل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه : « اجعل سيفك في الغمد . الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها » (يو ١٨ : ١١) ... ولم يقل رب المجد : « الكأس التي أعدها لي يهوذا ورؤساء الكهنة . بل الكأس التي أعطاني الآب ضابط الكل الذي بيده كل الأشياء » ... ومرة أخرى لما قال له بيلاطس : « أأنت تعلم أن لي سلطاناً أن أصيبك، وسلطاناً أن أطلقك » . أجابه الرب يسوع : « لم يكن لك على سلطان البتة لو لم تكن قد أعطيت من فوق » (يو ١٩ : ١٠ ، ١١) .

لقد حاول هيرودس الملك اليهودي قتل الرب يسوع وهو بعد طفلاً ، فقتل كل أطفال بيت لحم من سنّ سنتين فما دون ، لكن دون جدوى ، لأن تلك الساعة لم تكن ساعة موت الرب يسوع (مت ٢ : ١٦) ... وقام اليهود عدة مرات على السيد المسيح ليقتلوه لكنهم لم يحققوا غرضهم الشرير . ومرة مضى به أهل الناصرة إلى خارج مدينتهم ليطرحوه إلى أسفل الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه «أما هو فجاز في وسطهم ومضى» (لو ٤ : ٣٠) ... لكن لما أتت الساعة التي رسمها في علمه الأزلي ، قال لئن خرجوا عليه ليقبضوا عليه : « هذه ساعتكم وسلطان الظلمة » (لو ٢٢ : ٥٣) .

وكم تعب شاول ملك إسرائيل ليقتل داود ، وكم اهتم لكي يمسكه ، لكنه في جميع محاولاته كان يفشل . أما السبب فلأن «الله لم يدفعه ليده» (١ صم ٢٢ : ١٤) ... لقد قصد اخوة يوسف أن يتخلصوا منه ، لكن الله بعث به إلى مصر لاستبقاء حياة الكثيرين . لذا قال لآخوته في مصر : «والآن لا تتأسفوا، ولا تغتاظوا لأنكم بعموني إلى هنا . لأنه لاستبقاء حياة أرسلني الله قدامكم ... فقد أرسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض ، وليستبقى لكم نجاة عظيمة . فالآن ليس أنتم أرسلتموني إلى هنا بل الله » (تك ٤٥ : ٥ - ٨) ... كما قال لهم : «لا تخافوا ... أنتم قصدتم لي شراً ، أما الله فقصد به خيراً» (تك ٥٠ : ١٩ ، ٢٠) .

فما أجل الشعور بأن حياتنا هي في يد الله المحب الخنون القدير ... إذا توفر فينا هذا الشعور فإننا برضى نسلّم ذواتنا له طواعية واختياراً... قال القديس كبريانوس معلّقاً على عبارة «لا تدخلنا في تجربة»: [إننا نتجه إلى الله - لا إلى الشيطان - لكي لا ندخل في تجربة]. هكذا فهم القديسون حياة التسليم ... ففي قتالات القديس أنبا أنطونيوس الكبير أب الرهبان مع الشيطان، ظهر له ذات مرة في صورة وحوش كاسرة كثيرة العدد. فالتفت إليها أنطونيوس في ثبات وقال: [لو كان لكم على سلطان، لكان واحد منكم يكفى ليحارب إنساناً مثلي. لكن الله أعدكم قوتكم]..

٢ - يجب على الإنسان ألا يتضايق حينما نصيبه أمور لا توافق مزاجه ... بل عوضاً عن التضايق عليه أن يلجأ إلى الله ليصلح النقص الذي فيه ... لقد كره بنو إسرائيل - وهم في البرية - أكل المنّ، واشتهوا اللحم، فأعطاهم الله اللحم بكثرة ... أعطاهم شهوتهم. إلا أن ذلك صار شراً لهم «فصعد عليهم غضب الله وقتل من اسمّتهم، وصرع مختارى إسرائيل» (مز ٧٨ : ٢٩ - ٣١) ... كان الأحرى ببني إسرائيل - بعد كل عجائب الله معهم - أن يغيثوا تذوقهم للنعمة، وأن يشكروا الله على هذه النعمة العظيمة وسط تلك البرية القاحلة !!

مبدأ الباب الضيق

في الحياة الروحية

- ما هو الباب الضيق ؟
- هل من تناقض بين محبة المسيح والدعوة للدخول من الباب الضيق ؟
- ما هي حكمة الباب الضيق ؟
 - + هو وصية المسيح .
 - + به نشأه المسيح .
 - + هو طريق جميع القديسين .
 - + هو الأسلوب الذي يناسب الإنسان روحياً .
 - + هو الطريق الموصل للمجد الأبدى .
- مبدأ الباب الضيق في التوبة .
- مبدأ الباب الضيق في الممارسات الروحية .
- مبدأ الباب الضيق في مشاكل الحياة .
 - + المشاكل الأسرية .
 - + مشاكل العمل .
 - + آلام المرض .
 - + إغراءات العالم .

رداً على سؤال وجهه واحد للسيد المسيح يسأل فيه : « يا سيد أ قليل هم الذين يخلصون » ، أجاب : « اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق . فإني أقول لكم إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون ، من بعد ما يكون رب البيت قد قام وأغلق الباب . وابتدأتم تقفون خارجاً وتقرعون الباب قائلين يارب يارب افتح لنا . يجيب ويقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم . حيثئذ تبتدون تقولون أكلنا قدامك وشربنا ، وعلمت في شوارعنا . فيقول أقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم . تباعدوا عني يا جميع فاعلى الظلم » (لو ١٣ : ٢٣ - ٢٧) .

وفي عظته على الجبل يقول رب المجد يسوع : « ادخلوا من الباب الضيق ، لأنه واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك . وكثيرون هم الذين يدخلون منه . ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة ، وقليلون هم الذين يجدونه » (مت ٧ : ١٣ ، ١٤) .

فما هو الباب الضيق الذي يدعونا رب المجد إلى الدخول منه ؟

المقصود « بالباب الضيق » و « الطريق الكرب » التضيق الاختياري على النفس ، مع احتمال الضيقات والضغطات التي تأتي علينا بصبر وفرح وشكر ، وهو ما يعبر عنه رب المجد أيضاً بحمل الصليب .

بين محبة المسيح والدعوة للدخول من الباب الضيق :

في الموضوع الأول من هذا الكتاب ، تكلمنا باستفاضة عن محبة الله الشديدة والفائقة المعرفة للإنسان ... وهنا يبرز سؤال يطرح ذاته : ألا تتعارض محبة الله الشديدة للإنسان مع - لا أقول السماح لأولاده أن يتضابقوا ويتألموا - بل دعوتهم للدخول اختياريًا من الباب الضيق وحمل الصليب ؟!

ما أكثر ما قاله السيد المسيح عما هو عتيد أن يحمل بأولاده والمؤمنين به من ضيقات بمختلف صورها ... فإلى جانب دعوته لأتباعه أن يدخلوا من الباب الضيق ،

ويسلكوا الطريق الكرب، فقد جعل حل الصليب والسير خلفه شرطاً للتلمذة المسيحية. وقال انه يرسلهم كحملان بين ذئاب (لو ١٠ : ٣)، وان في العالم سيكون لهم ضيق (يو ١٦ : ٣٣). ويأتى وقت يظن كل من يقتلهم انه يقدم خدمة لله (يو ١٦ : ٢). وانهم يكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمه (مت ١٠ : ٢٢)، وسيكون وينوحون والعالم يفرح (يو ١٦ : ٢٠).

والسؤال الذى يطرح نفسه هو: كيف تتفق الدعوة إلى الضيق وتحملة مع محبة الله التى لا يوجد ادنى شك فيها... ويمكن طرح السؤال بصورة أخرى: إذا كان الله يحبنا حقاً، فهل يبالي بضيقاتنا؟

والإجابة على هذا السؤال نجدها في قول إشعياء عن السيد الرب: «في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلصهم» (إش ٦٣ : ٩)... بمعنى أن الله يتضايق لضيقاتنا... عجباً، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يسمح بها، وهو قادر على منعها؟... لا بد وأن هناك حكمة إلهية من هذه الضيقات، والآنما سمح الله بها...

الضيقات التى تأتى على الإنسان هى خبره، وهذا يتمشى مع محبة الله وخيرته وصلاحه، وهو القائل: «حتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة» (مت ١٠ : ١٣٠ لو ١٢ : ٧). ولسان النبى إشعياء قديماً قال: «هوذا على كفى نقشتك» (إش ٤٩ : ١٦). ولسان النبى زكريا قال: «لأنه هكذا قال رب الجنود... من يشكم يمس حذقة عينه» (زك ٢ : ٨).

في بدء المسيحية كان مجرد الإيمان بالمسيح والتمسك به هو دخول في دائرة الضيقات واحتمال الأهوال، التى غالباً ما وصلت إلى حد الموت - موت الشهادة... «جميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يضطهدون» (٢تى ٣ : ١٢). ومع ذلك فقد انتشر الإيمان المسيحى في العالم طويلاً وعرضاً وعمقاً. وفضل المسيحيون الحياة مع المسيح، محتملين الآلام والضيقات، عن إنكاره مقابل كل مباحج الدنيا وما فيها من مجد زائل. لا بد إذن انه وراء الضيقات والآلام سر، بل أسرار وبركات، لأن الشهداء والمعتربين لم يكونوا من السذاجة والبلادة حتى يحتملون الآلام المرعبة مقابل لا شيء!!

فما هي حكمة الباب الضيق :

١ - لأنه وصية المسيح وطريقه :

سبق أن ذكرنا وصية السيد المسيح بخصوص الباب الضيق، و حرب منه . وان الطريق الكرب الذى يُدخل إليه من الباب الضيق سر ... سر الصليب... والمسيح قد سار هذا الطريق، قطع أشواطه وعبده بقدميه المباركتين . انه الطريق من بيت لحم إلى الجلجثة . وإذا كانت الطريق الضيقة هي طريق الصليب، فإن الضيقات ذاتها هي حمل الصليب ... فماذا قال رب المجد عن ذلك ؟

« مَنْ لَا يَأْخُذْ صَلْبِيهِ وَيَتَّبِعْنِي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي » (مت ١٠ : ٣٨) ... « مَنْ لَا يَحْمِلْ صَلْبِيهِ وَيَأْتِي وَرَائِي فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تَلَمِيزًا » (لو ١٤ : ٢٧) ... « إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيَنْكُرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلْبِيهِ وَيَتَّبِعْنِي » (مت ١٦ : ٢٤) مر ٨ : ٣٤ .

لكن قد يتبادر إلى ذهن البعض أن هذه الوصايا خاصة بتلاميذ الرب ورسله ... لكن القديس لوقا في إنجيله يوضح الأمر انه للجميع، فيقول : « وقال للجميع، إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيَنْكُرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلْبِيهِ كُلَّ يَوْمٍ وَيَتَّبِعْنِي » (لو ٩ : ٢٣) ... وتأكيذاً لهذا المفهوم، فإن السيد المسيح حينما سأله شاب غنى عما يعمل ليورث الحياة الأبدية، كان جوابه على الفور : « اذهب بع كل مالك واعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعنى حاملاً الصليب » (مر ١٠ : ٢١) ... وواضح من هذا الكلام ان تبعية السيد المسيح تستلزم حمل الصليب كناية عن قبول الضيقات وتحمل الآلام برضى قلبى .

والباب الضيق هو الباب الذى وجه المسيح منذ ولادته بالجسد، والطريق الكرب هو الطريق الذى سلكه المسيح من بيت لحم إلى الجلجثة ... ومن السهل جداً أن ندرك ذلك إذا تتبعنا المسيح في حياته بالجسد على الأرض ... فولادته في مذود للبهائم كأحقر إنسان في الحياة، إلى هروبه لمصر من وجه هيرودس الطاغية الذى كان يريد قتله، إلى تحديات اليهود المقاومين مدة كرازته وهى أكثر من ثلاث

سنوات ، إلى تحمله الشتائم والإهانات والمحقرات من خليقته ، إلى خيانة يهوذا وهو العالم بكل الأشياء قبل حدوثها ، إلى قبوله الآلام بإرادته من أجل خلاص البشرية ... كل ذلك صور من الباب الضيق الذى دخل منه السيد المسيح بإرادته حينما كان بالجلوس على الأرض .

٢ - لأن به نشابه السيد المسيح :

معلوم أن السيد المسيح هو مثلنا الأعلى . به نفتدى ، وفي اثر خطواته نسير « تألم لأجلنا ، تاركاً لنا مثلاً لكي تتبعوا خطواته » (١ بط ٢ : ٢١) ... ومفروض فينا أن نكون « مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكرّاً بين أخوة كثيرين » (روم ٨ : ٢٩) ... وما هى صورة ابن الله إلا صورة القداسة والألم ... « محترق ومردول من الناس . رجل أوجاع ومختبر الحزن » (إش ٥٣ : ٣) ...

لقد أحب الرب يسوع الألم واشتراه « لى صبغة اصطبغها ، وكيف انحصر حتى تُكتمل » (لو ١٢ : ٥٠) ... وعنه يقول معلمنا القديس بولس : « الذى من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالحزى » (عب ١٢ : ٢) ... لقد سأل الرب يسوع يعقوب ويوحنا ابنى زبدي : « اتستطيعان أن تشربا الكأس التى سوف أشربها أنا ، وأن تصطبغا بالصبغة التى اصطبغ بها أنا . قالوا له نستطيع » (مت ٢٠ : ٢٢) .

قال أحد الآباء : [إن الفرح فى الألم هو مقياس حرارة حب النفس للمسيح . الإنسان الكامل يرحب بالألم ويفرح به . والفاتر يهرب منه ويضيق به ذرعاً ... لقد أقام الرب يسوع الدليل على حبه للبشر بالتألم لأجلهم . فمن الصواب والعدل أن يبرهن البشر عن حبهم الصادق له بتألمهم لأجله] ... إن أعظم تقدمة يمكن أن يقدمها المسيح لله هو تقدمة ذاته ذبيحة روحية مع ذبيحة المسيح مخلصه المصلوب ... هذا ما يعنيه القديس بولس حينما يكتب لأهل رومية موصياً « ان يقدموا أجسادهم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله » (روم ١٢ : ١٠) .

٣- لأنه الطريق الذى سلكه جميع القديسين :

ولأن المسيح له المجد قال بصفة عامة : « مَنْ لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى ... مَنْ لا يحمل صليبه ويأتى ورائى فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً » (مت ١٠ : ٣٨ ؛ لو ١٤ : ٢٧) ، فقد سار جميع الأبرار فى الطريق الكرب بعد أن دخلوه من الباب الضيق حاملين الصليب ، لأن رب المجد جعل حمل الصليب وتبعيته والسبر وراءه شرطاً لتبعيته والتلمذة له ...

والرسل الذين هم باكورة المؤمنين فى العهد الجديد دخلوا من الباب الضيق نظير معلمهم ، وساروا طريق الصليب بفرح ، حتى ان يعقوب الرسول يقول : « احسبوه كل فرح يا اخوتى حينما تقعون فى تحارب متنوعة . عالين أن امتحان إيمانكم ينشئ صبراً . وأما الصبر فليكن له عمل تام ، لكى تكونوا تامين وكاملين غير ناقصين فى شئ » (يع ١ : ٢ - ٤) . ويقول بطرس الرسول للمؤمنين : « إن تألمتم من أجل البر فطوباكم ... فإذا قد تألم المسيح لأجلنا بالجسد ، تسلموا أنتم أيضاً بهذه النية (بهذا المثال) ... بل كما اشركم فى آلام المسيح ، افرحوا لكى تفرحوا فى استعلان مجده أيضاً مبهجين » (١ بط ٣ : ١٣ ؛ ٤ : ١ ، ١٣ ، ١٤) ...

وفى فاتحة رؤياه يوجه يوحنا كلامه للمؤمنين فيقول : « أنا يوحنا أخوكم وشريككم فى الضيقة ، وفى ملكوت يسوع المسيح وصبره » (رؤ ١ : ٩) ... وواضح من هذه الكلمات أن الضيقة ملازمة للملكوت « الضيقة وملكوت يسوع المسيح » .

وإذا اتينا إلى القديس بولس ، نقرأ فى قصة اهتدائه للمسيحية ، ان السيد المسيح يظهر لحنانيا أسقف دمشق الذى اقتبل بولس نعمة المعمودية على يديه ويقول له عنه (بولس) : « سأريه كم ينبغى أن يتألم من أجل إسمى » (أع ٩ : ١٦) ... ونلاحظ أن هذه الكلمات ليست نوعاً من التوعد والوعيد لبولس مقابل اضطهاده للكنيسة والمؤمنين قبل اهتدائه ، لكنها كشف للبركات التى كان بولس عتيداً أن ينالها من خلال ضيقات إيمانه وخدمته .

عجياً ... وهل الضيقات تُحصى ضمن البركات ؟ نعم . هكذا قال السيد المسيح . فحينما قال له بطرس ذات مرة نيابة عن بقية التلاميذ : « ها نحن قد تركنا كل شئ وتبعناك » ، كان جواب المسيح : « الحق أقول لكم ليس أحد ترك بيتاً أو

أخوة أو أخوات أو أباً أو أمّاً أو امرأة (زوجة) أو أولاداً أو حقولاً لأجل ولأجل الإنجيل، إلّا ويأخذ مئة ضعف الآن في هذا الزمان بيوتاً وأخوة وأخوات وأمّهات وأولاداً وحقولاً مع اضطهادات، وفي الدهر الآتى الحياة الأبدية» (مر ١٠ : ٢٨ - ٣٠) ... رأيت كيف يحصى ربنا يسوع الاضطهادات ضمن البركات التى بناها الإنسان في هذه الحياة؟!

وما أكثر ما كتبه بولس الرسول عن الآلام والضيقات وما يصاحبها من بركات :

إنه يعتبرها شركة مع المسيح في آلامه « لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته » (في ٣ : ١٠) ...

وهو يفرح في الضيقات ... « أفرح في الآلام لأجلكم . واكمل نقائص شوائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذى هو الكنيسة » (كو ١ : ٢٤) ... إنه تعبير عجيب يكشف به بولس أن المؤمنين يؤلفون جسد المسيح السرى غير المنظور . وهم إذ يتألمون ، فإنهم بذلك يكملون نقائص شوائد المسيح ... حينما قال المسيح على الصليب : « قد أكمل » ، كان يتكلم عن خلاص البشرية وأنه أكمله بموته على الصليب ... لكن آلام المسيح وشوائده لم تكمل بعد . والمؤمنون يكملونها باحتمالهم كل ما يأتى عليهم من أجل المسيح والإيمان به .

ويكشف بولس ان الضيقات واحتمالها هى مؤهلنا للملكوت الأبدى . فقد كان يشدد مؤمنى آسيا الصغرى ويكشف لهم عن بركات الضيقات وعاقبتها بقوله : « بضيقات كثيرة ينبغى أن ندخل ملكوت الله » (أع ١٤ : ٢٢) ... تعلمون أننا موضوعون لهذا . لأننا لما كنا عندكم سبقنا فقلنا لكم اننا عتيدون أن نتضايق » (١ تس ٣ : ٢ - ٤) .

وأكثر من هذا نرى بولس يتخطى مرحلة احتمال الضيقات بصبر إلى الافتخار بها باعتبارها قرينة الإيمان « نفتخر أيضاً في الضيقات ، عالين أن الضيق ينشئ صبراً ، والصبر تركية والتزكية رجاء » (رو ٥ : ٣ ، ٤) ... وليس الافتخار بها فحسب بل الفرح بها . « لذلك اسر بالضعفات والشنائم والضرورات والاضطهادات والضيقات لأجل المسيح ، لأننى حينما انا ضعيف فحيثئذ أنا قوى » (٢ كو ١٢ :

١٠) ... ففي الضيقات تظهر معونة النعمة الإلهية، ويمرّ الإنسان أنها شركة مع الرب في آلامه ... بل أكثر من هذا يرتفع هذا الرسول بالضيقات والآلام ليجمعها هبة روحية من الله للإنسان «وَهَبْ لَكُمْ لأجل المسيح، لا أن تؤمنوا به فقط، بل أن تتألموا أيضاً» (في ١ : ٢٩).

• وإذا انتقلنا من رسل المسيح إلى القديسين عامة، نراهم يجمعون على بركات الباب الضيق والطريق الكرب، طريق الصليب. وميزة أقوال القديسين أنها تعبير عن خبرتهم الشخصية.

+ لم تدخر لنا المخطوطات والكتب النسكية أقوالاً للقديس بولس البسيط تلميذ الأنبا أنطونيوس الكبير، سوى مقولة واحدة يقول فيها: [الذي يهرب من الضيقة يهرب من الله].

+ وفي عظة وداعية قال القديس مقاريوس الكبير لأولاده الرهبان: [مَنْ ذا الذى تكلل قط بدون جهاد. وَمَنْ استغنى بدون عمل. وَمَنْ ربح ولم يتعب أولاً. أى بقال جمع مالا، أو أى عاطل لا تنفذ ثروته. انه بضيقات كثيرة ندخل ملكوت السموات. فليحرص كل منكم على قبول الاتعاب بفرح عالماً أن من وراثتها كل غنى وراحة].

+ ويقول القديس باخوميوس أب الشركة الرهبانية: [تقبّل كل التجارب بفرح، عالماً بالمجد الذى يتبعها. فإنك إن تحققت من ذلك فلن تملّ من احتماها. لدرجة انك تطلب من الله أن لا يصرفها عنك] ... كما يقول: [هل نظن أن تقطيع الأعضاء والحرق وحدهما شهادة؟ لا. بل تعب النسك والضربات التى من الشياطين والأمراض. فمَنْ يحتمل كل ذلك بشكر فذلك هو الشهيد. وإلا فما الحاجة لأن يكتب بولس الرسول إنى أموت كل يوم. فإنه لم يكن يموت في الظاهر كل يوم بل كان بصبر يحتمل ما يأتى عليه].

+ ويقول مار إسحق السريانى: [لا تكره الشدائد، فباحتماها تنال الكرامة، وبها تقترب إلى الله. لأن النياح الإلهى كائن داخلها. وعجب الصلاح هو الذى يحتمل البلايا بفرح].

+ ويقول القديس برصنوفوس : [لماذا تصغر نفسك في الأحزان مثل إنسان جسدانى ؟ ألم تعلم أن الأحزان موضوعة للقديسين ؟ ألم تسمع أن كثيرة هي أحزان الصديقين ، ومن جميعها ينجيهم الرب ؟ ألم تعلم أن الصديق يُمتحن بالأحزان كما يُمتحن الذهب بالنار . فإن كنا صديقين فبالأحزان نُختبر ، وإن كنا خطاة فبالأحزان نُؤدب] .

+ وقال أحد الآباء : [إن كل إنسان يُسلم نفسه لشدة بهواه (بإرادته) من أجل الله ، فلي إيمان أن الله يحسبه مع الشهداء . وذلك البكاء الذى يذرفه في تلك الشدة يحسبه الله عوض الدم] .

٤ - لأنه الأسلوب الذى يناسب الإنسان روحياً :

إذا كان الله يسمح بحدوث الضيقات للبشر ، فلا معنى ذلك أن الله يُسَرَّ بتضايق الإنسان وتألمه ... بل على العكس فإن الله يريد خير الإنسان الروحى . ولأنه يعرف طبيعة الإنسان وميله للأرضيات والجسدانيات ، فإنه يتعامل معه بالطريقة التى تناسبه ... بعد أن أغرق الله العالم بالطوفان في زمان نوح . وبعد أن انتهى كل شيء وخرج نوح من الفلك بنى مذبحاً للرب ، فتنسّم الرب رائحة الرضا وقال في قلبه : « لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان ، لأن تصوّر قلب الإنسان شرير منذ حدائته . ولا أعود أيضاً أميت كل حيّ كما فعلت » (تك ٨ : ٢٠ ، ٢١) .

يقول القديس بولس الرسول : « اسلكوا بالروح فلا تكتملوا شهوة الجسد . لأن الجسد يشتهى ضد الروح والروح ضد الجسد . وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون ما لا تريدون » (غل ٥ : ١٦ ، ١٧) ... كما يقول عن طبيعة الإنسان المائنة للشر : « فإني أعلم أنه ليس ساكن فنيّ ، أى في جسدى شيء صالح . لأن الإرادة حاضرة عندي ، وأما أن أفعل الحسنى فليست أجدر . لأنني لست أفعل الصالح الذى أريده ، بل الشر الذى لست أريده فأياه أفعل ... حينما أريد أن أفعل الحسنى (أجدر) أن الشر حاضر عندي . فإني أَسَرُّ بناموس الله بحسب الإنسان الباطن . ولكنى أرى ناموساً آخر في أعضائى يجارب ناموس ذهنيّ ، ويسببني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائى . . وعي أنا الإنسان الشقيّ . من

ينقذنى من جسد هذا الموت» (رو ٧ : ١٨ - ٢٤) .

وهكذا نرى أن الإنسان بحسب تكوينه وطبيعته ضعيف ، فضلاً عن وجود عوامل جذب كثيرة وقوية تشده إلى كل ما هو أرضى ترائي وجسداني ... لذا فإن الضيقات نافعة للإنسان لأنها تنبهه وتفيقه وترده إلى صوابه ، وتعرفه ضعف ذاته وطبيعته ، فيرفع عقله وقلبه من حيث عونه ... يقول المرنم : « معونتي من عند الرب » .

يقول داود النبي : « أنا قلت في طمأنيتي لا أترزع إلى الأبد . يارب برضاك ثبت لجبل عزاً . حجبت وجهك فصرْتُ مرتاعاً » (مز ٣٠ : ٦ ، ٧) ... والمعنى أن داود قال في وقت قوته انه لا يتزعزع ، وللحال حجب الله وجهه ومعونته عنه فصار مرتاعاً وقلقاً . ويقول بعدها مباشرة : « إليك يارب أصرخ وإلى السيد اتضرع ... سمع الرب فرحني . الرب صار لي عوناً . حولت نوحى إلى فرح . مزقت مسحى ومنطقتني سروراً » (الترجمة القبطية) .

ما أشد ضعف الإنسان ، وما أكثر ما تخونه إرادته على الرغم من معرفته أين يوجد الصواب ... ولولا نعمة الله التي تسندنا مراراً عديدة ، والتي تنبهنا بطرق مختلفة وسائط شتى ، لصرنا شيئاً آخر غاية في السوء والرداءة ... الله في معاملاته مع جبلته يعامل كل واحد بالطريقة التي تناسبه من أجل خيره ... وللأسف فغالباً ما لا يتنبه الإنسان إلا بالضيقات . يقول أحدهم : [إن الضيقات هي لغة الله لمحبيه !!] وهكذا نرى أن الضيقات التي تأتي على الإنسان نافعة لخلاصه .

ثم ان الله بواسطة الضيقات ينقى الإنسان من الأخطاء والضعفات ... يقول رب المجد يسوع : « أنا الكرمة الحقيقية وأبى الكرام . كل غصن فنى لا يأتى بشمر ينزعه . وكل ما يأتى بشمر ينقيه ليأتى بشمر أكثر » (يو ١٥ : ١) ... إن عملية التنقية ، عملية تستوجب قطع أجزاء من الأغصان وهو ما يعرف باسم التقليم ... ولو كان للنبات أن يتكلم ويعبر بالكلام عن احساسه ، لأدركنا أنه يتألم !! وفي بعض النباتات إذا جُرحت بسلاح سالت منها عصارة وكأنها الدموع !! هذا ما يفعله الله مع أولاده الذين يحبهم . انه ينقيهم ليأتوا بشمر روحى أكثر ... يقول أحد الآباء : [كما أن الغصن حينما يُشَدَّب ، تسيل عصارته وكأنه يبكى ، إلا أنه لا يلبث حتى تظهر براعمه التي تنفتح عن زهور جميلة ، تتحول بعد ذلك إلى ثمار يانعة شهية .

كذلك المسيحى وهو غصن مرمى فى المسيح الكرمة الحقيقية، حينما تحيط به الآلام، يبدو- بادىء ذى بدء- وكأن تلك الآلام تسحقه، إلا أنه لا يلبث حتى يتجدد ويزداد حيوية، وتتكاثر فيه ثمار الروح القدس العجيبة [... يقول القديس أغسطينوس:] التبن شيء والخنطة شيء آخر. ومع ذلك فالنورج يمر فوق كليهما يسحق التبن وينقى القمح] .

٥ - لأنه الطريق الموصلة للمجد الأبدى :

يحدثنا سفر أعمال الرسل عن منهج الرسولين بولس وبرنابا فى بعض مدن آسيا الصغرى . وكيف كانا « يشددان أنفس التلاميذ، ويعظانهم أن يثبتوا فى الإيمان . وانه بضيقات كثيرة ينبغى أن ندخل ملكوت الله » (أع ١٤ : ٢٢) ... وكلمة « ينبغى » تفيد لزوم هذا الشيء الذى هو الضيقات الكثيرة !!

أظهر أهل تسالونيكي استعداداً طيباً لقبول الإيمان المسيحى . بل إن إيمانهم كان ينمو وفضائلهم تزدهر . فكتب إليهم القديس بولس مشجعاً وموضحاً أن الاضطهادات والضيقات التى يحتملونها إنما هى مؤشر لاستحقاقهم للملكوت ... « اننا نحن أنفسنا نفتخر بكم فى كنائس الله من أجل صبركم وإيمانكم فى جميع اضطهاداتكم والضيقات التى تحتملونها، بئنة على قضاء الله العادل، انكم تؤهلون للملكوت الله، الذى لأجله تتألمون أيضاً . إذ هو عادل عند الله أن الذين يضايقونكم يجازيهم ضيقاً . وإياكم الذين تضايقون راحة معنا عند استعلان الرب يسوع من السماء مع ملائكة قوته » (٢ تس ١ : ٣-٧) ... كما يكتب هذا الرسول إلى أهل كورنثوس ويقول : « لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً » (٢ كو ٤ : ١٧) .

ويصور لنا يوحنا الرسول فى سفر الرؤيا مكانة الذين يحتملون الضيقات فى العالم الآخر فيقول : « بعد هذا نظرت، وإذا جمع كثير لم يستطع أحد أن يعده من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة، واقفون أمام العرش وأمام الحروف، متسرلين بثياب بيض، وفى أيديهم سعف النخل ... وهم يصرخون بصوت عظيم قائلين : الخلاص لإلهنا الجالس على العرش وللخروف . وجميع الملائكة كانوا واقفين حول

العرش والشيخ والحيوانات الأربعة، وخرّوا أمام العرش على وجوههم وسجدوا لله قائلين: آمين البركة والمجد والحكمة والشكر والكرامة والقدرة والقوة لإلهنا إلى أبد الآبدين آمين. وأجاب واحد من الشيخ قائلًا لى: هؤلاء المتسربلون بالثياب البيض من هم، ومن أين أتوا. فقلت له يا سيد أنت تعلم. فقال لى: هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة، وقد غسلوا ثيابهم وبيضوا ثيابهم فى دم الخروف. من أجل ذلك هم أمام عرش الله ويخدمونه نهاراً وليلاً فى هيكله. والجالس على العرش يحلّ فوقهم. لن يجوعوا بعد. ولن يعطشوا بعد. ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحرّ. لأن الخروف الذى فى وسط العرش يرعاهم ويقتادهم إلى ينابيع ماء حية، ويمسح الله كل دموعهم من عيونهم» (رؤ ٧ : ٩ : ١٧).

إن الألم والضيقات هى علامة أكيدة للتأهل للسعادة الأبدية ... هذا ما يكشفه مخلصنا حينما قال لتلاميذه: «الحق الحق أقول لكم إنكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح. أنتم ستحزنون ولكن حزنكم يتحول إلى فرح» (يو ١٦ : ٢٠).

مبدأ الباب الضيق فى الحياة الروحية :

لا يقتصر مبدأ الباب الضيق على الضيقات والضغطات التى تأتى على الإنسان من الخارج، بل يشمل أيضاً تضيق الإنسان على نفسه إختيارياً فى جهاده الروحى ... ونعرض الآن لبعض أمثلة للباب الضيق فى الحياة الروحية.

أولاً - فى التوبة :

لا شك أن التوبة هى أحد الأبواب الضيقة التى على الإنسان أن يدخل منها بإرادته. ففى التوبة، يجب على الإنسان أن يضيق على ذاته، فلا يعطيها ما تشتهيه من شهوات غير مقدسة ... ولنتفهم وصية الرب «اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق». إذن هو يتكلم عن عمل إرادى على الإنسان أن يقوم به.

يقول مار يوحنا سابا (الشيخ الروحانى) ... [كما أن آدم الجسدانى من حواء يُولد له بنون يشبهه لعالمه الجسدانى، كذلك المسيح أب العالم الروحانى - من المعمودية

والتوبة - يُولد له بنون يشبهه للعالم الروحاني ... فكيف نجدها (التوبة) إن كانت قريبة ؟ يا أبانا أرنا إياها ... إنها على الباب اللطيف الضيق . وكل من يصبر لصعوبته المظلمة ، ويخرج منه يلقي لوقته ملكوت النور ويتنعم . وذلك الباب الذى لمُدخل الحياة . فإنه فى أى بلد يوجد داخلكم ، وبابها هذا هو التوبة ... ليس من تمسك برجائك ونزل إلى الجحيم ، ولا من صعد إلى السماء بدونك . من يرى الله بغيرك ١٩ من تمسك برجائك ووقع فى يد الشيطان . ومن تطهر ولم تكونى أنتى التى غسّلتيه . من الذى سقى زرع من مطرك ، ولم يحصد منه أثمار الفرح . ومن صبغ وجهه كل ساعة بقطراتك ولم يبصر الله فى قلبه . من اتخذك شفيعه ولم تفتحى أمامه أبواب خزان الله . أنتى خلّصت داود من الخطية ... صدر الحكم على أهل نينوى بالهلاك ، ولكنك تحبّرت وقميت وخلصتهم] .

+ صعوبات التوبة :

السيد المسيح ينادى المتعبين والثقيل الأحمال ليرحمهم . ويدعوهم لحمل نيره ، ويصفه بأنه هين وخفيف (مت ١١ : ٢٨ - ٣٠) ... ولا شك أن الخطاة والأشرار هم من هؤلاء المتعبين الذين يدعوهم المسيح ليرحمهم ... والراحة لا تتأتى إلا بالتوبة . لكن قول المسيح ان نيره هين وحمله خفيف لا يعنى أن التوبة تخلو من الصعوبات ... على العكس ، فإن فيها صعوبات مؤكدة ، لأنها دخول من الباب الضيق ، والسير فى الطريق الكرب ... ويقابل صعوبات الطريق أن المسيح له المجد يرافق كل السائرين فيها ... يُعزّيهم ويسندهم ويشددهم واحساس الإنسان برفقة المسيح وحنوه ولطفه وحلاوته تُنسيه كل متاعب الطريق ...

فما هى صعوبات التوبة ؟

١ - صعوبة الافلاع عن الشهوات المحببة للنفس :

لا نستطيع أن ننكر دور نعمة الله فى كل صلاح يعمله الإنسان ، مصداقاً لقول الرب يسوع نفسه : « بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً » (يو ١٥ : ٥) ... « لا يقدر أحد أن يُقبل إلئى إن لم يجتذبه الآب الذى أرسلنى » (يو ٦ : ٤٤) .

التوبة إذن محتاجة إلى نعمة الله لموازة الإنسان الذى يريد أن يتوب ، لذا يصرخ
ارميا النبى إلى الله قائلاً : «توبنى فأتوب لأنك أنت الرب إلهى» (ار ٣١ : ١٨) ...
لكن هذا لا ينفى دور الإنسان فى تخليص نفسه ، بإظهار إرادته وجهاده وتشبثه
بالحياة مع الله ... وهنا نتذكر قول القديس أغسطينوس الشهير : [الله الذى
خلقك بدونك ، لا يخلصك بدونك] . والمعنى أنك لم تشترك فى خلقه نفسك
(خلقك بدونك) ، ولكن فيما يختص بخلاص نفسك فلا بد أن يكون لك دور بالإرادة
والجهاد وما إلى ذلك . أى أن نعمة الله لا تخلصك وأنت سلبى لا تجاهد ولا تعمل شيئاً
من أعمال التوبة ...

هناك شهوات يحبها الإنسان ، وطالما استعبد لها ... هذا ولا شك يحتاج إلى
ثبات ومقاومة وثقة فى معونة الله ، وأيضاً ثقة بالنفس ... ضع العالم كله بما فيه ومن
فيه فى كفة ميزان ، والمسيح ومحبه وأجماده فى الكفة الأخرى ... حدد موقفك أيهما تختار
باراباس أم يسوع (مت ٢٧ : ١٧) ... إن باراباس رمز العالم الحاضر الذى وُضع فى
الشرير . إياك أن تشابه اليهود فى اختيارهم باراباس أمام الوالى الرومانى بيلاطس ...

أنا لا أعرف ما هى الشهوة أو الشهوات التى تسبيك سبياً ، فما أكثر
الشهوات . لكنى أذكرك بوصية المسيح أن تحبه من كل قلبك ومن كل فكر
ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ... وإن من يحب إنساناً - سواء كان أباً أو أمّاً أو
ابناً أو ابنة - أكثر منه فلا يستحقه (مت ١٠ : ٣٧) ... وإذا كان هذا عن المحبة
المشروعة والمقدسة (محبة الآباء والأمهات والأبناء) ، فماذا نقول عن الحب الشهوانى
الدنس وغير المقدس ؟! ... أذكرك أيضاً بقول رب المجد : «من لا يأخذ صليبه
ويتبعنى فلا يستحقنى . من وجد حياته يضيعها . ومن أضاع حياته من أجل
يحمدها» (مت ١٠ : ٣٨ ، ٣٩) .

اسمع ما أقوله لك ... إن كنت تود من كل قلبك أن تعيش لله فسيمطيك القوة
والنصرة ... «كل شئ مستطاع للمؤمن» (مر ٩ : ٢٣) ... «أستطيع كل شئ فى
المسيح الذى يقوينى» (فى ٤ : ١٣) ... الطفل يُقَطَّم بصعوبة من ثدى أمه . لكن
لا سبيل لنموه إلا بالقطام وتناوله طعام البالغين بالتدريج .

إن الجهاد لازم فى كل مرحلة من مراحل حياة الإنسان . ولا يأتى وقت

يتوقف الإنسان عن الجهاد . قد تتغير الحروب الروحية التى يتعرض لها الإنسان فى مراحل عمره المختلفة ، لكن يظل الجهاد هو سلاح الإنسان الذى به يغلب وينتصر... إن بولس الرسول العملاق يقول : « وكل من يجاهد يضبط نفسه فى كل شيء... أقمع جسدك وأستعبده حتى بعدما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسى مرفوضاً » (١ كو ٩ : ٢٧) ... ما هذا يا بولس ، هل تخشى أن تُرفض بعد كل الخدمات التى قدمتها لسيدك واتعاب الكرازة التى عانيت بها ، وبعد الرؤى الإلهية الكثيرة التى عاينتها واعلنت لك ؟ ... ويعود هذا الرسول ويكتب إلى العبرانيين قائلاً : « لم تقاوموا بعد حتى الدم مجاهدين ضد الخطية » (عب ١٢ : ٤) . فإذا كان هذا هو مقياس هذا الرسول العظيم فى الجهاد ، فماذا عسانا نحن أن نعمل ! ؟

٢ - صعوبة التخلص من الصداقات المعثرة :

الصداقة والصداقات ما أخطرهما ، وما أشد تأثيرها على الإنسان . ومن هنا كانت كلمات الرسول المعلم بولس : « لا تفضلوا فإن المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة » (١ كو ١٥ : ٣٣) ... إن اليد القذرة غير النظيفة إذا امسكت بأى شيء لوثته . هكذا الصداقة الرديئة ... وعلى العكس من ذلك فإن الصداقة الطيبة التى أساسها المسيح هى بركة كبيرة للإنسان ، وعوناً عظيماً له فى حياته الروحية وجهاده ... وقد يرتبط الإنسان بصديق منذ الصغر - وقت البراءة - ويحدث أن هذا الصديق ينحرف حينما يشب عن الطوق . فإذا استمرت الصداقة ، فإن أثرها يكون خطيراً ، وغالباً ما تعود إلى إنحراف الطرف الآخر .

إن الإنسان بحسب تكوينه وطبيعته مائل للشر ، لذا ينصحنا الكتاب المقدس بالهروب من مجالات الخطية والشر ... هذا ما قيل للوط بخصوص سكناه فى سدوم وعمورة : « اهرب لحياتك . لا تنظر إلى ورائك . ولا تقف فى كل الدائرة . اهرب إلى الجبل لتلا تهلك » (تك ١٩ : ١٧) ... لقد حذّره من مجرد النظر إلى الوراء لتلا يميل قلبه إلى شيء مما فى المدينة ، كما حذّره من الوقوف فى كل الدائرة أو المنطقة ...

٣ - صعوبة الاقلاع عن العادات الرديئة المتأصلة :

العادة - أى عادة - تتأصل فى الإنسان بالممارسة ويساعد فى ذلك عامل الزمن . وهى كالشجرة التى يمكن اقتلاعها من جذورها وهى بعد صغيرة ، لكن من الصعب اقتلاعها إذا ما ضربت بجذورها فى باطن الأرض وتغلغل فيها بعامل الزمن ...

ومع تسليمنا بهذا الكلام ومدى تأثير بعض العادات السيئة فى الإنسان ، لكننا نقول إنه لا يوجد شيء مستحيلاً ... ماذا يقول الرسول ... « أستطيع كل شيء فى المسيح الذى يقوينى » (فى ٤ : ١٣) ... وإذا كان الإنسان بإيمانه الحقيقى العميق قادراً على نقل الجبال وإتيان المعائب وصنع المعجزات ، فهل يعجز أن يقلع عنه عادة سيئة رديئة ؟

ولا نستطيع أن نحصى العادات السيئة الرديئة ، لكنها بالتأكيد معروفة للجميع . ولا نتعرض هنا للعادات الضارة المتصلة بالمسألة الجنسية ، لكننا نشير إلى بعض العادات الرديئة التى يستخف الكثيرون بها ، وربما لا يعتبرونها أمراً رديئاً ، مثل التدخين واحتساء الخمر ولو قليل منه ، وشرب المكيفات كالشاي والقهوة ... إلخ . ومضار ادمان هذه المكيفات صحياً أمر معروف ولا يحتاج إلى إثبات . لكن يقول قائل : نعم إن التدخين وشرب الخمر وبعض المكيفات إذا أدمن عليها الإنسان تصبح عادات سيئة ، لكن ماذا فى إدمان شرب الشاي والقهوة ؟ ونحن نقول إن الخطورة فى أى عادة أنها تستعبد الإنسان لها . فتعود شرب الشاي والقهوة وعدم الاستغناء عنهما كثيراً ما عطل شاربهما عن أمور روحية جميلة كممارسة الصوم الانقطاعى . فقد اعتاد هؤلاء بمجرد استيقاظهم أن يشربوا شيئاً منها . وبهذا يحرمون أنفسهم من بركة الصوم الانقطاعى والحكمة منه ...

لا تستهينوا بأى عادة - أياً كانت ... فالعادة السيئة الرديئة تستعبد الإنسان وتسلبه حريته التى وهبها إياه المسيح ... لقد أتى مخلصنا ليحررنا من كل القبود التى استعبدنا أنفسنا لها بإرادتنا . لذا فلنعلم أن المسيح وحده هو القادر أن يحررنا تماماً ... « إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً » (يوحنا ٨ : ٣٦) .

إن الكلام هنا ليس موجهاً لمن هم مستعدون لبعض العادات الرديئة فحسب، لكنه تحذير لكل إنسان من الخطوة الأولى، التي تعقبها خطوات... لنذكر أن أى بناء ضخم يبدأ بقالب طوب واحد. والكتاب الكبير يبدأ بكلمة كتبت على أول سطر بأول صفحة، تتلوها كلمات ثم سطور ثم صفحات وصفحات.

إذا شعرت بالحرية فى المسيح، فاحترس لئلا تُستبد لشيء ما. كن حذراً وكن حريصاً... إن الرسول بولس قيل أن يقول «أستطيع كل شيء فى المسيح الذى يقوينى»، قال: «قد تعلمت أن أكون مكتفياً بما أنا فيه. أعرف أن اتضع وأعرف أيضاً أن استفضل. فى كل شيء وفى جميع الأشياء قد تدربت أن أشبع وأن أجوع، وأن استفضل وأن انتقص» (فى ٤ : ١١ ، ١٢).

٤ - تذكارات الخطايا القديمة :

ومن ضمن صعوبات التوبة، تذكارات الخطايا القديمة، التى قد يكون الإنسان قد أفلح عنها... ويظل عدواً للخبريلوج بها، ويستخدمها لتحريك مشاعر غير مقدسة فى الإنسان، وبالتالي تدنيس فكره...

مثل هذه التذكارات القديمة تصل الكنيسة لأجلها فى صلاة الصلح بالقداس الإلهى، وتطلب إلى الله أن يطهرنا من كل دنس ومن كل رياء ومن كل فعل خبيث ومن تذكارات الشر الملبس الموت. وهو كذلك لأنه إذا استطاع أن يجر الإنسان إلى جور الخطية ثانية - ولو فكراً - فإنه يقوده إلى موت الخطية...

إن التغلب على أمثال هذه الأمور يحتاج إلى عزيمة وجهاد وصبر... ويجب ألا نرتاع من أعدائنا الروحيين، ولا نستضعف أنفسنا. نحن بدون الله لا شيء وعدم ولكن إن احسننا بوجود الله إلى جوارنا، فلنقل: «إن كان الله معنا فمَن علينا» (رو ٨ : ٣١)... «أستطيع كل شيء فى المسيح الذى يقوينى» (فى ٤ : ١٣).

ثانياً - في ممارسات الصلاة والصوم والقراءات المقدسة :

إن كنا قد تكلمنا عن مبدأ الباب الضيق في التوبة ، فإنما تكلمنا عن بعض السلبيات . لكن هناك إيجابيات لا غنى للحياة الروحية عنها ، بل هي بمثابة الروح للإنسان ... ولا قيمة لمقاومة الإنسان للسلبيات ما لم تسندها الإيجابيات ، التي هي بمثابة الغذاء لروح الإنسان ... ولعل أهم هذه الإيجابيات الصلاة والصوم والقراءات المقدسة ... وبطبيعة الحال سوف لا يكون حديثنا بالتفصيل عن كل منها ، لكن كلامنا سيكون عن مبدأ الباب الضيق في كل منها ...

هناك مبدأ في الحياة الروحية نصح به الآباء القديسون هو التفصّب ... لقد استمدوا هذا المبدأ من تعليم السيد المسيح نفسه في قوله : « ملكوت السموات يُنصب ، والغاصبون يختطفونه » (مت ١١ : ١٢) ... فالأمر ليس سهلاً هيناً كما قد يتوهم البعض . فكل شيء في الحياة - أى شيء - لا يناله الإنسان إلا بالجهد والتعب والمشقة ، خاصة إذا كان شيئاً ثميناً . فالطالب والتاجر والزارع والصانع وغيرهم لا يفوزون بما يريدون ما لم يجاهدوا وبكدوا ويتعبوا ... فما بالك بالسماء التي نجاهد من أجل الوصول إليها ... وإذا كان الطالب مثلاً يجاهد بلا كلل ولا ملل ويقاوم رغباته الجسدية في الراحة من أجل الحصول على شهادة دراسية ، ألا نستحق السماء منا مثل هذا الجهاد ؟!

+ نقرأ عن ربنا يسوع المسيح أنه كثيراً ما كان يقضى الليل كله في الصلاة ... ذاك القدوس الذي لم يكن بحاجة للصلاة كان يصل بهذا العمق وهذه الاستمرارية ... ونحن كثيراً ما يخدعنا جسدنا ، ويظهر لنا ضعفاً ، وثقلاً في أعضائنا ... وإذا حدث واستجبنا لخداعه لتوقفنا عن ممارساتنا الروحية ...

ماذا يقول الآباء الذين خبروا الحياة الروحية ؟

يقول مار إسحق السرياني : [هل أنت تعمل فقط لخبز الجسد حينما يكون لك رغبة في العمل . أم انك تجاهد حتى لو لم تكن لك رغبة في العمل ؟ اعلم أن أمر غصب النفس على العمل هو أمر هام جداً في الأمور الدنيوية والروحية أيضاً . هو لازم للصلاة وقراءة الكتب المقدسة والكتب الروحية وحضور الخدمات الإلهية في

الكنيسة . لا تُطغ الجسد الكسول الخادع ، فإنه مملوء خطية ... الجسد يشتهي أن يرتاح على الدوام ، غير مكترث بالهلاك الأبدى الذى يكون عوض راحته القليلة الزائلة] .

ويقول أيضاً : [بقدر ما يشقى الإنسان ويجهاد ويغضب نفسه من أجل الله ، هكذا معونة إلهية تُرسل إليه وتحيط به ، تُسهّل عليه جهاده وتصلح الطريق قدامه ... أما إذا كنت تسأل إلى أى حد اغضب ذاتى ، فإننى أقول لك إلى حد الموت اغضب نفسك من أجل الله ... خير لنا أن نموت فى الجهاد من أن نحيا فى السقوط] !!

على الإنسان ألا يتراخى ، بل عليه أن يغضب نفسه للصلاة حتى لو لم يشعر بدافع للصلاة أو تعزية داخلية (جفاف روحى) ...

يقول القديس مار افرام السريانى : [اسكبوا أمام الله الدموع لتصير صلاتكم كالبحر قدامه . مجارى المياه لوقت الحريق ، ومجارى الدموع فى زمن التجربة . الماء يخمد لهيب النار ، والدموع تطفىء شهوة الشر] ... ويقول القديس يوحنا الدّرجى : [العين الباكية هى جرن دائم لممودية التوبة والتجديد] .

+ وإذا كان غصب النفس لازم فى ممارسة الصلوات ، فهو أيضاً لازم فى الصوم . خاصة الصوم الانتقاعى ... فما أكثر البركات التى لنا بالصوم ... فما هى خبرة آبائنا فيما يختص بالصوم والتغصّب فيه ، الذى هو الباب الضيق ؟

يقول القديس مقاريوس الكبير : [طول الروح هو صبرٌ . والصبر هو الغلبة . والغلبة هى الحياة ، والحياة هى الملكوت ، والملكوت هو الله . البئر عميقة لكن ماءها طيب عذب . الباب ضيق والطريق كربة ، لكن المدينة مملوءة فرحاً وسروراً . البرج شامخ حصين ، لكن داخله كنوزاً جليّة . الصوم ثقيل صعب ، لكنه يوصل إلى ملكوت السموات . فعل الصلاح عسير شاق ، لكنه يُنَجّي من النار برحمة ربنا الذى له المجد] .

ويقول الأنبا باخوميوس أب الشركة الرهبانية : [ما أكثر فخر الصابرين على التجارب . جميع المعلمين والآباء والكتب المقدمة تأمر بالصبر الكثير وتحث عليه . فكن صبوراً وتجلّد ، لأن القديسين صبروا فنالوا المواعيد . كن واسع القلب لتكلم مع جنوده الأطهار . داوم على الصوم وصلّ ولا تملّ . واصبر للبلايا حتى يرفعها الرب عنك .

وانظر لأي درجة ، حتى اللعاب الذى ييس فى فمك وأنت صائم لا ينسأه الله .
وتجد ذلك عند شدتك فى وقت انتقالك] .

ويقول مار إسحق السريانى : [كل جهاد ضد الخطية وشهواتها يجب أن يبتدىء
بالصوم ، خصوصاً إذا كان الجهاد بسبب خطية داخلية] .

كما يقول أيضاً : [مخلصنا الصالح حينما أظهر نفسه للعالم عند الأردن ابتدأ من
هذه النقطة . فحينما اعتمد ، قاده الروح إلى البرية مباشرة ، وصام أربعين يوماً
وأربعين ليلة . وكل الذين يريدون أن يتبعوا خطواته ، عليهم أن يضعوا أساس
جهادهم على مثال عمله] ...

والقديس ايرونيوموس (جيروم) يرد على من يتماحكون ولا يصومون بحجة
خشية ضعف أجسادهم ويقول : [خير لك أن تمرض معدتك ولا تمرض نفسك . وان
ترتجف ركبتك ولا تتزعزع عفتك . فاقمع جسدك واستعبده لئلا تُرذل] ...

وإذا كنا قد تحدثنا عن النغصب فى الصلاة والصوم ، فإنه لازم لنا و،
القراءات الروحية ، وفى مقدمتها الكتاب المقدس ... إن كلمة الله خير من
للإنسان فى غربته فى العالم وجهاده المستمر ... يقول القديس بولس : « كل ما سبق
فكتب ، كُتب لأجل تعليمنا ، حتى بالصبر والتعزية بما فى الكتب يكون لنا رجاء »
(رو ١٥ : ٤) . انه خير مرشد لنا نحن الغرباء فى الجسد فى هذا العالم ...

ثالثاً - فى الاعتراف :

لا شك أن اعتراف الإنسان بخطايه أمام الأب الكاهن هو أحد الأبواب
الضيقة التى عليه أن يدخل منها ... كثيرون يمنهم الخجل من الاعتراف بخطاياهم
عن ممارسة هذا السر المقدس ، الذى به ننال غفران خطايانا . وهكذا يحرمون أنفسهم
من بركات هذا السر بوقوفهم أمام باب الضيق ...

الخجل ولو أنه قاس ومؤلم ، إلا أنه مفيد للإنسان ... انه يشعنا ببشاعة
الخطية ، ومادى حقارة الوقوع فيها . كما يشعنا بأنها - أى الخطية - عار ونقص . وكل
هذه المشاعر لازمة ومفيدة للإنسان فى توبته ... من المفيد للإنسان أن يتألم بسبب

خطيئته حال اعترافه وإقراره بها ، طالما أنه تَلَذَّذَ بها قَبْلَ حال ارتكابها وممارستها ... من أجل هذا قال الآباء القديسون إن سر الاعتراف لجام قوى يكبح جماح الإنسان ويمنعه من العودة إلى الخطأ ...

يقول يشوع بن سيراخ : « لا تَشْتَج من الإقرار بخطاياك » (سيراخ ٤ : ٢٦) ...
يجب على الإنسان أن يتخطى حاجز الخجل ، وينصب ذاته على ولوج الباب الضيق ، في سبيل الفوز براحة ضميره ، حينما ينقل عنا الروح القدس في سر الاعتراف خطايانا ليضعها على المسيح حل الله حامل خطايا العالم كله ، الذى فى استحقاقات فدائه الذى اتّمه على الصليب ، لنا غفران الخطايا (أف ١ : ٧ ؛ كو ١ : ١٤ ؛ عب ٧ : ٢٥ ؛ ١ يوحنا ١ : ٩ ؛ ٢ : ١ ، ٢) .

مبدأ الباب الضيق إزاء مشاكل الحياة :

ما أكثر المشاكل التى تقابل الإنسان فى حياته ... بعض هذه المشاكل يمكن حلّها بطريقة أو بأخرى ، والبعض الآخر لا سبيل إلى حلّه إلاّ من خلال الباب الضيق وسلوك الطريق الكروب ... وسوف لا نُسهب كثيراً فى هذا القسم من موضوعنا ، لكننا سنتناول بالكلام بعض المشاكل الأساسية ونوجزها فى النقاط الآتية :

أ - المشاكل الأسرية :

ونعنى بها هنا مشاكل الزواج والطلاق ... والموضوع متسع ويحتاج إلى موضوع خاص . لكننا نكتفى بمجرد الإشارة ... ما أسهل أن يلجأ أحد الزوجين إلى قصم رباط الزوجية المقدس ، والالتجاء إلى ساحات القضاء لاستصدار حكم بالطلاق ...

إن فى هذا التصرف كسر لناموس المسيح الذى يحتم انه لا طلاق إلاّ لعلّة الزنا ... كان فى الإمكان أن يستمر مثل هذا الزواج ، لو احتمل الطرف المُساء إليه والمتضرر حمل صليبه ، ودخل من الباب الضيق وسار فى الطريق الكروب ... إن الذين يلجأون إلى الطلاق - كوسيلة سريعة للتخلص من مشكلة زوجية - إنما يدوسون شريعة المسيح ... أما النتيجة فهى انهم يتجرعون كأس المرارة ويحصدون ثمر ما زرعوه فى تشرّد أولادهم إلى غير ذلك من ضيقات وآلام وأحزان .

ب - مشاكل العمل :

ما أكثر مشاكل العمل ... مشاكل في التوظيف والترقى إلى درجات أعلا ، وشغل المراكز الرئيسية ، والتعننت في النقل من مكان إلى آخر تبعاً للطروف المعيشية ... إلخ . إن احساس الإنسان بالظلم الواقع عليه إن لم يدفعه إلى الخطأ بصورة ما ، فقد يدفعه إلى الخطأ الروحي كالوقوع في الإذانة والحدق والغضب وغير ذلك ... وفضلاً عن الأخطاء الروحية التي يقع فيها الإنسان ، فقد يتسبب في أن يضر نفسه بأضرار صحية وما أكثرها كارتفاع ضغط الدم ومرض السكر والإصابة بالأزمات القلبية والأزمات النفسية الحادة التي لها أسوأ العواقب ...

ولو ترسم الإنسان خطوات سيده ، ودخل طواعية واختياراً من الباب الضيق - باب احتمال الظلم - لجئى بركات الاحتمال والصبر وكل المواعيد الصالحة التي وعد بها الله المضطهدين لأجل اسمه ... على الإنسان المظلوم أن يوفى إيقاناً تاماً أن المسيح الإله يرافق كل الذين يَلْجُؤْنَ الباب الضيق ويسيرون في الطريق الكرب حاملين صليبهم . وعليه أن يتأكد أن الله سوف يعوّضه عن الظلم المادى ببركات أخرى مادية وروحية في حياته وصحته وأسرته وكل ما تمتد إليه يده ... والبركات يعطيها واضع الناموس ، ولا يمكن أن تُحد لكنها تشمل كل شيء ...

من المفيد في أمثال هذه الحالات أن ننظر إلى المسيح ونأمله . فهو الذى قيل عنه : « ظلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه » (إش ٥٣ : ٧) . . ليتنا بذكر قوله : ليس التلميذ أفضل من معلمه ، ولا العبد أفضل من سيده . إن كانوا قد اضطهدونى فيضطهدونكم . إن كانوا قد فعلوا هذا بالعود الرطب فكُم باليأس (مت ١٠ : ٢٤ ، ٢٥ ؛ لو ٢٣ : ٣١ ؛ يو ١٥ : ٢٠) ...

إن الله لن يترك الظلم يسود وكأنه لا يوجد إله برعى هذا الكون ... اسمع ما يقوله داود النبى ... « لا تَغْرَ من الأشرار ، ولا تحسد عمال الإثم . فإنهم مثل الحشيش سريعاً يُقْطَعُونَ ، ومثل العشب الأخضر يذبلون . اتكل على الرب وافعل الخير ... تَنْدُزْ بالرب فيعطيك سؤل قلبك . سَلِّم للرب طريقك واتكل عليه وهو يُجْرِى . ويُخرج مثل النور بركَ وحَقِّك مثل الظهيرة . انتظر الرب واصبر له ، ولا تَغْرَ من الذى ينجح في

طريقه... كُتبت عن الغضب واثرك السخط ولا تَغْرِ لفعل الشر. لأن عامل الشر يُقَطَّمون، والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض. بعد قليل لا يكون الشرير. تَقْلَع في مكانه فلا يكون. أما الودعاء فيرثون الأرض، ويتلذذون في كثرة السلامة» (مز ٣٧ : ١ - ١١).

ج - آلام المرض :

واحتمال أمراض الجسد واتعبه هو باب ضيق يدخله الإنسان بإرادته وله أجره الكبير... وأخبر أحد الآباء القديسين انه اصبر اربعة مراتب مرتفعة في السماء : الأولى مريض صابر شاكر الله . والثانية صحيح يضيف الغرباء وينتج الضعفاء . والثالثة منفرد في البرية مجتهد . والرابعة تلميذ ملازم لطاعة أبيه الروحي من أجل الله ... إن المريض الشاكر كمن يقدم جسده ذبيحة لله كل يوم... كان المنتج الأب القمص بيشوى كامل كاهن كنيسة الشهيد مار جرجس باسبورتج بمدينة الاسكندرية، وهو يعاني من آلام مرض السرطان المرعبة، يتسم ويقول عن هذا المرض اللعين : [إنه مرض الفردوس] !!

د - اغراءات العالم وما تخفيه :

وما أكثر اغراءات عالما الذي يعيش فيه ... انه يغرينا بصور مختلفة، تُخفى وراءها غاظر وأهوال، لا يعرف ما تحره من مصائب إلا الله وحده... كان أبائنا القديسون يرون أمامهم الطريق الواسع المريح، لكنهم كانوا يعدلون عنه، ويلقون بأنفسهم في الضيقات بإرادتهم، عالين أن وراءها كل الخير... إن المسيح ينتظر كل أحبائه عند الباب الضيق، ليدخل معهم، ويدخلوا هم به إلى الطريق الضيقة. ورد كتب سيدنا لرهفاد قصة راهب شيخ كان مقيماً في البرية. وكان يستقى من عين ماء تبعد عن مكان اقامته اثنا عشر ميلاً. وفي إحدى المرات بينما هو ذهب ليستقى تضايق وقال لنفسه : [لماذا أعاني هذا التعب. فلأذهب وأسكن قرب عين الماء]. وفيما هو يصكر في ذلك، التفت إلى خلفه وأبصر شيخاً بعد خطواته. فسأله : [من أنت]. أجابه : [أنا ملاك الرب، أرسلت من الله لأعد خطوتك لكي يعطيك أجر تعبك!!]. فلما سمع الشيخ ذلك طابت نفسه، وراح على المسافة التي كان يقطعها خمسة أميال أخرى.

الملكوت

- ملكوت الله وملكوت السموات .
- فكرة الملكوت في العهد القديم .
- ملكوت المسيح روحى لا مادى .
- ما المقصود بملكوت الله ؟
- أمثال المسيح عن الملكوت ودلالاتها :
 - + مثل الزارع .
 - + مثل الزوان والحنطة والشبكة المطروحة في البحر .
 - + مثلاً حبة الخردل والخميرة .
 - + مثل القملة في الكرم .
 - + مثل العرس والمدعوين .
 - + مثلاً لكسر المحمى في الحقل واللؤلؤة الكثيرة الثمن .
 - + مثل العذارى .
- سعادة الملكوت والحياة الأبدية .

إن التفكير في السماء والشوق إليها كان وما يزال الفكر المحرك لكل القديسين ورجال الله في كل زمان ومكان ... ومجرد تذكارات أمجادها ، وما ينتظر القديسين فيها ، يعطى دفعة روحية قوية للمجاهدين ، تُسيهم كل أتعابهم .. وقد عبر القديس بولس الرسول عن هذا الحنين حينما كتب من سجنه في روما إلى أهل فيلبى يقول : « لى إشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح (في السماء) ، ذلك أفضل جداً » (في ١ : ٢٣) ...

هذا ما دفع القديسين إلى احتمال كل ما صادفهم من ضيقات ومصاعب تجلّ عن الوصف - ليس في صبر فقط ، بل بتلذذ ... « خفة صيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً . ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي ترى بل إلى التي لا ترى . لأن التي تُرى وقتية ، وأما التي لا ترى فأبدية » (٢ كو ٤ : ١٧ ، ١٨) ... وقبل بولس بأجيال كثيرة قال المرتل : « مَنْ لى في السماء ، ومعل لا أريد شيئاً في الأرض » (مز ٧٣ : ٢٥) .

إن كل مَنْ عاش على هذه الأرض كغريب وسائح جاعلاً وجهته الأبدية العتيدة ، تذوق مقدماً تلك السعادة الخالدة التي لا توصف ... « ما لم ترَ عينٌ ، ولم تسمعُ ذنٌ ، ولم يخطر على بال إنسان ، ما أعدّه الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩) .

إن لتفكير في السماء يقود النفوس في جهادها لبلوغ حكمة التطويات إلى ذرى البطولة والكما ... والشوق إلى السماء يحمرّ القلب ، لا من التعلّق بالأرضيات فحسب ، بل ومن كل الميول الأرضية والجسدانية .

لقد صلى الرب يسوع قيل آلامه ... « أيها الآب ، أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا ، ليسطروا مجدى الذى أعطيتني لأنك احببتني قبل إنشاء العالم » (يو ١٧ : ٢٤) .. كانت هذه هى شهوة قلب الرب يسوع من جهة أولاده القديسين ... ومازال أولاد الله في كل آن ومكان يعيشون في غربة حقيقية إلى أن يصلوا وطنهم المساوى ... « فإذا نحن واثقون كل حين وعالمون أننا ونحن مستوطنون في الجسد ، فنحن متعربون عن الرب ... فنتق ونُسّر بالأولى أن نتغرّب عن الجسد ونستوطن عند الرب » (٢ كو ٥ : ٦ - ٨) .

ملكوت الله وملكوت السموات :

يفتح مرقس الإنجيلي بشارته بقوله : « وبعد ما أُسْلِمَ يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله . ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله ، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل » (مر ١ : ١٤ ، ١٥ - انظر مت ٤ : ١٧) .

ويتكلم متى الإنجيلي عن كرازة يوحنا المعمدان في برية اليهودية ومناداته قائلاً : « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (مت ٣ : ٢ ، ٣ : ١٠) .

والرب يسوع المسيح منذ بداية خدمته الجهارية إلى أن رُفِعَ على الصليب ، استمر يشرّ بملكوت الله والتحدث عنه بأمثاله وتعاليمه ... ولا نكون مباغين إن قلنا إن حياة السيد المسيح ورسائله التعليمية قد تركزت حول موضوع « الملكوت » .

وفي العهد الجديد يقابلنا تعبيران عن الملكوت : ملكوت الله (وباليونانية باسيليا توثيو Basilea Tou Theou) ، وملكوت السموات (وباليونانية باسيليا تون أورانون Basilea Toun Oranoun) ...

يقول السيد المسيح له المجد لتلاميذه : « قد اعطى لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السموات » (مت ١٣ : ١١) . وفي موضع آخر قال لهم : « لكم قد اعطى أن تعرفوا أسرار ملكوت الله » (لو ٨ : ١٠) . ومرة ثالثة قال للاثنى عشر : « قد اعطى لكم أن تعرفوا سر ملكوت الله » (مر ٤ : ١١) ... وفي ورود هذه الصيغة في الأناجيل الثلاثة يتبين لنا أن « ملكوت الله » و« ملكوت السموات » هما تعبيران لشيء واحد أو مستقًى واحد . فهو « ملكوت السموات » بالنسبة لعرش الله في هذا الملكوت ، « فالسماء كرسى الله والأرض موطء قدميه » (مت ٥ : ٣٤ ، ٣٥) وهو ملكوت الله على الأرض وحكم السماء فيها . ولعل هذا ما قصد إليه السيد المسيح في الطلبات الثلاث الأولى في الصلاة الربّية « ليتقدس اسمك . ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك ، كما في السماء كذلك على الأرض » (مت ٦ : ٩ ، ١٠) .

في الإنجيل بحسب القديس متى يرد تعبير « ملكوت السموات » حوال
 ٣٢ مرة، بينما يرد تعبير « ملكوت الله » ست مرات فقط. وترد كلمة
 « ملكوت » وحدها خمس مرات... وفي الإنجيلين بحسب القديس مرقس
 والقديس لوقا لا يرد إلا تعبير « ملكوت الله ». أما يوحنا في إنجيله فلا يذكر سوى
 « ملكوت الله » في حديث المسيح مع نيقوديموس (يو ٣ : ٣ ، ٥) . وفي سفر أعمال
 الرسل يرد تعبير « ملكوت الله » ست مرات ، ولفظ « ملكوت » مرتين .

وفي رسائل القديس بولس يرد تعبير « ملكوت الله » حوال ثمان مرات... وفي
 (١ كو ١٥ : ٢٤) يذكر بولس أن المسيح يسلّم الملك لله الآب... وفي (أف ٥ : ٥)
 يذكر تعبير « ملكوت المسيح والله » ، بينما في (كو ١ : ١٣) يذكر تعبير « ملكوت ابن
 محبة »... ويذكر لفظ ملكوت مرتبطة بالمسيح مرتين في (٢ تي ٤ : ١ ، ١٨) . وفي
 (عب ١ : ٨) يذكر الرسول الملكوت مرتبطاً بالابن ، ويذكر « الملكوت » وحده في
 (عب ١٢ : ٢٨) .

ويذكر يعقوب الرسول « ملكوت الله » مرة واحدة في (يع ٢ : ٥) . ويذكر
 القديس بطرس الرسول : « ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدى » (٢ بط ١ :
 ١١)... أما في سفر الرؤيا فيرد تعبير « ملكوت يسوع المسيح » (رؤ ١ : ٩) . وفي
 (رؤ ١١ : ١٥) يقول : « قد صارت ممالك العالم لربنا ومسيحه فسيملك إلى أبد
 الأبدين » . أخيراً في (رؤ ١٢ : ١٠) يقول : « الآن صار خلاص إلهنا وقدرته
 وملكه وسلطان مسيحه » .

وما سبق يبرز سؤال : لماذا استخدم القديس متى في إنجيله تعبير « ملكوت
 السموات » - لا أقول أكثر مما أورده بقية الإنجيليين - بل أكثر مما جاء في كل
 أسفار العهد الجديد ؟

معلوم ان متى كتب إنجيله لليهود . ويقول علماء الكتاب المقدس إن
 اليهود اعتادوا في عصورهم المتأخرة قبل مجيء المسيح ، ألا يستخدموا اسم
 الجلالة حفظاً وتقديساً له ، وتطرفاً في فهم الوصية الثالثة من الوصايا العشر « لا تنطق
 باسم الرب إلهك باطلاً » (خر ٢٠ : ٧) . وبلغ بهم الأمر أنهم ابدعوا الله بتاتاً عن
 العالم ، ونزهوه عن الاتصال بكل ما هو مادي . ووضعوا أسماء أخرى لتحل محل

اسمه ، ينطقون بها عندما يريدون أن يثيروا إليه ... والسيد المسيح في اعترافه أمام رئيس كهنة اليهود ، صادق على استخدام لفظ «المبارك» بدلاً من الله ، وذلك حينما سأله : «أنت المسيح ابن المبارك» (مر ١٤ : ٦١ ، ٦٢) ... وربما يكون السيد المسيح قد اتع نفس المهج في مثل لائن الفضال حينما يقول لأبيه : «أخطأت إلى السماء وقد مئت» (لو ١٥ : ٢١) ، إذ أن كلمة «السماء» استخدمت بديلاً عن اسم الجلالة وهو الله .

نعود إلى كلمة «ملكوت» ونقول إن علماء اللغات يقررون أن الكلمة العبرية والآرامية التي تترجم «ملكوت» تعنى حكم الله وسلطانه ... بهذا المعنى وردت في العهد القديم في بعض مواضعه . أما في مواضع أخرى فتشير إلى سلطان الله وحكمه في جماعة خاصة به دون بقية الشعوب ، دخل معها في عهد مقدس .

لكن متى بدأ ملكوت الله على الأرض ؟

بدأ هذا الملكوت بصورة ظاهرة في دعوة الله لإبراهيم بأن يخرج من أور الكلدانيين ، ليكون أباً لجمهور من الأمم ... وأخذ صورته الرسمية في الأمة الإسرائيلية يوم أخذ بيدهم وأصعدهم من أرض مصر ليكونوا له مملكة كهنة وأمة مقدسة (خر ١٩ : ٦) . ولذلك فحينما كان السيد المسيح يتكلم عن الملكوت أو ملكوت الله أو ملكوت السموات ، كان سامعوه من اليهود يفهمونه ... لكن اليهود كانوا يفهمون الملكوت بصورة مادية . أما الرب يسوع فكان يقصد إلى ناحية روحية خالصة .

وليس هذا فحسب ، بل إن اليهود قصرُوا الملكوت والتمتع بامتيازاته على نسل إبراهيم حسب الجسد ، أما الأمم فقد اقفلوا الباب أمامهم ... ولذا فقد كانت صدمتهم شديدة حينما امتدح السيد المسيح إيمان قائد المائة الأعمى الذى شفى غلامه بقوله : «الحق أقول لكم ، لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا . وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشرق والمغرب ويتكثرون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السموات . وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية» (مت ٨ : ١٠-١٢) .

فكرة الملكوت في العهد القديم :

كلمة « ملكوت » هي نفس الكلمة بنطقها في اللغة العبرية Malekuth ، وتعنى مملكة أو حكم ... وترد كلمة ملكوت واحد وتسعين مرة في العهد القديم . وأول ما وردت في (عدد ٢٤ : ٧) ... على أن كلمة « مملكة أو ملكوت » لها أكثر من معنى في العهد القديم . لكن ما يهمنا هنا هو انها تعنى إسرائيل كمملكة الله أو ملكوت الله « وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة » (خر ١٩ : ٦) ... ومن خلال داود حَكَمَ الله شعبه المختار « وَيَأْمُرْ بَيْتَكَ وَمَمْلَكَتَكَ إِلَى الْأَبَدِ أَمَامَكَ . كَرْسِيكَ يَكُونُ ثَابِتاً إِلَى الْأَبَدِ » (٢ صم ٧ : ١٦) . وقال داود : « لك يارب العظمة والجبروت والجلال والبهاء والمجد ، لأنه لك كل ما فى السماء والأرض . لك يارب المُلْكُ وقد ارتفعت رأساً على الجميع » (١ أى ٢٩ : ١١) .

كان مفهوم اليهود أن « يهوه » هو الذى يملك على إسرائيل ... « قال لهم جدعون لا اتسلط أنا عليكم ، ولا يتسلط ابنى عليكم ، الرب يتسلط عليكم » (قض ٨ : ٢٣) ... وقال الرب لصموئيل النبى : « اسمع صوت الشعب فى كل ما يقولون لك ، لأنهم لم يرفضوك أنت بل إناى رفضوا ، حتى لا أملك عليهم » (١ صم ٨ : ٧) .

كان العقل اليهودى مملوءاً "لدرجة التشيع بعقيدة مجيء المسيا ، حتى أن صلاة اليهود يومياً إلى الله كانت تتضمن فقرة يقولها : « ليملك ملكوته ، ليزدهر فداؤه ، وليأت مسيا ويخلص شعبه » ... وكانت غالبية اليهود العظمى تعتقد أن عصر المسيا هو عصر الشيع والبركات المادية ...

اعتقد اليهود بحسب تعبير العالم الفريد ادرشيم Alfred Edersheim (وهو يهودى متنصر) فى كتابه القيم عن حياة المسيا : [ان الأرض ستخرج من ذاتها أجمل الملابس وأفخرها ، وأطيب المأكولات وأشهاها . ينمو القمح حتى يصل إلى ارتفاع النخيل ... لا بل إلى قمم الجبال . وعندئذ تحيله الرياح إلى دقيق . ثم يلتقى فى الوديان خبزاً ناضجاً شهياً . فى ذلك العصر لن تخيب شجرة ، بل لا بد أن تحمل ثمرها ، وتلقى به كل يوم لتحمل ثمراً جديداً] .

كانوا ينتظرون مسياً أو ملكاً مخلصاً محرراً سياسياً من عبودية الرومان ،
وتملك ملكاً أرضياً ، ويعيد مملكة داود ، ويجعل شعب إسرائيل أعظم شعوب
الأرض ... لكن آماهم خابت لما رأوا المسيح وديعاً متواضعاً ، لا يصيح ولا يسمع
أحد في الشوارع صوته . يعلم تعليماً ينم عن الضعف - في تصورهم - حينما يقول
من لظمك على خذك الأيمن حول له الآخر أيضاً !!

لقد امتلأ العهد القديم بالنبوات عن المسيح الملك . وكمثال لها ما جاء في
المزمور الثاني « أما أنا فقد مسح ملكي على صهيون جبل قدسي . اني اخر من جهة
قضاء الرب . قال لي أنت ابني . أنا اليوم ولدتك . اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك ،
وأقاصي الأرض ملكاً لك » (مز ٢ : ٦ - ٨) .

ملكوت المسيح روحى لا مادى :

سبق أن ذكرنا أن اليهود كانوا ينتظرون المسيا (المسيح) ملكاً أرضياً يؤسس
ملكاً أرضياً ... ولعل هذا الفهم هو السبب في خوف هيرودس الملك اليهودى حالما علم
من المجوس عن ولادة ملك اليهود « أين هو المولود ملك اليهود . فإننا رأينا نجمة في
المشرق وأتينا لنسجد له » (مت ٢ : ٢) .

ويذكر الإنجيل المقدس حادثتين بخصوص نظرة اليهود للمسيح كملك
أرضى واهتمامهم بأن يقيموه ملكاً عليهم : الحادثة الأولى بعد معجزة إشباع
الألوف من خمسة أرغفة وسمكتين . يقول يوحنا : « فلما رأى الناس الآية التى
صنعها يسوع قالوا إن هذا هو بالحقيقة النبى الآتى إلى العالم . وأما يسوع فإذ علم أنهم
مزعمون أن يأتوا ويغتطفوه ليجعلوه ملكاً ، انصرف أيضاً إلى الجبل وحده » (يو ٦ :
١٤ ، ١٥) . والحادثة الثانية يوم أحد الشعانين حين دخل الرب يسوع أورشليم
دخول ملك ظافر منتصر . وكان الشعب يهتف وقد فرشوا ثيابهم في الطريق « مبارك
الملك الآتى باسم الرب ... مباركة مملكة آيينا داود الآتية باسم الرب » (مر ١١ :
٩ ، ١٠ لو ١٩ : ٣٨) ...

لكن السيد المسيح رفض هذا الملك الأرضى ، لذا فحينما اقترب من
مدينة أورشليم نظر إليها وبكى عليها قائلاً : « انك لو علمت أنت أيضاً حتى في

يومك هذا ما هو لسلامك . ولكن الآن قد اخفى عن عينيك . فإنه ستأتى أيام ويحيط بك أعداؤك بترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة ، ويهدمونك وبنيك فيك ، ولا يتركون فيك حجراً على حجر ، لأنك لم تعرف زمان اقتدادك » (لو ١٩ : ٤١ - ٤٤) .

ولأن السيد المسيح رفض ثلك العالم ، وضد اليهود فيه لأنه لم يحقق لهم آمالهم الأرضية العالمية على المستوى المادى ، صرخوا أمام بيلاطس الوالى الرومانى الوثنى : « ليس لنا ملك إلا قيصر » ... وهزأوا بالمسيح والبسوه رداء ارجوانياً - وهو ثوب الملوك . ثم وضعوا إكليل شوك على رأسه وكأنه تاج الملك ، وكانوا يسخرون منه (مت ٢٧ : ١٩) .

ولازال الكثير من المسيحيين يحاربون ويريدون انتصار الكنيسة بالمشاجرة ، مع أن المسيح يقول لبيلاطس وهو يحكم بصلبه : « لو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى يجاهدون لكى لا أسلم إلى اليهود . لكن الآن ليست مملكتى من هنا » (يو ١٨ : ٣٦) .

لقد جاء السيد المسيح إلى العالم ليؤسس مملكة فيه ، لكنها مملكة روحية دعاها « ملكوت الله » أو « ملكوت السموات » ، وهو ملك هذه المملكة الروحية ... سأل بيلاطس المسيح : « أفأنت إذاً ملك ؟ » أجاب : « أنت تقول إنى ملك . لهذا قد وُلدت أنا ، ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق » (يو ١٨ : ٣٧) ... إن مملكة المسيح هى مملكة الحق فى القلب . فقد جاء ليملك على قلوب البشر ... والمسيح يملك بالحب وليس بالعنف ، لا يرفع سيفاً ولا يعلن حرباً ... كان ملكاً بغير سلاح إلا سلاح الروح ، وملكاً بغير قوة سوى قوة الحب !!

قال أحدهم : [صرخ اليهود قائلين : إن كان هو (المسيح) ملك إسرائيل فليُنزل الآن عن الصليب فنؤمن به . أما نحن فنقول : إننا نؤمن به ونسجد له لأنه رفض أن ينزل عن الصليب حباً لنا ومن أجل فدائنا] !!

ما المقصود بملكوت الله ؟

ماذا كان المسيح يقصد بتعبير « ملكوت الله » ؟ ... لقد غنى المسيح بملكوت الله حالة القداسة والبرارة التى تؤهل البشر للتمتع بنعيم الله الأبدى كنتيجة للملكه على حياتهم ... إن الإنسان ينال عربون الملكوت وهو ما زال بالجسد فى هذا العالم ... وهذا عين ما أوضحه السيد المسيح للفريسيين عندما سألوه : « متى يأتى ملكوت الله » فكان جوابه : « لا يأتى ملكوت الله بمراقبة . ولا يقولون هوذا ههنا أو هوذا هناك . لأن ها ملكوت الله داخلكم » (لوقا : ١٧ : ٢٠ ، ٢١) .

كان جواب السيد المسيح عن سؤال الفريسيين من نوع جوابه على نيقوديموس : « إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله ... الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله . المولود من الجسد جسد هو ، والمولود من الروح هوروج » (يوحنا : ٣) ...

هذه الإجابات تتلخص فى أن ملكوت الله روحى ولا يأتى بمراقبة ، بمعنى أنه ليس شيئاً مادياً يخضع للحدود الجغرافية ، ولا يقع تحت حصر البصر ، لأنه أوسع من أن يحده مكان « لا يقولون هوذا ههنا أو هوذا هناك » ...

سبق أن قلنا إن « ملكوت الله » أو « ملكوت السموات » ، هو ملك الله على الأرض أو ملك السماء على الأرض ... والحق إن السماء لم تملك بعد على الأرض حتى الآن ... إنما الذى يملك على الأرض الآن ببطشه وجبروته وطفئانه هو الشيطان « رئيس هذا العالم » (يوحنا : ١٢ : ٣١ ، ١٤ : ٣٠ ، ١٦ : ١١) ... نحن فى عالم غريب امتلأ بالآوضاع المقلوبة . فالأشرار فيه يثابون ، والأبرار يعاقبون ، وعباد الله يُهانون ، وعُباد البعل يكرمون ... كم من أبرار فى أغلال السجون يرسفون ، وكم من اناس يعيتون فى الأرض فساداً فى بحبوحة يرتعون ... ليس هذا هو حكم السماء على الأرض ، إنما هو حكم الشيطان على الأرض . وإن يكن هذا يحدث بسماع من الله الذى يسمح بالشر لحكمة يراها ... لكن هذا كله إلى حين ... إن السماء تحكم الأرض من خلال الأبرار والقديسين والأتقياء الذين اسلموا حياتهم لله .

من خلال الآيات الكتابية التى وردت فى العهد الجديد عن « ملكوت

«الله» و«ملكوت السموات»، ونلاحظ أنها تؤلف ثلاث حلقات متصلة ببعضها: الحلقة الأولى تصف ملكوت السموات كبذرة في قلب المؤمن، وهو ما يُعبر عنه بقول رب المجد: «ها ملكوت الله داخلكم»... والحلقة الثانية تصف الملكوت كشجرة - بعد أن كانت حبة خردل - إنها شجرة وارفة الظلال تأوى تحت ظلها أمم وشعوب الأرض... والحلقة الثالثة تصف «ملكوت السموات» في طور الكمال كثمرة ناضجة، اعدت ليتمتع بها المؤمنون في المجد الأبدى، على نحو ما نراه مدوناً في الاصحاحات الختامية من سفر الرؤيا عن اورشليم الجديدة...

الحلقة الأولى - ملكوت الله أو ملكوت السموات - كبذرة، هو حالة روحية قلبية. لا شيء فيها يُرى أو يُلمس... هو ليس شيئاً مادياً. فملكوت الله ليس أكلاً وشرباً، بل هو بَرّ وسلام وفرح في الروح القدس (رو ١٤ : ١٧)... و**ملكوت السموات كشجرة** يحتاج إلى الصبر على المكارة «إن كنا نصبر فسنملك أيضاً معه» (٢تى ٢ : ١٢)... أما الحلقة الثالثة وهي **ملكوت السموات كثمرة**، فإن الله سوف يدخلنا إليه متى نقلنا إلى المجد، فندخل إلى قلب الفرح في السماء، بعد أن دخل فرح السماء إلى قلوبنا...

إن تعبير السيد المسيح «ها ملكوت الله داخلكم» يصف تماماً وبدقة صورة ملكوته الروحي... لقد بدأ هذا الملكوت في مزود بيت لحم، دون أن يُحسّ به العظماء والأغنياء وحكام هذا الدهر... وظهر فجأة في الهيكل بأورشليم، ولم يتعرف عليه أحد سوى سمعان الشيخ وحنة بنت فنوئيل النبية (لو ٢ : ٢٥، ٣٦)... وبعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ تعرّف عليه قلّة من صيادي السمك والعشارين في الجليل... لم يكن للحكام وكهنة اليهود ورؤسائهم والكتبة والفريسيين عيون ليبصروه... لقد جاء الملك إلى خاصته، وخاصته لم تقبله... حدث ذلك بينما أعلن اليهود أنهم في انتظار الملكوت... وخطأهم الذي وقعوا فيه أنهم كانوا ينظرون في الاتجاه المضاد... كانوا في انتظار علامات. وكان ملكوت الله في وسطهم، لكنهم لجهلهم وغباوتهم لم يتعرفوا عليه.

وثمة نقطة أخرى نشير إليها... لقد ذكر القديس بولس في (١ كور : ١٥ : ٥) «ملكوت المسيح والله»، ويذكر في (١ كور : ١٣) «ملكوت ابن عبته»، فماذا

كان بولس يعنى بملكوت المسيح ؟

ملكوت المسيح هو مُلك المسيح الروحى على قلوب المؤمنين ... لقد تمت هذه الملكية للبشر عندما دفع الرب ثمن نفوسنا على الصليب ... لكى يملك إنسان شيئاً عليه أن يدفع الثمن « قد اشتريتكم بثمن . فمجدوا الله فى أجسادكم وفى أرواحكم التى هى لله » (١ كو ٦ : ٢٠) ... « قد اشتريتكم بثمن فلا تصيروا عبيداً للناس » (١ كو ٧ : ٢٣) ... « عالمين أنكم اقتديتم لا بأشياء تفى ، بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التى تقلدتموها من الآباء ، بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس ، دم المسيح معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم ، لكن قد اظهر فى الأزمنة الأخيرة من أجلكم » (١ بط ١ : ١٨ - ٢٠) .

أمثال المسيح عن الملكوت ودلالاتها :

ضرب السيد المسيح عدة أمثال لتوضيح بعض صفات ملكوت الله ... ففى الاصحاح الثالث عشر من الإنجيل بحسب القديس متى ، أورد سبعة أمثلة قدمها السيد المسيح عن الملكوت هى مثل الزارع ، والزوان والحنطة ، وحب الخردل ، والحُميرة التى حُفرت العجين كله ، والكتز المخفى فى حقل ، واللؤلؤة الكثيرة الثمن ، والشبكة المطروحة فى البحر . وفى الاصحاح العشرين يقدم متى مثل الفعلة والكرم . وفى الاصحاح الحادى والعشرين يقدم مثل الكرم والكرامين ثم مثل العرس والمدعوين فى الاصحاح الثانى والعشرين وأخيراً مثل العذارى فى الاصحاح الخامس والعشرين ...

ولا شك أن كل مثل من هذه الأمثلة يوضح لنا بعض ملامح الملكوت أوجوانبه ، أو بعض النواحي الروحية التى يريد ربنا يسوع أن نتحل بها فى حياتنا الشخصية . يضاف إلى ذلك أن بعض أمثلة الملكوت قصد بها المسيح كنيسته المقدسة التى هى ممكته أيضاً وتضم أعضاء جسده السرى غير المنظور... والآن نستعرض بعض هذه الأمثلة ...

(١) مثل الزارع :

نجد هذا المثل في (مت ١٣ : ١ - ٩ ، ١٨ - ٢٣ ؛ لو ٨ : ٤ - ١٥ ؛ مر ٤ : ١ - ٩ ، ١٣ - ٢٠) .

يوضح هذا المثل مسئولية الإنسان في أن يملك الله على قلبه ... ونلاحظ في هذا المثل أربعة أشياء : الزارع - البذار - التربة - النتيجة ...

من جهة الزارع الزرع الجيد هو يسوع المسيح ابن الإنسان (مت ١٣ : ٣٧) - من جهة البذار هي كلمة الله ، وكلمة الله جيدة وحية وامضى من كل سيف ذى حدين (عب ٤ : ١٢) ... تبقى التربة التي تشير إلى قلب الإنسان ... وهذه ترتبط بالنتيجة .

في هذا المثل يوضح رب المجد حرية إرادة الإنسان في قبول كلمة الله . ويشير إلى أربعة أنواع من التربة : ما يشبه الطريق ، وما يشبه الأماكن المحجرة ، وما يشبه الأرض المليئة بالشوك ، ثم ما يشبه الأرض الجيدة ... والقلب الذي يُرمز إليه بالتربة هو مسئولية الإنسان ... مفروض أن الله خلق الإنسان صالحاً (تك ٩ : ٦) . فكيف تحولت التربة الجيدة إلى طريق مُداس بالأقدام حتى تَبْلُط . وكيف أهملت التربة الجيدة حتى نبت فيها الشوك . وكيف صارت التربة الجيدة محجرة ؟ ... لا شك هذا كله هو مسئولية الإنسان ...

وفي هذا المجال نلاحظ امكانية تحويل كل نوع من الأنواع الثلاثة الأولى للتربة ، إلى تربة جيدة . وهنا نحن نرى في عصرنا تحويل كثير من الأراضي الرملية الصحراوية والأراضي البور إلى أراضي صالحة للزراعة ، وهو ما يسمى باستصلاح الأراضي ... لكن الأمر في هذا الاستصلاح يحتاج إلى جهد وصبر . وهذا ما عبر عنه رب المجد عن أمثال هؤلاء أنهم « يشمرون بالصبر » (لو ٨ : ١٥) ... لا يأس إذن لأى إنسان ، مهما وصلت حالة قلبه من القساوة ، ومهما امتلأ بأحجار العثرات ، وأشواك الشهوات ... في الإمكان أن يتحول بالتوبة وممارستها إلى أرض جيدة تثمر ثمرأ جيداً .

(٢ ، ٣) مثل الزوان والحنطة ، ومثل الشبكة المطروحة في البحر :

(مت ١٣ : ٢٤ - ٣٠ ؛ ٢٦ - ٤٣) ؛ (مت ١٣ : ٤٧ - ٥٠) .

في مثل الزوان والحنطة ، يقال إن بذرة الزوان شديدة الشبه بحبة الحنطة ، كما أن نبات الزوان وهو بعد صغير يكون شديد الشبه بالحنطة ... لذا يصعب في الأطوار الأولى من النمو ، التمييز بين الحنطة والزوان . ولا يظهر الفارق بينهما جلياً إلا بعد ظهور رؤوس النباتات . ولكن في هذه المرحلة المتقدمة من النمو تكون جذور الحنطة والزوان قد تشابكت معاً في باطن التربة ، بحيث يتعذر اقتلاع نبات الزوان دون اقتلاع بعض الحنطة معه ...

إلى أي شيء يشير كل من الحنطة والزوان في هذا المثل ؟

لا خلاف في أن المقصود بالحنطة هو الأبرار والأتقياء . لكن إلى أي شيء يشير الزوان ؟

الزوان يشير إلى أشرار الناس . وإن كان بعض آباء الكنيسة لكبار كيوتن ذهبي الفم وأغسطينوس يرون أن الزوان أيضاً رمز للتعليم الفاسد من جهة الإيمان والمهرطقة .

ومهما يكن من أمر فإن الحقل في هذا المثل يشير إلى العالم وليس إلى الكنيسة كما فهم البعض . فالسيد المسيح له المجد يقول صراحة : « الحقل هو العالم . ولزرع جليد هو بنو الملكوت . والزوان هو بنو الشرير » (مت ١٣ : ٣٨) ...

والمقصود بالمثل هو وجود الشر في العالم كأمر واقع ، واستمرار وجوده بسماع من الله ... يجب أن نفهم هذا جيداً ، أننا على هذا الأساس نحيا في العالم ونتعامل مع الناس ... الزوان هو بنو الشرير أي الشيطان . قال السيد المسيح لليهود : « أنتم من أب هو إبليس ، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا » (يو ٨ : ٤٤) .

من الذي زرع الزوان ؟ زرعه عدو (إبليس) ... كيف ومتى فعل ذلك ؟ فعله « فيما الناس نيام » . أي في حالة غفلة وتهاون وعدم يقظة روحية ... إن

الملوكوت داخل الإنسان يحتاج إلى يقظة ... احذر الشيطان ، فلقد زرع ولا يكف عن الزرع فهذا عمله !!

ما هو موقفنا من الزوان ؟ ... ليس عملنا أن نقتلع الزوان ، بل النمو، والنمو الدائم . فقد قال رب المجد : «دعوها (الحنطة والزوان) ينميان كلاهما معاً إلى الحصاد» . وفي قوله : «معاً» يعنى الخير إلى جانب الشر ... الله يعلمنا أننا فيما نقتلع الزوان نخشى أن نقتلع معه الحنطة ...

كثيرون على مرّ العصور انشغلوا بنزع الزوان . وفيما هم يحاولون ذلك انشغلوا عن الإيجابيات في حياتهم الخاصة ، فأساءوا إلى أنفسهم وإلى الكنيسة !! الله لا يوافق على استئصال الشر والأشرار رغم بغضه له ولهم ، خوفاً على الخير ومحبيه ... لنحذر عند تقليم الأغصان الجافة في الشجرة أن نقتلها أو نأتى عليها ... ورغم فساد كهنة اليهود ومعلميهم من أمثال الكتبة والفريسيين ، كان السيد المسيح حريصاً على مهاجمة فسادهم دون الدور الدينى الذى كانوا يؤدونه ...!!

ونلاحظ في هذا المثل أن العدو بعد أن زرع الزوان « مضى » (مت ١٣ : ٢٥) ، وذلك حتى لا يُرى ... إن أسلوب إبليس في العمل هو التخفى . انه يغير شكله إلى شبه ملاك نور (٢ كو ١١ : ١٣ ، ١٤) ... ثم ان إبليس مضى لأن الزوان لا يحتاج إلى عناية كالزروع الجيد . وكما يقولون : «نبات شيطاني» ... إن السقوط لا يحتاج إلى جهد . يكفى أن الإنسان يترك ذاته فيسقط . وأما النهوض والقيام فيحتاج إلى جهد ...

سيظل الزوان والحنطة متجاورين في هذا العالم ... سيظل الخير والشر معاً حتى نهاية العالم «إلى الحصاد» . والحصاد هو إنقضاء الدهر ... «وخرج ملاك آخر من الهيكل يصرخ بصوت عظيم إلى الجالس على السحابة . ارسل منجلك واحصد ، لأنه قد جاءت الساعة للحصاد ، إذ قد ييس حصيد الأرض» (رؤ ١٤ : ١٥) .

هذا عن مثل الزوان والحنطة ، فإذا أتينا إلى مثل الشبكة المطروحة في البحر ، نجده يقدم نفس المعنى ... « يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة في البحر وجامعة من كل نوع . فلما امتلأت اصعدوها على الشاطئ . وجلسوا وجمعوا الجياد إلى أوعية . أما الأردياء فطرحوها خارجاً . هكذا يكون في إنقضاء العالم . يخرج الملائكة

ويفرزون الأشرار من بين الأبرار. ويطرحونهم في أتون النار...» (مت ١٣ : ٤٧ - ٥٠) ...

والمعنى كما يوضح المثل ، هو تلازم الخير والشر في العالم حتى إنتهاء هذا الدهر (فالثنان موجودان في شبكة واحدة). وان الشر لن يستأصل من الأرض قبل اليوم الأخير. سيخالط الأشرار الأبرار في ملكوت الله على الأرض إلى يوم الدينونة ...

(٤ ، ٥) مثل حبة الخردل ومثل الخميرة :

(مت ١٣ : ٣١ ، ٣٢ ؛ مر ٤ : ٣٠ - ٣٢ ؛ لو ١٣ : ١٨ ، ١٩) ؛

(مت ١٣ : ٣٣ ، لو ١٣ : ٢٠ ، ٢١) .

في مثل حبة الخردل يقول رب المجد إن إنساناً أخذها « وزرعها في حقله ، وهي أصغر جميع البذور . ولكن متى غمت فهي أكبر البقول ، وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتي وتتأوى في أغصانها » (مت ١٣ : ٣١ ، ٣٢) .

يقول القديس جيروم إن ملكوت السموات في هذا المثل هو الكرازة بالإنجيل . إن هذا المثل يشير إلى نمو الملكوت وامتداده . فالمسيحية بدأت متواضعة في أعداد قليلة ولكن سرعان ما أن « الذين لم تسمع أصواتهم في كل الأرض خرج منطلقهم ، وإلى أقطار المسكونة بلغت أقوالهم » ... وقد تنبأ عن ذلك دانيال النبي بقوله : « كنت أرى فإذا بشجرة في وسط الأرض وطولها عظيم . فكبرت الشجرة وقويت فبلغ علوها إلى السماء ، ومنظرها إلى أقصى كل الأرض . أوراقها جميلة وثمرها كثير ، وفيها طعام للجميع ، وتحتها استظل حيوان البر . وفي أغصانها سكنت طيور السماء وظلّهم منها كل البشر » (دا ٤ : ١٠ - ١٢) .

وطيور السماء في هذا المثل ترمز إلى الشعوب الوثنية . وكان هذا التشبيه مألوفاً وشائعاً في كتب الأدب اليهودي في ذلك العصر .

وهكذا فإن مثل حبة الخردل يشير إلى إنتشار المسيحية الخارجى ... ومازالت حبة الخردل التي صارت شجرة كبيرة تمتد بأغصانها رغم تيارات المادية والإلحاد التي تناهضها في بقاع كثيرة من العالم ... لعل المسيح بهذا المثل أراد أن يشجع القطيع الصغير الذي سُرَّ الآب أن يعطيهم الملكوت (لو ١٢ : ٣٢) .

وإذا كان مثل حبة الخردل يشير إلى نمو المسيحية الخارجى وانتشارها ، فإن مثل الخميرة يشير إلى عمل المسيحية وفعاليتها بالنعمة في داخل الإنسان ... فالملكوت في هذا المثل يشبه : « خميرة أخذتها امرأة ونخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع » (مت ١٣ : ٣٣) ... والخميرة الموضوعة في عجينة الدقيق تتفاعل من الداخل دون أن يرى ماذا يحدث . كل ما نلاحظه أن العجين يرتفع ويزداد حجمه

بفعل الخميرة .

وعلى الرغم من أن الخميرة رمز للشر في الكتاب المقدس (١ كو ٥ : ٧) لو (١٢ : ١١ غل ٥ : ٩) ، وحرمت الشريعة الموسوية استخدامها في التقدمة ، باستثناء حالة واحدة وردت في (لا ٢٣ : ١٧) ، وفي عيد الفصح كان اليهود يعزلون الخمير من بيوتهم مدة سبعة أيام ، لكن من الممكن استخدام نفس التشبيه للتعبير عن الشر والخير ، كل من زاوية خاصة . فالمسيح له المجد شبه في الكتاب بأسد « هوذا قد غيب الأسد الذي من سط يهوذا أصل داود » (رؤ ٥ : ٥) ... والشيطان شُبّه بأسد زائر يجول ملتصقاً بابتلاع المؤمنين (١ بط ٥ : ٨) ... والمسيح رمز إليه بحية من نحاس رفعها موسى في البرية (يو ٣ : ١٤) ، بينما الحية هي التي أغوت حواء في البداية . كما أن المسيح طالب اتعاه أن يكونوا حكماء كالحيتات ... وهكذا .

أما عن الثلاثة أكيال دقيق التي خبأت المرأة فيها الخميرة ، فيقول عنها القديس أغسطينوس إنها ترمز لأولاد نوح الذين عمقوا الأرض بعد الطوفان . وقال آباء آخرون انها تشير إلى قارات العالم الثلاث المعروفة في العالم القديم وقتئذ . وهكذا يكون المعنى أن الثلاثة أكيال دقيق تشير إلى العالم كله على نحو ما قال السيد المسيح لرسله وتلاميذه : « اذهبوا إلى العالم أجمع . اكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها » (مر ١٦ : ١٥) ... والعالم أجمع هو الثلاث قارات القديمة (آسيا وأوروبا وأفريقيا) ، والخليقة كلها هم نسل أبناء نوح الثلاثة ..

وهناك رأى آخر للقديس حيروم بخصوص الثلاثة أكيال دقيق انها تشير إلى العناصر التي يتكون منها الإنسان وهي الروح والجسد والنفس . وحينما تعمل النعمة فيها يكونون و توفق . ويقول حيروم أيضاً إن المرأة في هذا مثل تشير إلى لكنيسة الثلاثة أكيال تشير إلى الآب والابن والروح القدس ... هذا ويرى أغسطينوس أيضاً في الثلاثة أكيال . إله بكن قلبه وكل نفسه وكل فكره (مت ٢٢ : ٣٧) ...

ومهما اختلفت التفسيرات فالمقصود ان رسالة الإنجيل وعمل النعمة أشبه بقوة جديدة مُجددة انسابت إلى العالم ، وهي كافية لتجديده ...

(٦) مثل الفعلة في الكرم : (مت ٢٠ : ١ - ١٦) .

ويتلخص هذا المثل في أن صاحب كرم خرج صباحاً ليستأجر فعلة لكرمه ، فاتفق معهم على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه . ثم خرج نحو الساعة الثالثة إلى السوق ورأى فعلة آخرين بلا عمل ، فاستأجرهم وأرسلهم إلى الكرم . ثم خرج نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل مثل ذلك . ثم خرج نحو الساعة الحادية عشرة واستأجر آخرين وجدهم بلا عمل . وفي المساء طلب صاحب الكرم إلى وكيله أن يستدعى جميع الفعلة الذين عملوا في الكرم . وابتدأ بالذين استأجرهم في الساعة الحادية عشرة ، وأعطى كلأ منهم ديناراً . فظن الذين عملوا من أول النهار أنهم يأخذون أكثر ، لكن صاحب الكرم ساواهم بمن عملوا في الساعة الحادية عشرة ، فغضبوا على صاحب الكرم . فقال لواحد منهم : « يا صاحب ما ظلمتك . أما اتفقت معي على دينار . فخذ الذي لك واذهب ، فإنني أريد أن أعطى هذا الأخير مثلك . أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بما لي » . وختتم الرب يسوع المثل بقوله : « هكذا يكون الآخرون أولين ، والأولون آخرين . لأن كثيرين يدعون ، وقليلين ينتخبون » .

يقول العلامة أوريجينوس في تفسيره لهذا المثل إن العالم يشبه بيوم طويل . أول النهار يمثل الفترة من آدم إلى نوح . والساعة الثالثة تمثل الفترة من نوح إلى إبراهيم . والساعة السادسة تمثل الفترة من إبراهيم إلى موسى . والساعة التاسعة تمثل الفترة من موسى لمجيء الرب يسوع . ونلاحظ أن السيد المسيح قد ادمج الساعة السادسة مع التاسعة « وخرج أيضاً نحو الساعة السادسة والتاسعة » ، لأن في هاتين الساعتين كان يدعو اليهود ويفتقد البشر ليؤسس عهده ، لأن الوقت كان يقترب لخلاص العالم . والساعة الحادية عشرة تمثل الفترة من مجيء الرب إلى نهاية العالم .

ويقول أوريجينوس أيضاً ، من باكر النهار حتى الساعة التاسعة تمثل الشعب اليهودي . أما الساعة الحادية عشرة فدُعِيَ فيها الأمم (لأن المسيح مات على الصليب في الساعة التاسعة) ... إن أصحاب الساعة الحادية عشرة قالوا لصاحب الكرم : « لم يستأجرنا أحد » . أي لم يأتنا أحد الآباء البطارقة (مثل إبراهيم

واسحق ويعقوب) ، أو الأنبياء . إن أحداً لم يكرز لنا طريق الحياة ...

إن الكرم هو الكنيسة الجامعة من عصر هابيل الصديق إلى آخر المختارين الذين يولدون في العالم . والله خلال هذه الفترة الطويلة لم يتوقف عن إرسال عمالاً لكرمه ليعلموا شعبه البر . وقد تم ذلك أولاً بالآباء البطارقة ثم بمعلمي الناموس والأنبياء ، وأخيراً بواسطة الرسل .

فلما كان المساء بدأ يعطيهم أجرهم ... المساء يشير إلى نهاية العالم . ولم يقل صباح اليوم التالي ، لأنه الراحة الأبدية ...

أصحاب الساعة الحادية عشرة أخذوا أولاً إشارة إلى الأمم الذين مجدوا الله من أجل الرحمة (رو ١٥ : ٩) ... والرحمة لا ترتبط بالترتيب «أرحم من أرحم وأثرف على من أثرف» (رو ٩ : ١٥) .

ويقول القديس أغسطينوس إن كل واحد أخذ ديناراً بالتساوي . الجميع أخذوا بالتساوي ، لأن الملكوت هو نصيب الجميع ... لكن كل واحد كان عمله مختلفاً ، لأن في بيت أبي منازل كثيرة . ونجم يختلف عن نجم في المجد ...

إن الإنسان الذي يخدم المسيح على أساس المعادلات حسابية وتقدير الوقت والأتعاب والأجور ، أو طمعاً في مجازاة في هذه الحياة أو الحياة الأخرى ... مثل هذا الإنسان لم يفهم روح المسيح . ذلك لأن الخدمة يجب أن تفهم على أنها تؤدي لله وفاء لدين ... ثم إن الخدمة المسيحية تؤدي من أجل المحبة .

(٧) مثل العرس والمدعوين : (مت ٢٢ : ١ - ١٤ ؛ لو ١٤ :

١٦ - ٢٤) .

يورد القديس متى في إنجيله هذا المثل عن ملك صنع عرساً لابنه . أما القديس لوقا في إنجيله فيورد هذا المثل عن إنسان صنع عشاءً عظيماً . وفي كلا الروايتين اعتذر المدعوون عن الحضور ...

أما هدف السيد المسيح من هذا المثل فهو وجوب تلبية دعوة الله دون الاحتجاج بأي هموم أو مشغوليات ، لأن الدعوة لا تختمل التسويف ...

فى المثل بحسب القديس متى فإن العرس يشر إلى الكنيسة الآن فى العالم ... أما فى لوقا فالفشاء يشر إلى الوليمة الأبدية ... كثيرون فى هذا الزمان يحضرون العرس أى يدخلون إلى الكنيسة التى ستركونها . لكن الذين يدخلون إلى الوليمة الأخيرة فلن يخرجوا منها .

الملك أرسل عبيده أى الأنبياء ... لقد أرسل عبيده مرتين . والعبيد فى المرة الأولى هم الأنبياء ، وفى المرة الثانية هم الرسل ... ويرى العلامة أوريجينوس ان العبيد فى المرة الثانية هم مجموعة ثانية من الأنبياء ... أما الملك فى هذا المثل فيرمز للآب السماوى . والابن الذى اقيم له العرس هو المسيح . أما العروس فهى الكنيسة .

وفى المثل بحسب رواية القديس لوقا ان صاحب الوليمة رأى إنساناً وسط المدعوين ليس عليه ثياب العرس ... فماذا يكون ثياب العرس ... ؟

لقد فسروا ثياب العرس بالمحبة . وهذا هو رأى أوريجينوس الذى يستند لكلام بولس الرسول : « البسوا كمحتارى الله القديسين المحبوبين احشاء رأفات ولطفاً وتواضعاً ووداعة وطول أناة ... وعلى جميع هذه البسوا المحبة التى هى رباط الكمال » (كو ٣ : ١٢ ، ١٤) ... وفسروه أيضاً بالإنسان الخاطئ الذى لم يلبس الرب يسوع (رو ١٣ : ١٤) . أى الخاطئ الذى لم يغير طريقة حياته ويحيا الحياة الجديدة ...

هذا الإنسان الذى لم يكن لابساً ثياب العرس ، لما سُئل كيف دخل وليس عليه ثياب العرس «سكت» (مت ٢٢ : ١٢) ... والمعنى انه ليس للإنسان عذراً أو إجابة يجيب بها عن حياة الخطيئة التى يحياها .

(٨ ، ٩) مثل الكنز المُخفى فى حقل ، واللؤلؤة الكثيرة الثمن :

(مت ١٣ : ٤٤) ؛ (مت ١٣ : ٤٥ ، ٤٦) .

ويقصد رب المجد يسوع بهذين المثليين أن الأرض بكل كنوزها والعالم بكل ما فيه لا يوازى الملكوت .

في مثل الكنز المخفى في حقل يقول ربنا يسوع : « يشبه ملكوت السموات كنزاً مخفياً في حقل ، وجده إنسان فأخفاه ، ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل » .

يبتدى الرب يسوع هذا المثل بكلمة « يشبه » ، لأن الملكوت لا شبيه له في عالم المادة . يقول داود مناجياً الله : « ليس لك شبيه في الآلهة يارب ، ولا من يصنع كأعمالك » (مز ٨٦ : ٨) ...

الكنز مخفى في حقل - ماذا يكون هذا الحقل ؟

ربما كان هذا الكنز هو الإنجيل على نحو ما يوجد اللب في الصدر ، والنخاع في العظام ، والمِن في الطلّ ، والماء في البئر ، والشهد في خلية النحل !! ليس هو في حديقة ذات سور ، بل في حقل مكشوف يمرّ عليه الناس جيئة وذهاباً كل يوم ... فمن يريد الفوز بالكنز فما عليه إلا أن يأتي ويفلّح الحقل حتى يجده ... من أجل هذا يقول رب المجد يسوع : « فتشوا الكتب (المقدسة) لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية ، وهي التي تشهد لي » (يو ٥ : ٣٩) .

ورب قائل يقول لقد قرأت الكتاب المقدس لكنني لم أعر على هذا الكنز... ولمثل هذا الإنسان نقول إن أغنى المناجم توجد عادة في لأراضي المجربة وعلى أعماق حقيقة . فلا تتوقع أن يوجد الكنز على مقربة من سطح الأرض أو بعد عمق يسير . الأمر يحتاج إلى عمق أكثر . وهنا نتذكر كلمات الرب يسوع لسمعان بطرس : « ابعِد إلى العمق » (لو ٥ : ٤) . كثيرون نظروا إلى السطح ، واستخفوا بالإنجيل ، لأنهم بطبيعة الحال لم يجدوا شيئاً على السطح . ومن ثم اصعدوا حكمهم على هذا الأساس ، ان أقوال المسيح لا تفوق تعاليم بوذا وكنفوشيوس !!

وربما كان الحقل الذي يحتوي على الكنز هو العالم الذي نحيا فيه ، فالمسيح قال صراحة في مثل لزارع : « الحقل هو العالم » (مت ١٣ : ٣٨) ... ويؤيد هذا الرأي قول بولس الرسول عن الله : « لأن أموره غير المنظورة ، تُرى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات ، قدرته السرمدية ولاهوته حتى انهم بلا عذر » (رو ١ : ٢٠) ... فقدرته الله وعظمته وسموه وكثير من صفاته ، يمكن التحقق منها بالتأمل في

مخلوقاته ... « السموات تحدث بمجد الله ، والفلك يخبر بعمل يديه » (مز ١٩ : ١) ...
حتى أن الطيور والحيوانات والطبيعة الجامدة كلها تسبح الله (مز ٦٥ ، ٩٦ ، ٩٧) ...

يمكنك أن تعبد الكنز المخفى - وهو الرب يسوع - في شخص رجل فقير
يستحق احساناً . ويمكن أن تعبد في إنسان مريض ، أو آخر يحتاج إلى كلمة تعزية
وهكذا ... ألم يقل الرب يسوع : « الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد اخوتي هؤلاء
الأصاغر فبى فعلتم » (مت ٢٥ : ٤٠) ؟ !

وذلك الشاب الغنى الذى سأل الرب يسوع عما يفعله ليرث الحياة الأبدية . فكان
جوابه عليه أن يذهب ويبيع كل ماله ويعطى الفقراء فيكون له « كنز في السماء »
ويتبعه حاملاً الصليب (مر ١٠ : ١٧ - ٢١) ... وعلى هذا الأساس ظهرت الرهينة
في المسيحية .

لكن كيف يكون الكنز والحال هذه مخفى ؟

نعم مخفى ... إذ من يظن أن ذلك الفقير المعدم هو الرب يسوع ؟ ! ومن يظن
ان المسجون هو الرب يسوع ؟ ! ومن يظن أن المريض والمقعّد هو الرب
يسوع ؟ ! ... لو سار المجوس بحسب منطق أهل العالم لما اهتدوا إلى الطفل
يسوع . وحتى لو اهتدوا إليه لما اهتدوا إلى كُنْهه وحقيقته ... لكنهم وجدوا الملك
الإلهي .. أين ؟ وجدوه مُضْجِماً في مزود غموطه البهائم في ائمال بالية ... لكنهم
- والحال هذه - ما كذبوا ما رأته عيونهم . ولوقتهم سجدوا له ، وقدموا له
هداياهم ... من يظن أن ملك الملوك بولد في مزود للبهائم ... أليس هذا كنز
مخفى ؟ !

هذا الكنز وجده إنسان فأخفاه ...

تأخفاه

سار

وجده إنسان - أى إنسان ... فالمسيح أتى لأجل الجميع ... لليهودى
واليونانى ، والبربرى والسكىثى ، والعبد والحرّ ، والجاهل والحكيم ...

هذا الإنسان الذى وجد الكنز أخفاه . ولماذا أخفاه ؟ !

أمر فرعون مصر القابلات العبرانيات بقتل كل أطفال اليهود الذكور . لكن موسى

اختفته أمه ثلاثة شهور، وبذا عاش الطفل ... والفضيلة هي مولود النفس، نحتاج أن نُحِبَّهَا من فرعون الروحي أى إبليس ... إن الفحم بعد أن يشتعل تملوه طبقة من الرماد بحيث يخاله الناظر أنه منطفئ. لكن ما أن يقترب منه حتى يحسّ بالدفء والحرارة ... هكذا الإنسان المسيحي يجب أن يحرص على إخفاء كنزه ... وهكذا عاش القديسون حياتهم ... إن كل مجد ابنة الملك من داخل (مز ٤٥ : ١٣).

« ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل » .

« من فرحه » ... هذا يشير إلى الدافع والاشتياق ... كان فرح هذا الإنسان بالكنز أكثر من جميع ممتلكاته ... إن القديس بولس بعد أن عدّد اتباعه في خدمة الكرازة يقول : « كمائتين وها نحن نحيا ، كمؤدين ونحن غير مقتولين ، كحزاني ونحن دائماً فرحون . كفقراء ونحن نُغْنَى كثيرين . كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء » (٢ كو ٦ : ٤ - ١٠) ... وعلى الرغم من أن الإنسان لا شيء له ، ولكنه في نفس الوقت يملك كل شيء ، لأنه يمتلك الكنز الحقيقي ... هذا ما فعله الآباء الثّسّاك الذين عاشوا في البراري والقفار في حياة تجرّد كامل ، لكنهم ومع ذلك كانوا يحملون بداخلهم الكنز الحقيقي ربنا يسوع المسيح ...

« وباع كل ما كان له » .

ما هذا الذي يبيعه الإنسان لكي يشتري الكنز ؟ ... ليس من الضروري أن تكون ممتلكات يبيعها الإنسان ، ويوزع ثمنها على المحتاجين لكي يقتنى الكنز ... قد لا يكون لدى مالا ، لكنني أقتنى دموعاً وخشوعاً ومسكنة روحية ... هذه كلها وغيرها أستطيع أن أشتري بها الكنز ... قد أبيع شهواتي الجسدية وكل ما يوقني عن الحياة مع الله ، بمعنى أتركها ... وبهذا اشتري الحقل الذي به الكنز ...

هذا الإنسان الذي اكتشف وجود الكنز « مضى وباع كل ما كان له » ... إن هذا يشير إلى الخطوات الإيجابية في سبيل اقتناء الكنز ... التخلي عن الشهوات . التحلل من كل رباطات الخطية ... « ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك » (مت ١٩ : ٢٧) ...

وماذا بعد هذا ... لقد اشتري ذلك الإنسان الحقل الذي اكتشف فيه الكنز .. ألم

يقول الرسول : « إنا ورثة الله ووارثون مع المسيح » (رو ٨ : ١٧) ؟

وعن مثل اللؤلؤة الكثيرة الثمن يقول رب المجد يسوع : « يشبه ملكوت السموات إنساناً تاجراً يطلب لآلئ حسنة فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ما كان له واشترها » .

التاجر في هذا المثل هو نموذج للإنسان الذي يبحث عن المسيح حتى يجده ... ونلاحظ على هذا الإنسان أربعة أمور: أولاً يطلب لآلئ حسنة أى يبحث عنها - ثانياً إنه يجدها - ثالثاً انه يمضى ويبيع ما لديه - رابعاً انه يشتريها ...

ربما اختلف هذا الإنسان التاجر الذى يطلب ويبحث عن اللآلئ الحسنة، عن الإنسان الذى وجد الكنز فى حقل دون أن يبحث عنه ... قد يكون يبحث عن شيء آخر ووجد الكنز. وهو فى هذه الحالة مثال للإنسان الذى أعلن له المسيح ذاته دون أن يبحث عنه « وُجِدَت من الذين لم يطلبونى. وصرتُ ظاهراً للذين لم يسألوا عنى » (إش ٦٥ : ١٠١ رو ١٠ : ٢٠) ... لكن هذا الإنسان التاجر من طراز أكثر نبلاً، وله عقلية أسمى ... انه يبحث عن لآلئ حسنة ... ونتيجة جده وبعثه ورغبته السامية، وجد اللؤلؤة الكثيرة الثمن ... كان منشغلاً فى التفكير والبحث. وكانت طاقاته منصرفة إلى ذلك ...

كان لهذا التاجر هدف محدد : السعى والبحث عن اللآلئ الحسنة والحصول عليها . يجب تحديد الهدف ولا نخرج بين الفرقين ... إن كان العالم بمغرياته يستحق خدمتك وتعبك فاذهب إليه وكن فى خدمته . وإن كان السيد الرب الذى خلصك يستحق خدمتك فمُيز في هذا الطريق ...

نحن لا نعرف قيمة هذه اللؤلؤة . كل ما نعرفه انها كانت تساوى كل ما يمتلك ذلك التاجر. ولذا فقد مضى وباع كل ما كان له حتى ما يشتريها ... هذا هو عين ما يحدث حينما يجد إنسان المسيح ... لأنه يجد فيه كل احتياجاته ... هل هذه مغامرة أن يبيع الإنسان كل ما له ليقتنى اللؤلؤة التى ترمز للمسيح ... إن الأمر لا يحتاج إلى تردد ...

وحين باع ذلك التاجر كل ما كان له ، صار فقيراً فى نظر الناس ، والفقير يجلب معه البؤس . لكن الحقيقة انه صار أغنى وأسعد إنسان فى الوجود ...

(١٠) مثل العذارى : (مت ٢٥ : ١ - ١٣) .

هذا المثل في غاية الوضوح ، وهو يختص بمجيء المسيح الثانى ...

يقول القديس أغسطينوس إن هذا المثل يختص بالكنيسة كلها - ليس بالاكليروس وحدهم ولا العلمانيين وحدهم ، بل الجميع « خطبتكم لرجل واحد لأقدم عذراء عفيفة للمسيح » (٢ كو ١١ : ٢) . إن العذارى هن النفوس التى لها الإيمان السليم ، ولها أعمال صالحة فى الكنيسة ... ومع ذلك فمنهم خمس حكيما وخمس جاهلات . فلماذا خمسة ، ولماذا عذارى ؟ ... النفس البشرية يرمز لها بالعدد خمسة ، لأنها تستخدم خمس حواس . ولأننا لا ندرك شيئاً إلا بإحدى حواس الجسد الخمسة .

كلا الفريقين عذارى نلن عضوية الكنيسة بالعماد وما إلى ذلك . فلماذا قبلت خمسة منهن ، ورفضت الخمسة الأخريات ؟! ... ليس كافياً نهر عذارى ، وإن لمن مصاييح . هن عذارى بسبب ضبط حواس الجسد من الأشياء غير المشروعة (الرديئة) ، ولهن مصاييح بسبب الأعمال الحسنة . هذه الأعمال الصالحة التى يقول عنها الرب : « ليضوء نوركم قدام الناس . ليروا أعمالكم الصالحة ويعبدوا أبائكم الذى فى السموات » (مت ٥ : ١٦) . « لتكن أحقاؤكم ممنطقة وسرجكم موقدة . وأنتم مثل اناس ينتظرون سيدهم متى يرجع من العرس ، حتى إذا جاء وقرع يفتحون له للوقت » (لو ١٢ : ٣٥ ، ٣٦) ... فى « الاحقاء للمنطقة » العذراوية ، وفى « المصاييح المضيفة » الأعمال الصالحة . فليكون هم عذارى بالجسد ، لكن عذراوية القلب يجب أن تكون فى الجميع ...

يقول أيضاً أغسطينوس : لم يختلف الحكيمات عن الجاهلات إلا فى الزيت ... إن الزيت يشير إلى المحبة . لماذا يُشار للمحبة بالزيت ؟ قال الرسول عن المحبة انها الطريق الأفضل (١ كو ١٢ : ٣١) . إن المحبة تشبه بالزيت ، لأن الزيت يطفو على جميع السوائس . إذا صببت ريتاً على ماء فإنه يطفو . وإذا صببت ماء على زيت فان الزيت يطفو أى يعلو « المحبة لا تسقط أبداً » (١ كو ١٣ : ٨) ... ويُشار بالزيت أيضاً إلى الروح القدس الذى يعطى استنارة للإنسان فى كل حياته ...

« مخرجن للقاء العريس » .

المسيح له المجد هو عريس النفس المملوءة حلاوة ... تقول عروس النشيد :
« اسمك دهن مهراق ، لذلك احببتك العذاري » (نش ١ : ٣) ... هاذا ينتظر العريس
من عروسه ؟ ... ينتظر أن تكون بكل عواطفها له « اسمي يا ابنتي وانظري واميل
سمعي وانس شعبي وكل بيت أبيك ، فإن الملك قد انتهى حسنك لأنه هو ربك »
(مز ٤٥ : ١٠ ، ١١) ...

« في منتصف الليل صار صراخ » .

لماذا في منتصف الليل ؟ ... حين لا يتوقع أحد ، وحين لا يكون على حذر...
كثيراً ما نصحنا ربنا يسوع أن نسهر... « ليس لكم أن تعرفوا الأوقات والأزمنة التي
جعلها الآب في سلطانه » (أع ١ : ٧) . ويقول معلمنا بولس : « يوم الرب سيأتي
كلص في الليل » (١ تس ٥ : ٢) . واللص لا ينبئ بمقدمه . ولكن في نصف الليل
يكون الإنسان قد استغرق في النوم ... وإذا كان عمر الإنسان في العالم يشبه بالليل ،
فمنتصف الليل يشير إلى الإنسان في عز شبابه ... في هذه السن التي لا يتوقع فيها
الإنسان أن يخلع الجسد ، ربما أتى المسيح .

« اعطيننا من زيتكن فإن مصابيحنا تنطفئ » .

هذه كلمات الجاهلات . وهذا الطلب مستحيل بعد الموت ... وحين تجاوبهن
الحكيما « اذهبن إلى الباعة وابتعن لكنّ » ، فليس المقصود أن هذا ممكن ...

وفي غيبة الجاهلات ، جاء العريس والمستعدات دخلن معه إلى العرس وأغلق
الباب . وعبثاً قرعن العذاري الجاهلات الباب بعد اغلاقه ... حقيقة أن السيد المسيح
قال : « اقرعوا يفتح لكم » . لكن هذا الكلام يصلح لزمن الرحمة ، في مدة حياة
الإنسان بالجسد . لكن في السماء سيكون زمن العدل . ورحمة الله لا تبطل عدله ...

ويُسدل الستار على المشهد والعذاري الجاهلات واقفات خارجاً . لقد فقدن
كل شيء وانتهى الأمر . انه أمر مرعب وخيف ، لأنه يتعلق بالأبدية التي لا
نهاية لها . لذا فإن المسيح يحتم هذا المثل بنصيحة أخيرة : « اسهرُوا إِنْ لَأَنْكُمْ لَا
تَعْرِفُونَ الْيَوْمَ وَلَا السَّاعَةَ الَّتِي يَأْتِي فِيهَا ابْنُ الْإِنْسَانِ » ...

والسيد المسيح لا يقصد بالسهر هنا سهر الجسد ، وإن كان هذا نافعا في الممارسات الروحية . لكنه على وجه الخصوص يطالبنا بسهر القلب ، وسهر الإيمان ، وسهر الرجاء ، وسهر المحبة ، وسهر الأعمال الحسنة ... قالت عروس النشيد : «أنا نائمة وقلبي مستيقظ» (نش ٥ : ٢) ... نحن الآن في فترة الخطبة ، لأننا مخطوبون للمسيح «خطبتكم لرجل واحد لأقدم عذراء عفيفة للمسيح» (٢ كو ١١ : ٢) ... وفترة الخطبة هي فترة التعرف وتنمية العواطف تهيئة ليوم العرس الذي سيكون في السماء (لو ١٤ : ١٦ - ٢١) .

ويقول القديس يوحنا في رؤياه : «وسمعتُ كصوت جمع كثير وكصوت مياه كثيرة وكصوت رعود شديدة قائلة هلولوا ، فإنه قد مَلَكَ الربُّ الإله القادر على كل شيء . لنفرح ونتهلل ونُعطيه المجد ، لأنَّ عُرس الخروف قد جاء ، وامراته هيأت نفسها . وأعطيت أن تلبس بزاً نقياً بهياً . لأنَّ البزَّ هو تبرّرات القديسين . وقال لي اكتب طوبى للمدعوين إلى عشاء عُرس الخروف» (رؤ ١٩ : ٦ - ٩) .

سعادة الملكوت والحياة الأبدية :

وأخيراً ، لا نجد كلاماً نختم به موضوعنا عن الملكوت أروع وأفضل مما قاله القديس أغسطينوس . يقول :

[الحياة الأبدية مشاهدة . هذا ما قاله المسيح ذاته : «وهذه هي الحياة الأبدية ، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو ١٧ : ٣) . فالحياة الأبدية هي أن يعرفوا ويشاهدوا ويدركوا ما آمنوا به ، وينالوا ما لم يكن بوسعهم أن يدركوه . حينئذ يرى العقل ما لم تره العين ، ولم تسمعه الأذن ، وما لم يخطر على قلب بشر . ثم يسمعون الكلام القائل : «تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم» (مت ٢٥ : ٢٤) .

سوف نرى الله ، وذلك شيء عظيم يصبح كل ما عداه تافهاً ولا قيمة له البتة . نحن نعتبر أنفسنا ههنا سعداء إذا كنا نعيش بسلام ، برغم أن الحصول عليه في هذه الحياة أمر صعب . أما إذا قارنا بين سعادتنا هذه وتلك السعادة العتيدة ، كانت هذه بالنسبة إلى الآتية بؤساً وشقاءً ... ماذا يكون عمل الإنسان

هناك ؟ أَيْسَرُ عَلَى قَوْلِ مَا لَا يَعْمَلُ مِمَّا يُعْمَلُ . وَأَقُولُ إِنَّ اسْتَطَعْتَ وَبِقَدْرِ مَا اسْتَطِيعَ .

الفرح في بيت الله أبدى . وفيه عيد لنا لا ينتقضي ، بل إلى الأبد مع طغمة الملائكة في رؤية الله وسرور لا يزول ... وعيد الإنسان هذا هو من الأعياد التي لا بداية لها ولا نهاية . إذا ابتعد الإنسان عن ضوضاء العالم ، تنأى إليه من ذاك العيد الأبدى نَغَمٌ عذب وشجى .

هناك لا لزوم للفطنة ، إذ لا شر ينحاشه الإنسان . ولا عدل حيث لا بؤس يحب تخفيفه ، ولا اعتدال حيث لا شهوة يُكبح لها جراح ، ولا قدرة حيث لا ألم يُحتمل .

جميلة هي أعمال الرحمة وجديرة بكل تقدير ، ولكن لا فائدة منها حيث لا يفرضها شقاء ملَح . مَنْ الذي تطعمه وليس مَنْ يجمع . وَمَنْ الذي تسقيه وليس مَنْ يعطش . وَأَتَى لَكَ أَنْ تَكْسُو العريان وكل الناس يلبسون عدم الموت . وَأَتَى لَكَ أَنْ تَأْوِي غريباً وكل الناس في وطنهم . وَأَتَى لَكَ أَنْ تَعُوذَ (تزود) المرضى والكل يتمتعون بقوة الطهارة عينها . وَأَتَى لَكَ أَنْ تدفن الموتى وكل الناس أحياء . وَأَتَى لَكَ أَنْ تصالح المتخاصمين وكل الناس مسلمون . وَأَتَى لَكَ أَنْ تنواسي الحزاني وكل الناس في فرح إلى الأبد ... وطالما أن جميع أنواع البؤس تنتهي ، فإن أعمال الرحمة تنتهي معها . هناك تكون سعيداً لا تحتاج شيئاً ولا تطلب شيئاً . وهناك الوافر سيكون هو الله ذاته ...

ستكون سعيداً لأنك لن تحتاج إلى شيء . ستكون مليئاً ولكن من إهلك . وسيكون لك هناك كل ما تتوق إليه ههنا .

ههنا تطلب قوتاً ، وهناك يكون الله قوتاً لك .

ههنا تتوق إلى عناق الجسد ، وهناك « أما أنا فالالتصاق بالله خير لي » (مز ٧٣ : ٢٨) ... ههنا تطلب الثروات ، أما هناك فهل ينقصك شيء ، وقد صار لك صانع كل شيء .

ولكنك تقول : ماذا أعمل ؟ يبدو أنه لا عمل لي : لا النظر ولا الحب ولا

التسبيح .

إن الأيام المقدسة التى تتلو قيامة الرب (الخماسين المقدسة) تعنى حياتنا بعد القيامة .

وكما أن الأربعين يوماً السابقة لعيد الفصح (القيامة) تعنى حياة الجهاد فى اختبار الموت ، هكذا فإن الأيام التالية للفصح (الخماسين) تعنى حياتنا الأخرى فى الملْك مع الرب .

حياتنا الحاضرة هى كالأربعين يوماً السابقة للفصح . أما الحياة المثلثة بالخمسين يوماً التى تعقب الفصح فلا وجود لها الآن . ولكننا نرجوها ، وبالرجاء نحبها . ونسبح الله بهذا الحب عينه ، وقد وعدنا بها .

في رسالته الثانية إلى المؤمنين ، يذكر القديس بطرس الرسول أن السيد المسيح دعانا بالمجد والفضيلة ، اللذين بهما وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة ، حتى ما نصير شركاء الطبيعة الإلهية ... ثم ينتقل إلى المؤمنين ويحثهم أن يقدموا في إيمانهم فضيلة ، وفي الفضيلة معرفة (٢ بط ١ : ٣ ، ٥) .

لا شك أن الفضيلة هي ثمرة الإيمان الحقيقي . أو قل هي الدليل العمل على هذا الإيمان ... ومن المحزن أننا نعيش في زمن شحّت فيه الفضيلة ، وغدا الإيمان نظرياً في كثير من المسيحيين . ومثل هذا الإيمان النظري ليس له ثمر . نحن نقرأ عن الفضيلة في الكتب المقدسة ، وكذا حينما نقرأ في سير القديسين . ومن الواجب أن نستثمر هذا الذي نقرأه ليصبح سمات مميزة لحياتنا ... بهذا تصبح الفضيلة متجسدة فينا ، ولا تصبح شيئاً نظرياً ، نعيه عقلاً .

من أجل ذلك ابرز السيد المسيح هذا الأمر في بداية خدمته الكرازية ، في عظته الخالدة على الجبل ، وطالبنا أن نكون ملح الأرض ، ونور العالم ، حتى ما يرى الناس أعمالنا الحسنة ويعجدوا أباناً السماوى (مت ٥) ... ونختم على كل ما أوصانا به وطالبنا أن نكون شهوداً له حتى إلى أقصى الأرض ، وذلك في كلماته الأخيرة قبيل صعوده إلى السماء (أع ١ : ٨) ... وكيف نقدم الشهادة للمسيح . هل بالكلام الذي لا يعبر عن حياتنا . وماذا يفيد الكلام ؟!

من أجل كل ذلك اخترنا أن نحدثك في هذا الجزء الأخير من بستان الروح عن فضائل المسيحية العظمى وبعض ثمارها . كما حدثناك عن مبدأ هام في الطريق الروحي ، هو مبدأ الباب الضيق ، الذي هو وصية المسيح أيضاً ... ثم نختم على كل ذلك بموضوع عن الملكوت الذي هو هدفنا جميعاً ، والذي إليه نسعى ، والذي سنقضي فيه أبديتنا السعيدة ... امين تعال أبها الرب يسوع .